الفصل الثاني

السياق التاريخي والعقدي

ـ التوحيد ونشأة الوثنية ـ

المبحث الأوّل

الأديـان السماوية

اليهوديّة

التعريف :

تعرَّف اليهودية حديثا بأنّها : دين من أقدم الأديان السماوية ، اعتنقها العبرانيون المتحدّرون من إبراهيم ـ عليه السلام ـ ونبيّهم موسى ـ عليه السلام ـ (١٣٠١ ق م ـ ١٢٣٤ ق م) وهو رجل من بني إسرائيل ولد في مصر أيّام رمسيس الثاني وتربى في كنفه ، بعد أن ألقته أمّه في اليم داخل تابوت. إضافة إلى التفاصيل التّاريخية التي يغلب عليها عدم الدقّة والوضوح ، في حين يعتبر القصص القرآني مصدرا مهما في ما يتعلّق بتاريخ النبوّة والأنبياء ، وقد تميّز بالبعد عن التفصيل القصصي الإنساني الانطباعي.

وممّا تؤاخذ عليه هذه التعريفات كذلك أنّها تجعل من كلّ دين جزيرة مستقلّة بذاتها ، ولا تذكر قطعا الأصول التّاريخية الرّابطة بين الكيانات الدينية الثلاثة الكبرى: اليهودية والنصرانية والإسلام ، لتجعل من كلّ واحد مسارا منفصلا عن الذي يليه ، يناقضه في المضمون والغاية. وكان من الأجدر الحديث عن وحدة دينية على مستويات الأصل والغاية والتسمية ، مع تبريرٍ لاختلاف الشِرعة والمنهاج بما يقتضيه الواقع والفترة الزّمنية. إذ إنّ خطّ النبوّة في التصوّر العقدي الإسلامي خطّ واحد منذ أن أُهبط آدم إلى الأرض حتى خاتم الأنبياء محمّد ﷺ . وإن كان ولابدّ من تناول هذا المصطلح فإنّنا سنتّبع في ذلك ما تواضع عليه أهل التخصّص في الدراسات الدينية المقارنة ، بإفراد مبحث خاص لكلّ دين ، على أن نعقد مبحثا مستقلا بذاته نفصّل فيه مسألة وحدة الدّين وما طرأ على عقائد النّاس من الانحراف والاختلاف .

مدخل تاريخي :

تجدر الإشارة في البداية إلى أنّنا عند محاولتنا تعريف اليهودية نجد أنفسنا أمام عدّة مصطلحات تربطها علاقة نسب وصلة قوية ، خاصّة ونحن في بحثنا هذا نجمع بين الديني والتّاريخي وما يرتبط به من إرث عرقي ولغوي إلى جانب الأبعاد الحضارية والثقافية الأخرى ذات الجذور المتداخلة ، والتي لها تأثير مباشر على إمكانية التوصّل إلى تعريف دقيق منضبط للشروط العلمية الضرورية التي يجب توفّرها عند صياغة تعريف مصطلح معيّن. ونتيجة لانسياقنا وراء تتبّع أصول وجذور الكلمة وجدنا أنفسنا في سياق محاولة نحت مصطلح جديد مركب ، بالعودة إلى كتب اليهود المقدّسة « التوراة والتلمود » أو شبه المقدّسة « القبّالة والزوهار » أو غير المقدّسة « البروتوكولات » كما يزعم المعادون لليهودية ؛ وذلك لأنّ تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيدا عن الفوضى والشتات الذهني ، من أجل صياغة منطق مشترك بين تفاعلات الأفراد. ومشكلة المصطلح لها شقّان:

أ ـ محاولة توليد مصطلحات جديدة نتيجة تعريف المفاهيم ووصف الظواهر الأساسية ثم تسميتها.

ب ـ ترجمة المصطلح ، إذ الترجمة شكل من أشكال التفسير. ومترجم المصطلح يجد نفسه ، شاء أم أبى ، متوجها للقضايا الفلسفية والمعرفية الكامنة وراء المصطلح. والقضيتان رغم انفصالهما متداخلتان وتثيران الإشكاليات نفسها[1] ،

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، طبعة ١/ ١٩٩٩، ١ / ٤١ (بتصرف).

وهو ما نلاحظه في المحاولات المنهجية التالية عند سعينا لتحديد ثلاث مصطلحات رئيسة مترابطة.

مصطلح إسرائيل:

إنّ الإسرائيليّة تعني كلّ ما يتّصل بإسرائيل أو باليهود، ولكن من الخطأ الاكتفاء بهذا، لاعتبار أنّ اللّفظتين غير مترادفتان تماما، وقد تظهر لنا مصطلحات أخرى لا تقلّ عنها تعقيدا، نحو « العبريّين » أو « صهيونيّين » أو « شعب الله المختار » أو « الشعب الأبدي » أو حتّى « اليهودي التّائه »[1]. وبمراجعة التوراة، نجد أنّ إسرائيل الذي تنسب إليه الإسرائيليّة هو سيّدنا يعقوب ـ عليه السّلام ـ ووجه التّسمية راجع إلى أسطورة يتناقلها اليهود، من أن يعقوب كان قد صارع « الله » فصرعه ؛ لذلك باركه وأطلق عليه اسم إسرائيل، الذي يعني « إسرا » القوّة أو الغلبة، و« إيل» بمعنى الإله « الله »، فتكون التّسمية « قوّة الله » وتفسّر كذلك بمعنى « غالب الله »، بحسب نصّ العهد القديم: « وصارعه إنسان حتّى الفجر، ولمّا رأى أنّه لا يقدر عليه، ضرب حقّ فخذه، فانخلع حقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال : أطلقني لأنّه قد طلع الفجر، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له : ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل ؛ لأنّك جاهدت مع الله والنّاس وقدِرت »[2]. وهذا المشهد في الحقيقة هو تأثّر باعتقاد أسطوري بدائي، في وجود مخلوقات غامضة من قبيل الأرواح والعفاريت، تسكن مجاري المياه، وتظهر

(١) حسن ظاظا: الشخصية اليهودية، دار القلم، دمشق، طبعة ١ / ١٩٨٥، ص ١٤.

(٢) تكوين: ٣٢ – ٢٤ / ٢٨.

للنّاس في الظّلام ، وبذلك تناقل بنو إسرائيل هذه المفخرة المأثورة لاعتبار سلفهم مبارك ، قادر على المصارعة والتغلّب لا عن البشر فحسب بل حتّى عند مصارعة « الله » أيضا.

وقد طبعت هذه الأساطير الأدب اليهودي ، ولكن من الغريب أنّه لم تُؤثر أكثر من هذه الحادثة عن يعقوب ، إذ تصوّره بعد ذلك التّوراة نفسها ، عكس أخيه التّوأم « عيسو » ، الذي كان صيّادا خشنا ، كثيف الشّعر ، يتمتّع بكلّ مواصفات القوّة ، وبعكس ذلك تصوّر يعقوب بأنّه كان يخاف أخاه[1] ، ويخاف أصهاره ، وفي آخر عمره نجده حزينا ، يبكي حتّى ابيضّت عيناه عندما اختفى ابنه يوسف.

كما وردت في النقوش الأثرية كلمات قريبة من لفظ « إسرائيل » ، تشير إلى فئة من البشر أو عشيرة من النّاس ، فقد ذكر المؤرّخ البريطاني وعالم اللّغات الشرقية « فلندرز تيري » : أنّ اللّغة المصرية القديمة تستعمل كلمة « أسير آرا » اسما لمجموعة من النّاس ، كما يشير غيره من علماء المسمارية ، إلى أنّ لفظة « سيرئيلاي» مستعملة في البابلية الآشورية بمعنى « إسرائيل » ، و« إسرائيلي » . ولا يزال بنو إسرائيل حتّى الآن يؤثرون التّعريف بأنفسهم باسم « الإسرائيليّين » على الاسمين الأخيرين ، وقد جاء عن الدّكتور « هورش » وهو أحد زعماء يهود أمريكا قوله في عظة ألقاها في شيكاغو عام ١٨٩٤ : « أنّ النّاس إذا أرادوا بنا

(١) كان يعقوب هاربا من أخيه « عيسو » الذي كان طبقا للرواية يبحث عنه ليقتله ؛ لأنه سرق منه حق البكورية في ميراث الأب، وخدع أباه، وكان يعقوب شخصا آبقا مشردا لا وطن له، وصفته التوراة بالآرامي التائه. انظر: عبد المجيد همو: مصادر التوراة، دار غار حراء، دمشق، طبعة ١٩٩٩، ٢ / ٥٣٧.

تحقيرا وازدراء دعونا يهودا ، وإذا أرادوا الإغضاء عن مسّ عواطفنا ومجاملتنا بعض المجاملة دعونا عبرانيّين ، وأمّا إذا أرادوا التحبّب والتزلّف إلينا لغاية في النّفس ، كأن يقصدوا ضمّ أصواتنا إلى فئة من أحزابهم في الانتخابات أو الانتفاع بأموالنا لعمل من الأعمال ، فإنّهم يدعوننا حينئذ إسرائيليّين »[١] .

مصطلح عبري: لا يمكن تحديد أصل يرجع إليه هذا اللّفظ ، برغم ارتباطه في الفكر اليهودي بقيمة اللّغة. إذ ترفعه الروايات المقدّسة إلى اسم واحد من الأجداد القدامى للسّاميين ، هو « عابر بن شالم بن أرفكشاد بن سام » أكثر أبناء نوح خير وبركة. كما حاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين لفظ عبري ولفظ « حبيرو» أو « خبيرو » ، والذي وجد في لوحات تل العمارنة بصعيد مصر ، وكذلك في وثائق آشوريّة استخرجت من حفريات « نوزي » شمال العراق ، وغيرها من الآثار القريبة من العهد البابلي المبكّر في العراق. إلاّ أنّه يوجد تحفّظا حول وجود علاقة بين اللّفظتين ، لاعتبار « عبري » صفة تدلّ على النّسب لوجود ياء النّسبة ، بينما « الحبيرو» لا تعني شيء أكثر من المرافقة والمزاملة. ويرجع فريق آخر من الباحثين أصل التّسمية إلى معنى اشتقاقي من « العبور » . ولكن السّؤال هو: عبور ماذا ؟ وعبور من ؟ ، وفي ذلك عدّة آراء :

١ـ ترجع التّسمية إلى يعقوب حين عبر الفرات هاربا من أصهاره بالعراق : « فهرب هو وكلّ ما كان له ، وقام وعبر النّهر ، وجعل وجهه نحو جبل جلفاذ»[٢] ، لذلك يعتبر الباحثون أنّ عبور يعقوب الفرات أساس تسمية العبريّين.

---

(١) بطرس البستاني: مصدر سابق ١١ / ٦٥٩ (بتصرّف) .

(٢) تكوين: ٢١ ـ ٣١ .

٢ـ يرى فريق آخر أنّ إبراهيم سمّي عبريا ؛ لأنّه عبر النّهر ، ويحتمل أن يكون النّهر المقصود هو نهر الفرات كما يحتمل أن يكون نهر الأردن.

يرى « إسرائيل ولفنستون » في كتابه « تاريخ اللّغات السامية » ، أنّ كلمة عبري لا ترجع إلى حادثة بعينها أو شخص بعينه ، وإنّما ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل ، وذلك أنّهم كانوا في الأصل من الأمم البدويّة الصّحراوية التي لا تستقرّ في مكان واحد ، فكلمة عبري مثل كلمة بدوي ، أي السّاكن الصّحراء أو البادية. وقد كان الكنعانيون والمصريّون والفلسطينيّون يسمّون بني إسرائيل بالعبريّين لعلاقتهم بالصّحراء ، وليميّزوهم عن أهل العمران ، وباستيطانهم بأرض كنعان صاروا ينفرون من كلمة عبري لعلاقته بالبداوة والخشونة وآثروا أن يسمّوا بني إسرائيل[١] . ونفس الصّفة أطلقتها امرأة العزيز على يوسف ـ عليه السّلام ـ مخاطبة زوجها : « دخل إليّ العبد العبراني الذي جئتَ به إلينا ليداعبني »[٢] .

ولقد جاءت أوّل إشارة إلى لفظ « عبراني » في سفر التكوين: « فأتى من نجا وأخبر أبرام العبراني وكان ساكنا عند بلوطات مَمْرا الأموري أخي أشكول وأخي عانر »[٣] . وجاء لفظ عبري بمعنى يهودي في سفر الملوك الثاني ، في مناسبة استيلاء ملك آشور على أورشليم: « فقال الياقيم...كلّم عبيدك بالآرامية لأنّنا نفهمه ولا تكلّمنا باليهودي في مسامع الشّعب...ثمّ وقف « ربشاق » ونادى بصوت عظيم باليهودي »[٤] . كما جاء بمعنى إحدى اللّهجات الكنعانيّة في سفر

(١) أحمد شلبي: اليهودية ، مكتبة النّهضة المصرية ، طبعة ٥ / ١٩٧٨ ، ص ١٤٨.

(٢) تكوين: ٣٩ – ١٧.

(٣) التكوين: ١٤ – ١٣.

(٤) سفر الملوك الثاني: ١٨ – ٢٨ / ٢٩.

أشعيا : « في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلّم بلغة كنعان »[١].

إلاّ أنّ دائرة المعارف تعارض هذه الفكرة ، لاعتبار أنّه إذا فرضنا أنّ هذا التأويل يحتمل التوسّع ، فليس بتلك العبارة وحدها ما يوجب الترجيح بنسبة العبرانيّين إلى «عابر» دون سواه من عقب « سام » ؛ مع وجود أدلّة أخرى أقوى على تسميتهم بالعبرانيين من العبر ، فإنّ لفظة العبر باللّغات السامية يراد بها على الإطلاق جانب النّهر وناحيته ، ولكنّها تفيد بنوع خاصّ جانب الفرات الأيمن ، وعليه تعريفها بكتب اللّغة: « العبر ما أخذ على غربي الفرات إلى بريّة العرب » ، وهو تعريف مأخوذ بلا ريب عن العبرانية أو بتعبير أصحّ عن الكلدانية ، إذ كان الكلدان على ما يظهر يعرّفون سكّان من عبر الفرات بالعبرانيين ؛ ولهذا قال هشام الكلبي بعد إيراد هذا التعريف عن العبر : « وإليه ينسب العبريون من اليهود ؛ لأنّهم لم يكونوا عبروا الفرات حينئذ » ، وهذا ما يلتقي في بعض منه مع ما ذهبت إليه نصوص في التّوراة ، تسمّيهم بالعبرانيين من العبر ، من ذلك تلقيب إبراهيم بالعبري أو العبراني لأوّل مرّة في سفر التّكوين « فأتى من نجا وأخبر أبرام العبراني»[٢].

ولكن إن كانت التّسمية مرتبطة بالعبور ، فإنّنا نرى في عبور سيّدنا موسى ـ عليه السّلام ـ للبحر أكثر إعجازا وأولى بنسبة التّسمية إليه ، إذ تورد التّوراة أنّه أوّل من تغنّى بهذا العبور: « حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء موآب ، تأخذهم الرّجفة ، يذوب جميع سكّان كنعان ، تقع عليهم الهيبة والرّعب ، بعظمة ذراعك

---

(١) أشعيا : ١٨ ـ ١٩.

(٢) م ١١ / ص ٦٥٩.

يصمتون كالحجر ، حتّى يعبر شعبك يا رب ، حتّى يعبر الشّعب الذي اقتنيته »[١]. فهل يعقل أن ترتبط التّسمية بعبور رجل هارب خائف يترقّب كما تصفه التّوراة؟.

مصطلح يهودي:

عند محاولتنا البحث عن أصل التّسمية تعترضنا إشكالية المصطلح من حيث الدلالة ، وإشكالية التاريخ من حيث الأصل ، وقد أرجعت التسمية إلى أحد الأسباب التالية:

ـ نسبة إلى اليهوديّة ، ويتعلّق ذلك بالأرض والجغرافيا.

ـ ينسب هذا الاسم إلى سبط يهوذا ، وهي العشيرة من أبناء يعقوب التي نبغ منها داود وسليمان ، أعظم حكّام بني إسرائيل على الإطلاق ، فانتسب الشّعب كلّه إلى عشيرتهما وحملوا اسم « اليهود »[٢].

ـ ترجع هذه التّسمية إلى ما كان من بعض عُبّاد اليهود ، يتهوّدون عند الذِّكر ، أي يميدون.

ـ قول اليهود: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[٣] ، أي رجعنا إليك ، فاشتُق من ذلك الاسم ، أي الرّاجعون ، والتّائبون ، والآيبون إلى الله تعالى .

وأمام هذه الإشكالات المثارة ، والتي لم تساعد في وضع تعريف دقيق لهذه المصطلحات ، انتهى الأمر إلى تقسيم الموضوع تقسيما اصطلاحيا: فجعلت

---

(١) خروج: ١٥ – ١٥ / ١٦.

(٢) حسن ظاظا : الشخصية اليهودية ، ص ٢٨.

(٣) سورة الأعراف : ١٥٦.

للجنسية مصطلح إسرائيلي ، وللدّين مصطلح اليهودي ، وللثّقافة مصطلح العبري. وبرغم ذلك فقد بقي الإشكال قائما على مستوى المصطلح بتداخله مع لفظ جديد وهو: « الصهيونية » ، حيث استحال تحديد من اليهودي؟ ومن الإسرائيلي؟ ومن العبري؟ ومن الصهيوني؟.

وقد حاول عبد الوهّاب المسيري إثارة سؤال الهوية والشخصية اليهودية[١] ، لا من حيث الأصول الاشتقاقية فحسب ، وإنّما من حيث الخلفية الأيديولوجية التي أسهمت إلى حدّ بعيد في صياغة تعريف مضمون الشخصية اليهودية في اتّجاه الإجابة عن سؤال الهويّة ، فهو يرى أنّ: « من هو اليهودي؟ سؤال يُثار من آونة إلى أخرى داخل الكيان الصهيوني. ويعبّر هذا السؤال عن فشل الإسرائيليين في تعريف « الشخصية اليهودية » أو « الهوية اليهودية »[٢]. فموضوع الهوية/ الهويات اليهودية في نظره هو في غاية التركيب لأسباب عديدة منها:

ـ تم تعريف الهويات اليهودية على أساس ديني ، وعلى أساس قومي ديني ، وعلى أساس قومي وحسب. وقد دارت معارك بين أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصا منذ نهاية القرن التاسع عشر) حول رؤيتهم لهويتهم وتعريفهم لهذه الهوية.

ـ لا تتفق رؤية الإنسان لهويته ، بصورة حتمية ومباشرة ، مع ممارساته العملية وواقعه وأفعاله. فالرؤية قد تكون تعبيرا عن مثل أعلى أو عن مجموعة من

---

(١) عرّف المسيري الشخصية اليهودية بقوله: « هي افتراض أنّ هناك سمات ثابتة للشخصية القومية اليهودية لا تتغيّر بتغيّر المكان والزمان » . عبد الوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة – طبعة ١٩٧٥ / ص ٢٢١.

(٢) عبد الوهاب المسيري: من هو اليهودي؟ دار الشروق، القاهرة ، طبعة ٣ / ٢٠٠١، ص ٩.

الرغبات ، أما الواقع فإنّه يتطوّر بطريقة لا تتّفق بالضرورة مع رغبات الإنسان. ومن ناحية أخرى ، فإنّ رؤى أعضاء الجماعات اليهودية للهوية اليهودية لم تكن تتّفق بالضرورة مع تطوُّر واقعهم التاريخي ، بل وكانت تتناقض أحيانًا الواحدة مع الأخرى.

ـ ولكن هذا لا يعني أنّ رؤية الإنسان لهويته لا تتدخل البتة في تحديد سلوكه ، إذ تظلّ الرؤية ، برغم عدم اتفاقها مع الواقع ، عنصرا مهما ومؤثرا في هذا السلوك ، دون أن تكون بالضرورة العنصر المحدّد الوحيد له.

ـ تحدّد الهويات اليهودية المختلفة في غياب سلطة يهودية مركزية ، دينية أو دنيوية ، عبر الاحتكاك مع عشرات التشكيلات الحضارية ومن خلالها ، الأمر الذي نجم عنه تنوُّع هائل في الهويات اليهودية. وتتّسم هذه الهويات باستقلال نسبيّ عن سياقها الحضاري ، شأنها شأن هويات الجماعات الإثنية والدينية ، ولكنّها في الوقت نفسه لا تنتمي إلى هوية يهودية واحدة عالمية. ومع هذا فقد استمر الجميع (اليهود وغير اليهود) في الحديث عن اليهود كما لو كانوا كلاً واحدًا[1].

وبرغم موقفنا من ذلك التحليل ، فإنّه لم يكن من السهل تعريف الهوية اليهودية بقصد تحديد ملامح الشخصية اليهودية ، وهي قضية وإن طرحت ثانية في إطار الحركة الصهيونية الحديثة ، كما طرحت بين الباحثين الأكاديميين المختصين ، إلاّ أنّها تجد جذورها قديما داخل فلسطين ذاتها ، حيث لم تكن الهوية العبرانية اليهودية محدّدة بشكل صارم ، فقد كانت تعيش في فلسطين أعدادًا كبيرة من أقليات غير يهودية (يونانيون وفينيقيون وبقايا الفلستيين وبقايا الأقوام

(١) عبد الوهاب المسيري: من هو اليهودي؟ ص ١٥.

السامية) ، ويتّضح عدم التحدّد في فرض الملوك الحشمونيون اليهودية بالقوة ، إذ فُرضت بالقوة على الأدوميين (في شرق الأردن) وعلى الإيطوريين (في الجليل) ، وكان هيرود (ملك اليهود) من أصل أدومي ، وكان هؤلاء المتهوّدون يشكلون هوية جديدة أيضا.

وتبرز إشكالية ثانية عند محاولة صياغة تعريف ديني للهوية اليهودية ، وهي ما يتعلّق بالجانب القومي أو العرقي للتعريف ، فاليهودي الذي يولد من أم يهودية يظلّ يهوديا وإن لم يلتزم الشريعة ، شأن المفكّر باروخ اسبينوزا الذي عُرِف بنقده اللاّذع لليهودية من خلال نصوصها ، وهذا بعكس المتهوّد الذي يجب عليه أن يلتزم الأوامر والنواهي ، حتّى يكون يهوديا بالمعنى الديني. ويعبّر الإشكال عن نفسه في مناسبة أخرى ، وهو عند إقراض النقود بالربا ، فاليهودية تحرّم ذلك بين اليهود وتجيزه مع الأغيار ، أمّا إذا طلب يهودي متنصّر قرضا من أحد المرابين اليهود ، كانت قضية يهوديته تطرح نفسها ، ولئن أفتى بعض الحخامات بجواز ذلك ، فإنّ غالبيتهم منعه ؛ لأنّ المقترِض يبقى يهودي بحسب الشريعة اليهودية ؛ لأنّه ولد لأم يهودية. بل واجه الفقه اليهودي إشكالية أخرى ، وهي مشكلة يهود المارانو (اليهود المتخفون) الذين لم يتركوا شبه جزيرة أيبريا وتظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد المسيحيين لها ، واحتفظوا بانتمائهم اليهودي سرا. ويرى الفقه اليهودي أنّ اليهودي الذي اضطر إلى اعتناق دين آخر يظلّ يهوديا ، ويمكنه أن يعود إلى حظيرة الدين متى سنحت له الفرصة. ولكن كثيرا من المارانو اعتنقوا المسيحية اختيارا للحفاظ على ممتلكاتهم ومصالحهم ، وحتّى لمّا سنحت لهم فرصة الفرار لم يفرّوا ، بل ضعفت رابطة غالبيتهم باليهودية. كما شكّل يهود الدونمة من

أتباع شبتاي تسفي مشكلة أخرى ، فقد اعتنقوا الإسلام علنا ، وأبقوا على انتمائهم اليهودي سرا ، برغم أنّه لم يوجد في الدّولة العثمانية من أكرههم على ذلك ، وكانوا يدرسون التلمود كغيرهم من أبناء الجماعات اليهودية الأخرى ؛ ولهذا كان من الصعب تقرير ما إذا كان المارانو والدونمة يهودا أم لا؟[١] .

مصادر الفكر اليهودي:

لليهود مجموعتان من الكتب المقدّسة ، هما العهد القديم والتلمود ، وعبر الزّمن تكوّنت حواش مرجعيّة أخرى ، تتمثّل في التراث الاجتهادي والقراءات الذّاتية للحاخامات ، الذين حرصوا كلّ الحرص على عدم تدوين الشريعة ، بل عدّوا تدوينها أمرا محرّما للحيلولة دون انتشارها بين العامّة ، وقد رفض القرّاؤون ـ المتأثّرون بالفكر العربي الإسلامي ـ التراث الشفوي ولم يعتبروا مقدّسا إلاّ شريعة موسى وأسفاره الخمسة .

العهد القديم : هو التسمية العلمية للأسفار التي يؤمن اليهود بقدسيتها ، وليس التوراة إلاّ جزء منه. وقد تطلق التّوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل ، أو لأهمّية التّوراة ونسبتها إلى موسى ؛ لأنّه أبرز زعماء بني إسرائيل ، وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي. وكلمة توراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية. ويعتبر العهد القديم مقدّس لدى اليهود والنصارى ، مع اختلاف في تحديد عدد أسفاره. ويمكن تقسيم أسفار العهد القديم إلى قسمين كبيرين[٢] .

القسم الأوّل : **التوراة** : وهي كتب الشريعة الخمسة الموجودة في أوّل

---

(١) نفس المصدر السابق: ص ٢٥ وما بعدها (بتصرف).

(٢) أحمد شلبي: مصدر سابق ، ص ٢٣٨.

« الكتاب المقدّس » . ويذهب « جون تايلر » إلى أن اعتبار هذه المجموعة من الأسفار كتابا واحدا في خمسة أجزاء أفضل من اعتبارها خمسة كتب في مجموعة واحدة ، فهذا ينصف ليس فقط الأصل العبراني الذي يسمّي هذه الكتب « التوراة » (الشريعة) أو « خمسة أخماس موسى » ، بل يثبت أيضا الوحدة الكائنة في صُلب هذه الكتب[1] . وتعتبر هذه الأسفار مسح تاريخي من بدء الخليقة حتّى وفاة سيّدنا موسى ـ عليه السّلام:

أ ـ **سفر التكوين**: يعتبر ملحمة ودراما واسعة النطاق ، يبدأ السفر فيسجّل كيف خلق الله العالم في البداية ، فتذكر المقدّمة تاريخا عاما للجنس البشري منذ آدم ـ عليه السلام ـ يمتدّ بضعة آلاف سنة ، ثمّ حديث عن الطوفان وقصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام... وبحسب هذا السفر فإن الله أكمل صنع الخليقة في ستة أيام. فقد قام الله بثمانية أعمال خلق يبدأ كل منها بالعبارة: « وقال الله... » ، فكان الخلق على النحو التالي :

ـ اليوم الأول: النور والظلمة ، النهار واللّيل .

ـ اليوم الثاني: جوّ الأرض (الجلد) .

ـ اليوم الثالث: فصل البرّ من البحر ، النبات والأشجار .

ـ اليوم الرابع: الشمس والقمر والنجوم: الفصول والأيام والسنون .

ـ اليوم الخامس: المخلوقات البحرية والطيور .

ـ اليوم السادس: الحيوانات البرية ، الجنس البشري.

---

(١) جون تايلر : مقدمة عن الأسفار الخمسة ، مقال ضمن كتاب : المرشد إلى الكتاب المقدّس ، لبنان ، الطبعة ٢/ ٢٠٠٠ ، ص ١٢٢ .

ـ اليوم السابع: اكتمال الخليقة، الله يستريح.

ب ـ **سفر الخروج**: هو قصّة ولادة اليهود كأمّة مستقلّة، وملحمة تتمحور حول موسى بطلها الرئيسي، فهو الذي قاد الشعب وخرج به من مصر؛ ولهذا سمي هذا السفر بالخروج، ويحتوي على قسمين:

ـ هروب بني إسرائيل من العبودية في مصر.

ـ إعطاء الشريعة وإقامة خيمة الاجتماع في سيناء.

جـ ـ **سفر اللاّويين**: هو كتاب القوانين والشرائع. وتتناول هذه الشرائع الطقوس والعبادة ونواحي عدّة في الحياة، وقد أخذ الكتاب اسمه من حقيقة كون الكهنة اللاّويين (هارون وأولاده وسلالتهم، يعاونهم باقي اللاّويين) هم الذين يطبّقون الشرائع.

د ـ **سفر العدد**: وسمّي بذلك لاهتمامه بالأعداد على مستوى الأشخاص والمعلومات، ويتناول هذا السفر ٤٠ سنة من تاريخ بني إسرائيل، وهي فترة ترحالهم في شبه جزيرة سيناء.

هـ ـ **سفر التّثنية**: والتثنية هي الإعادة والتّكرار، والقصد منها تثبيت الشرائع والأحكام. « فهو سجل بخطب موسى الوداعيّة التي ألقاها على بني إسرائيل حوالي سنة ١٢٦٠ ق م، في سهول موآب عشية دخولهم إلى أرض « الموعد »، أما العنوان فمأخوذ عن الترجمة اليونانية ويوحي ن الشريعة أعطيت مرّة ثانية، والكتاب يحتوي صياغة جديدة وتأكيدا لعو ـ سيناء ذاته »[1]؛ لذلك فإنّ اليهودي والمتشدّد خاصّة عند الصلاة يعقد على جبهته صندوقا صغيرًا يحتوي

(١) المرشد إلى الكتاب المقدّس، ص ١٩٥.

على مقاطع من الشريعة كطاعة حرفية للتثنية ، كما جرت العادة أن تضع العائلات اليهودية في «مزوزة» [١] نصّ التثنية وتعلّقها عند قائمة الباب.

القسم الثّاني : الأسفار التاريخية: تورد التوراة العبرية تاريخ بني إسرائيل في قسمين منفصلين:

أوّلا : أسفار الأنبياء : ويتضمّن يوشع والقضاة وصمويل الأوّل والثاني والملوك الأوّل والثاني.

ثانيا : الكتابات: تتضمّن أخبار الأيّام الأوّل والثاني وعزرا ونحميا[٢].

وعُرِفت هذه الأسفار كذلك تحت مصطلح التاريخ النبوئي. وقد أُطلقت في العبرية على رواية الأحداث التاريخية من يشوع إلى الملوك الثاني التسميةُ « الأنبياء السابقون » ، تمييزًا لتلك الأسفار من أسفار الأنبياء المتأخّرين ، أي إشعيا وإرميا وحزقيال والأنبياء الصغار الاثنى عشر. ويذهب « جان تايلور » إلى أنّه ثمّة سببان ممكنان كامنان وراء ذلك ، فقد أضيفت هذه الأسفار إلى النبوءة إمّا لأنّ غرضها الرئيس هو التعليم ، وإمّا لأنّها تروي تاريخيا كيف تمّت رسالة الله في حياة الأمّة أكثر من كونها مجرّد تاريخ للأمّة. وهذه المجموعة المؤلّفة من ستّة أسفار (باستثناء راعوث المدرَج في باب « الكتابات » في التوراة العِبرية) قد عدَّها علماء كثيرون عملا تاريخيا واحدا كاملا ، ومنهم من يُطلَق عليها « التاريخ التثنوي » (نسبة إلى

---

(١) المزوزة كلمة عبرية: عبارة عن رَقّ فيه مقطع من التوراة توضع في علبة أسطوانية تعلق عند الباب الرئيسي وباب كل غرفة.

(٢) Voir : Claus WESTERMANN : Théologie de l'ancien Testament. Labor et fides, Genève 1985.

التثنية) ، إذ إنّ النظرة اللاّهوتية التي تُعبِّر عنها مماثلة لتلك التي يعبّر عنها سفر التثنية»[١].

ومع أنّ النص الذي بين أيدينا لهذا الكتاب ، يعتبر النسخة الشرعية النهائيّة المعتمدة ، ومن المفترض أن يكون ذا سياق موحّد لا يبدو فيه أيّ تنسيق أو تجميع أو توفيق بين أجزائه ، فإنّ أبحاث العلماء في العصر الحديث قد أثبتت أنّه يرتدّ إلى أربعة ينابيع مختلفة ، اثنان منها جوهريان قديمان والثالث منفصل عنها في زمانه ومضمونه ، وأمّا الرّابع والأخير فإنّه ينبثق في مواضع معيّنة بصورة تكميلية وتوضيحية فقط ، وهو أحدث هذه الينابيع تاريخيا. ويتّفق المصدران الأوّلان في الخطوط العريضة للموضوع الذي يتناولانه ، كما يتفقان في الطابع القصصي والأسلوبي ، وهذه المصادر هي:

١ ـ مصدر يحمل اسم « أُلوهيم » علمًا على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل العشرة في الشمال. وهو الاسم الذي أطلقته الأسفار الأولى من التوراة على الله. ولا سيما الفصل الأوّل من سفر التكوين. ثم تردّد هذا الاسم مع الأسماء الأخرى في سائر أسفار العهد القديم. وهو لفظ بصيغة الجمع في اللّغة العبرية ، ومعناه « الآلهة » ، لكنه جاء في الترجمات العربية بصيغة المفرد (الله). وقد أطلقت التوراة هذا الاسم على الله عزّ وجل في المواضع التي وصفته فيها بأنّه الخالق لكلّ بشر ولكلّ شيء ، والخاضع له كل بشر وكل شيء.

٢ ـ مصدر يحمل اسم « يَهْوه » عَلَما على رب عبريين الوطني القديم ، وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، ورواته كانوا من الجنوب ، ممّا كان يسمّى « مملكة يهوذا » التي عاصمتها القدس « أورشليم » . وقد ورد في سفر الخروج

(١) المرشد إلى الكتاب المقدّس: ص ٢٠٤.

وهو لفظ عبري معناه : الموجود أو الكائن ؛ لأنّه مشتق من اللّفظ العبري (هيه) أو (هوه) الذي يفيد الوجود أو الكينونة. وقد أطلقت التوراة هذا اللّفظ على الله في المواضع التي اعتبرته فيها إله اليهود وحدهم. وهو الذي أعلن نفسه بهذا الاسم لموسى ـ عليه السلام ، وكلّفه بأن يبلّغه لليهود كي يعرفوه بهذا الاسم. والترجمات العربية تعبر عن اسم « يهوه » بكلمة الرب [١] .

---

(١) ومن أهم أسماء الإله كذلك عند اليهود:

أ ـ أدوناي: في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد رأى كهنة اليهود وعلماؤهم أنّهم يردّدون اسم (يهوه) باستهتار، فحرّموا على الجميع النطق بهذا الاسم إلاّ رئيس الكهنة في أثناء الصلاة في الهيكل. ومن ثم صاروا إذا أرادوا أن ينطقوا باسم الله يقولون: (أدوناي) أي السيّد أو الرب. وهما اللّفظان اللّذان وردا في الترجمة العربية.

ب ـ إيل: وكان اليهود يسمون الله بلفظ « إيل » وهو لفظ عبري، لكنه ورد في بعض اللّغات السامية الأخرى التي كان يتكلّم بها الوثنيون. فهو في اللّغة الأكادية بمعنى الإله، وفي اللغة الأوغريتية: اسم أبي الآلهة. وكان أيضا من آلهة كنعان. وكان اليهود ينسبون إلى اسم إيل الأشخاص والمدن وغيرها، فتارة يضمونه في أول الاسم «إيليا» أي إلهي يهوه، و«أليشع» أي الله مخلّص، و«أليعازر» أي الله معين، وتارة في آخر الاسم ، فيقولون: «إسرائيل» أي الذي جاهد مع الله. وربما اختصروا اسم «إيل» في نهاية الاسم المنسوب إليه فقالوا: «دانيال» أي الله قضى، و«حزقيال» أي الله يقوى . زكي شنودة: اليهود. ص ٢٩٢ وما بعدها (بتصرّف).

جـ ـ البعل: وهو في اللغة السامية بمعنى الرب أو السيد. وهو إله كان يعبده الكنعانيون، ويعتقدون أنه ابن الإله (إيل): وكان اليهود أحيانا يعدون اسم البعل مرادفا لاسم الله أو الرب. وقد نسبوا إلى البعل بعض أسماء أبنائهم ومدنهم، فمن الأسماء «بعليا» أي بعل يهوه. وهو اسم رجل من سبط بنيامين.

ولقد سبّبت هذه الأسماء صعوبات وأخطاء لدى المترجمين. وكان ذلك يبلغ أشدّه عندما كانت التسميات تتناقض في نص واحد أو في عبارة واحدة، فتجعل النص المترجم غريبا طريفا، ولا سيما فيما يسمى بمزامير داود. فالمزمور ١١٠/ ١ جاء فيه: « قال الرب لربي : اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » ، كما في طبعة البروتستانت ١٩٨٤ . فهذه العبارة توحي بوجود إلهين لدى اليهود. ويظهر أن النص العبري: قال يهوه لأدوناي: ويبدو أن الكاثوليك حاولوا أن يتلافوا ذلك، فترجموا هكذا: قال الرب لسيدي. ممّا يزيد الأمر تعقيدا فكلمة السيد يطلقونها أيضا على الرب. وفي المزمور ١٠٧ نجد أن تسمية الإله جاءت دائما بالرب ما عدا الفقرة ١٠٧/ ١١ فقد ورد فيها: « لأنهم عصوا كلام الله وأهانوا مشورة العلي » . سهيل ديب: التوراة بين الوثنية والتوحيد. ص ٣٠ وما بعدها (بتصرّف).

٣ ـ مصدر تثنية الشريعة ، وهو في جوهره تشريعي بحت ، صادر عن وسط مثقّف لا يلقي بالا إلى القصص الشعبي ، بقدر ما يهدف إلى التوجيه والتعليم والتطوير عن طريق سنّ القوانين. والظّاهر أنّ هذا المصدر الذي يتجلّى بوضوح في آخر أسفار التوراة ـ سفر التثنية ـ وينتسب إليه ، قد أدخل في صميم التوراة سنة ٦٢١ قبل الميلاد ضمن برنامج الإصلاح والتطوير الذي عمله الملك يوشياهو ، أمّا كتابته فترجع إلى حكم الملك اليهودي « منسا » جد يوشياهو المذكور[١].

٤ ـ الأصل الرّابع هو « حواشي الكهنة » ، وترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وإلى النصف الأخير منه على التحقيق ، وهذه الحواشي قد أضيفت إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا ، أي بعد العودة من السبي البابلي في ظلّ الإمبراطورية الفارسية ، وهي فترة وصل فيها الكهنة أو الأحبار إلى قمّة قوّتهم ، وكامل سيطرتهم على مقدرات اليهود ، وهذه الإضافات لا تقتصر على التشريع وحده ، بل فيها نتف قصصية أيضا[٢].

التلمود Talmud: كلمة مشتقّة من الجذر العبري «لامد» الذي يعني الدراسة والتعلّم كما في عبارة «تلمود توراه» ، أي «دراسة الشريعة». ويعود كلّ من كلمة «تلمود» العبرية وكلمة «تلميذ» العربية إلى أصل سامي واحد. والتلمود من أهمّ

---

(١) يذكر أنّ « منسا » كان من ملوك يهوذا غير الصالحين، إلى أن أسره الإمبراطور الأشوري أسرحدون واعتقله مدّة في العراق، فلمّا عاد إلى أوشليم كان قد تاب وأناب وقام قبل موته بقليل بتحصين المدينة المقدّسة، كما قام بحركة تطهير ديني وخلقي وتشريعي.

(٢) حسن ظاظا: الفكر الدّيني اليهودي؛ أطواره ومذاهبه، دار القلم، دمشق ، الدّار الشّامية، بيروت، طبعة ٤/ ١٩٩٩، ص ٢٦ وما بعدها (وقد أخذ الهامش الذي عرّف بالملك اليهودي «منسا» من نفس الصفحة).

الكتب الدينية عند اليهود ، وهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية ، أي تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة). ويخلع التلمود القداسة على نفسه باعتبار أن كلمات التلمود كان يوحي بها الروح القدس نفسه (روح هقودش) باعتبار أن الشريعة الشفوية مساوية في المنزلة للشريعة المكتوبة. والتلمود مصنَّف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهودية ، وسجل للمناقشات التي دارت في الحلقات التلمودية الفقهية اليهودية حول المواضيع القانونية (هالاخاه) والوعظية (أجاداه). وقد أصبح التلمود مرادفا للتعليم القائم على أساس الشريعة الشفوية (السماعية).

والتلمود عبارة عن موسوعة معرفية تتضمّن الدين والشريعة والتأمّلات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية ، كما يتضمّن علاوة على ذلك ، فصولا في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي ، بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصّة ، ويشيرون إليه بعبارة «كلُّ بو» أي «كلٌّ به». ويلاحظ أنّ التلمود كتاب ضخم متعدِّد الأجزاء ، مجلّداته كثيرة وضخمة تصل في بعض الطبعات إلى ما يزيد على عشرين مجلّدا. لكن هناك طبعة «Everyman s Talmud» المختصرة والتي تعتبر أكثر انتشارا. ويوجد عند اليهود تلمودان:

أوّلا : التلمود الفلسطيني: وينسبه اليهود خطأً إلى أورشليم (القدس) فيقولون : « الأورشليمي » ، ذلك مع أنّ القدس خلت من المدارس الدينية بعد هدم الهيكل الثاني ، وانتقل الحاخامات إلى إنشاء مدارسهم في يفنة وصفورية

وطبرية . كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني اسم «تلمود أرض يسرائيل» ، وأطلقوا عليه أحيانا اسم «تلمود أهل الغرب» نظرا لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق.

ثانيا : التلمود البابلي: وهو نتاج الحلقات التلمودية (أكاديمية ـ يشيفا) في العراق (بابل) ، وأشهرها سورا ونهاردعة وبومبديثا. ويُعرَف هذا التلمود في حالات نادرة جدا باسم « تلمود أهل الشرق » [١] .

وكلا التلمودين مكوّن من «المشنا Michna» و«الجمارا Guémara». والمشنا في كل منهما واحد لا اختلاف بينهما ، وهي تتكوّن من ستين نصا مقسّمة إلى ستّة مجموعات ، كل واحد منها يركّز على بعض من وصايا التوراة. والمشنا نص قصير يتضمّن ٥٣١ بابا ، يتكوّن كل باب من فقرات صغيرة[٢]. أما الجمارا فاثنتان: إحداهما وُضعت في فلسطين ، والأخرى في العراق. ولّما كانت الجمارا البابلية أكمل وأشمل من الجمارا الفلسطينية ، فإن التلمود البابلي هو الأكثر تداولا ، وهو الكتاب القياسي عند اليهود ؛ ولذا حين يستخدم لفظ «التلمود» بمفرده ، محلّى بأداة التعريف ، فإنّ المقصود به هو التلمود البابلي دون سواه ، وذلك على أساس الميزة والأفضلية والتفوّق. وفي الكتابات العلمية يشير اللّفظ إلى الجمارا وحدها. ويضاف عادة تعليق راشي على التلمود عند طبعه ، وإن كان هذا التعليق لا يُعدُّ جزءا منه.

ويلاحظ أنّ بعض المفاهيم القانونية في التلمود البابلي تعكس أثر القانون

---

(١) La Guemara (Sanhédrin), le Talmud de Babylone : Traduit par les membres du Rabbinat Français. Colbo, Paris 1973.

(٢) Raphaèl Cohen : Ouverture sur le Talmud. Grancher, Paris, P15.

الفارسي. كما أن التلمودين مختلفان في بعض المواطن ، فيُلاحظ مثلا أن الموقف من الوثنيين في التلمود البابلي أكثر تسامحا ؛ لأن وضع اليهود في بابل كان جيّدا ، فقد جاء في التلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين. بينما يحرِّم التلمود الفلسطيني بيع أيّة سلعة للوثنيين في الأيّام الثلاثة التي تسبق أي عيد وثني ، فإن علماء بابل حرموا البيع في أيام العيد الوثني وحسب[١].

وممّا يميّز التلمود موقفه النقدي المتطرّف تجاه غير اليهود ، الذين هم غالبا شهوانيين ، أي أنّهم كائنات قادرة على ارتكاب الأعمال الأكثر شناعة. واليهود هم من نهض بالحضارة وقوّم اعوجاجها ؛ لذلك فلا بدّ وأن يستبعد منها غير اليهود «houkot hagoï» الذين لا يستطيعون إلاّ تدميرها. كما يتناقض التلمود مع بعض أسفار العهد القديم ، وخاصّة سفر حزقيال الذي يتوجّه إلى اليهود بالخطاب « أنتم الإنسان » ، ليقول بكلّ برودة : أنتم الإنسان في حين أنّ غير اليهود لا يدخلون ضمن هذا الصنف. ممّا يلقي ظلالا من الاضطراب على محتوى هذا الكتاب الذي يُتَداول في بلاد يعيش فيها اليهود وغالبية سكانها من غير اليهود. ومن ذلك «أنتم تقلّدون غير اليهود ، وهذا سيئ جدا» وفي موضع آخر : «أنتم لم تقلّدوا غير اليهود ، وهذا سيئ جدا» ، فيتدخّل التلمود لتأويل هذا التناقض فيتغيّر السياق نحو : «يجب أن تقلّدوا الأفضل من بينهم ، وليس الأردأ من بينهم»[٢].

وممّا يشار إليه أنّ العديد من علماء اليهود استثنى المسلمين من بين بقية الأمم

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٥ / ١٢٥ وما بعدها (بتصرّف).

(٢) Raphaël Cohen : Ouvertures sur le Talmud. Grancher, Paris. P117.

(الجاؤونيم) فيما يتعلّق بالقوانين الخاصة المنصوص عليها بحسب كلمة التلمود، وتبعهم الحبر موسى بن ميمون، إذ الدين الإسلامي لا يُعدُّ في نظره دينا وثنيا بخلاف دين النصارى[١]، وتبعه في ذلك ابنه إبراهيم الميموني، الذي أفتى بأن الذي يحاكي المسلمين لا يُعدُّ مستبيحا لحرمة القاعدة الأصولية: (لا تتعوّدوا بعادات الأمم)، والمستنبطة من أسفار العهد القديم[٢]: «متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلّم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم»[٣]، «ولا تسلكون في رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم؛ لأنّهم قد فعلوا كل هذه فكرهتهم»[٤].

وإلى جانب هذه الكتب المقدّسة عُرِفت مصادر أخرى للفكر اليهودي شبه مقدّسة، ولكنّها ليست أقلّ منها قيمة، فهي تستمدّ منها موضوعاتها وتستفيد من قيمتها لتبني في ضوئها فلسفتها العامّة عن طريق الشرح والتأويل الباطن. ومن أهمّ تلك الكتب:

القبالة KABAALE:

هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود. والاسم مشتق من كلمة عِبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي «التقاليد والتراث» أو «التقليد المتوارث». وكان يُقصَد

---

(١) موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) انظر عبد الوهّاب طويلة: تحقيق: الرّسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية: للحبر الأعظم إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي، دار القلم، دمشق، طبعة ١ / ١٩٨٩، ص ٧ وما بعدها.

(٣) تثنية: ٩ـ١٨.

(٤) اللاّويين: ٢٠ـ٢٣.

بالكلمة أصلا تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يُعرف باسم « الشريعة الشفوية » ، ثم أصبحت الكلمة تعني من أواخر القرن الثاني عشر « أشكال التصوّف والعلم الحاخامي المتطوّرة ». وقد أطلق العارفون بأسرار القبّالة على أنفسهم لقب « العارفون بالفيض الرباني » ، لاستنادهم إلى تفسير غنوصي وأفلاطوني محدث لنصوص العهد القديم ، كما يعتبرونها تمثّل الجزء الباطن من التّوراة الشفويّة. وتمثّل القبالة مرحلة مهمّة في ازدهار التّفكير الأسطوري في اليهوديّة ، وقد اتّخذها أبراهام بن داؤود وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة موسى بن ميمون[1] العقلية ، أمّا أبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ – ١٢٩١) فقد استخدم هذه العقيدة على أنّها دراسة أعمق وأكثر نفعا من التلمود ، حتّى حلّت القبالة والتّفسير القبالي محلّ كلّ كتب اليهود المقدّسة في القرن السادس عشر.

الزوهار ZOHARE:

كلمة عبرية تعني «الإشراق أو الضياء» ، وكتاب الزوهار أهمّ كتب التراث القبالي ، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم ، ويعود تاريخه إلى ما قبل النصرانية والإسلام ، وينسب إلى الحاخام

---

(١) الحكيم الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، ولد عام ١١٣٥ بقرطبة، وتوفّي عام ١٢٠٤ في القاهرة، ثمّ نقلت رفاته إلى طبريّة بعد ذلك، ويعتبر أكبر فيلسوف يهودي ظهر في القرون الوسطى، وقد تلقّى العلم على يد ثلاثة من العلماء المسلمين هم: ابن الأفلح وابن رشد وأحد تلاميذ أبي بكر بن الصائغ، وقد ذهب أرنست رينان في كتابه ابن رشد والرشدية (ص ١٨٨ من التّرجمة العربية) إلى أن موسى بن ميمون قد حصل على كلّ مؤلّفات ابن رشد فيما عدا كتابه « الحسّ والمحسوس ». وقد ألّفت كتب خاصّة للاحتفال بذكراه وتمجيد اسمه بمناسبة مرور ثمانمائة عام على ميلاده في ١٩٣٥ في أنحاء العالم، ومن ذلك الكتاب الذي ألّفه إسرائيل ولفنستون باللّغة العربيّة « موسى بن ميمون حياته ومصنّفاته »، كما نشر محمّد زاهد الكوثري كتاب شرح « المقدّمات الخمس والعشرون في إثبات وجود الله » لمحمّد ابن أبي بكر التبريزي. ويعتبر كتاب « دلالة الحائرين » من أهمّ كتب موسى بن ميمون.

شمعون بن يوحاي الذي عاش في القرن الثّاني الميلادي ، ولكن يقال : إن موسى دي ليون ـ مكتشف الكتاب في القرن الثّالث عشر ـ هو مؤلّفه الحقيقي أو مؤلّف أهمّ أجزائه ما بين عامي ١٢٨٠ و ١٢٨٥ ، مع بدايات أزمة يهود إسبانيا. ويشبه الزوهار في أسلوبه المواعظ اليهودية في ذلك الوقت. وبعد مرور مائة عام على ظهوره ، أصبح الزوهار بالنسبة إلى المتصوّفة في منزلة التلمود بالنسبة إلى الحاخامين. وقد شاع الزوهار بعد ذلك بين اليهود ، حتى احتل مكانة أعلى من مكانة التلمود ، وخصوصا بعد ظهور الحركة الحسيدية[١].

المدراش MIDRASH: مدراش من الكلمة العبرية « درش» ، أي استطلع أو «بحث» أو «درس» أو «فحص» أو «محّص». وتحيل الكلمة إلى معنى استعمال منهج تفسيري لنصوص العهد القديم يحاول التعمّق في بعض مقاطعه وكلماته ، والتوسّع في الإضافات والتعليقات ، بقصد الوصول إلى المعاني الخفية التي تصل أحيانا إلى السبعين[٢]. والكتب التي تتضمّن هذا النوع من الغوص في بواطن النصوص لاستنباط الأحكام ووضع الدراسات والتفسيرات تسمى «مدراش» ؛ لذلك فقد وُجِدت نحو أربع وعشرين مجموعة مدراشية تمتدّ على ثلاث فترات زمنية ما بين ٤٠٠ م و١٢٠٠ م ، ويمكن تقسيمها إلى نوعين:

النوع الأوّل: المدراش التشريعي الهالاخي (مشنوي) ، وهي الكتب التي تتضمّن المبادئ الهادية إلى أحكام الشرع الديني (هالاخاه). ومن أهمّها:

١ـ المخيلتا: وهي كلمة آرامية تعني «المعيار» أو «المكيال» ، تعالج بعض

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٥ / ١٦٤ وما بعدها (بتصرّف).

(٢) Voir : Le Midrash raconte. Editions Raphaël, Paris 1991.

الأحكام الشرعية من سفر الخروج.

٢ ـ مخيلتا الحاخام شمعون بن يوحاي ، وتدور حول نفس المواضيع السابقة من سفر الخروج.

٣ ـ السفرا: أي «الكتابة» أو «الكتاب» ، ويعرف بتوراة الكهنة ، وهو تعليق على سفر اللاّويين.

٤ ـ السفري (جمع سفرا) ، وهو تعليق على جزء من سفر العدد ، وكامل سفر التثنية.

٥ ـ سفر زوتا: وهو تعليق على سفر العدد.

النوع الثاني: المدراش الأجادي: وهي الكتب التي وضعها الشراح «أمورائيم» ، وتتكوّن من المواعظ التي ألقوها في المعابد ، واتبعوا فيها الأسلوب القصصي على سبيل الوعظ. ومن أهمّها :

١ ـ مدراش رابا: أي المدراش الكبير ، ويتضمّن أسفار موسى الخمسة.

٢ ـ مدراش تنحوما.

٣ ـ مدراش جالوت...[1].

عقائد اليهود:

ـ الإله :

اليهود من أهل الكتاب الموحّدين الذين آمنوا بالله وحده ، إلاّ أنّهم لم يلتزموا طوال تاريخهم بعبادة إله واحد ، وإنّما تأثّروا بالأمم والشعوب التي من

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٥ / ١٤٣ (بتصرف) .

حولهم ، ولقد مرّت عبادة «يهوه» عندهم بثلاث مراحل: عبادته قبل بناء الهيكل ، عبادته في الهيكل ، عبادته بعد تدمير الهيكل. وكانوا يميلون إلى التّجسيم ووصف الإله بصفات البشر ، فهو عندهم يقع في الخطأ «ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل ، كما أنّه من ذلك الوقت لم يمل إلى الرّقص مع حوّاء بعد ما زيّنها بملابسها ، وعقص لها شعرها ، وقد اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل ، فصار يبكي ويمضي ثلاثة أجزاء اللّيل يزأر كالأسد قائلا: تبّا لي لأنّي صرّحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي ، وشغل الله مساحة أربعة سنوات فقط بعد أن كان ملء السماوات والأرض في جميع الأزمان»[١] ، كما أنّه يتعب ويندم ويأمر بالسّرقة ، فهو بحسب اعتقادهم «يتندّم على تركه اليهود في حالة التعاسة حتّى إنه يلطم ويبكي كلّ يوم ، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر ، فيسمع دويّهما من بدء العالم إلى أقصاه ، وتضطرب المياه ، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان ، فتحصل الزلازل»[٢].

في حين يميل جماعة اليهود المتصوّفة «الحسيديم» إلى إعطاء أوصاف أخرى لله تختلف عن التي سبق اقتباسها من العهد القديم ، كما يؤوّلونها بما يقتضيه المقام لتتّفق مع طبيعة رؤيتهم للكون والحياة والعبادة والصلاة. ولربّما استفادوا في ذلك من مسألتين مهمّتين: ترتبط المسألة الأولى بحركة النقد الديني التي قادها اللاّهوتيون اليهود بداية من المصلح الأندلسي العقلاني موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٥) مرورا بباروخ اسبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧) ثمّ إسرائيل بن

(١) الكنز المرصود: ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر السّابق: ص ٥٦.

أليعازر ، الذي يشار إليه باسم «بعل شوم طوب» (١٧٠٠ – ١٧٦٠). وترتبط الثانية بطبيعة البناء العقائدي والفكري اليهودي ، والذي يفترض وجود تجانس بين مختلف مكوّناته النظرية. فلا يُعقل أن ترسم صورة سيّئة جدا عن الإله في المصادر العقدية الرئيسية ، وهو نفسه الذي يتوّجه إليه بالعبادة والخضوع وطلب العون والنجدة.

لذلك يرى الحسيديم أنّ الله كان موجودا قبل أن يكون هناك شيء ، وقد كان الحقيقة الوحيدة قبل الخلق. وهو أبدي ولا نهائي ، وقد خلق الخلق من لا شيء ، وليس هناك مكان أو فضاء خال منه ، وكما أنّ الفضاء يحيط بالأرض كذلك الله يحيط بالكون ، وليس هناك مكان يخلو منه ، كما قيل في المدراش: إنّ الله أظهر نفسه في العلّيقة (في سيناء) من أجل أن يرى البشر بأنه ليس هناك مكان خال منه[١].

ويعتقدون بأنّه لا توجد حركة في الكون دون أن يكون سببها الله ، وعناية الله في خلقه ليست عناية عامّة وإنّما هي عناية خاصّة ، فوجود الحجر في مكان ما ، وسقوط الورقة من شجرة ما ، وتحرّك سمكة في بحر ما ، إنّما يكون بتقدير الإله وعلمه ، ولا يحدث شيء مثل هذه دون علمه. وهم يذكرون قصّة يعزونها إلى بعل شم طوب لها علاقة بذلك. فقد روَوا بأنّه كان قد خرج من بيته مع بعض أتباعه ، وأوقفهم عند ورقة كانت تحركها نسمة هواء لبضعة أمتار ، ثم خرجت ديدان من الأرض وقضمتها ، فأخبر أتباعه بأن ما رأوه إنما كان بعلم الله وقدرته[٢].

---

(١) L.I. Newman : The Hasidic Anthology, P 148f.

(٢) D. Meijers : The Ascetic Hasidism of Jerusalem, P36.

ـ النبوات:

يخبرنا القرآن الكريم بأنّ أنبياء بني إسرائيل قد تعرّضوا للتكذيب والتنكيل والقتل ، ولم يعاملوا معاملة تليق بمكانتهم وقداسة رسالتهم. وعلى هذا الأساس يجب على القارئ المسلم أن يميّز بين أنبياء اليهود والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، حتى لو حملوا نفس الاسم. فموسى (موشيه) القائد الحربي «القومي» ليس هو سيّدنا موسى ـ عليه السلام ـ وداود «ديفيد» قاطع الطريق والملك ليس هو سيدنا داود ـ عليه السلام ـ وسليمان (شلومو) قاتل منافسيه ليس هو سيدنا سليمان ـ عليه السلام . فرغم الاتفاق في الأسماء وفي بعض تفاصيل القصص ، فإنّ السياق والبناء العقائدي والديني والقصصي الذي ترد فيه هذه الأسماء يختلف اختلافا جوهريا ، والسياق والبناء وحده هو الذي يحدّد المعنى العام والشامل.

ويطلعنا العهد القديم في مختلف أسفاره على أنّ اليهود قد استحقّوا كثيرا من أنواع العذاب والتنكيل ، جزاء لظلمهم وبغيهم وتعدّيهم على النّاس ، من أكل أموالهم بالباطل ، وهضم حقوقهم ، هذا إلى جانب عدم التزامهم الشريعة ، والتنصّل من أوامرها ، بل والسّخرية من أحكامها ، والتهكّم على الأنبياء ، الذين جاؤوهم بدعوة الحقّ ، يأمرونهم بالعدل وينهونهم عن المنكر ، فيصفونهم بما لا يليق بهم ، فهم غير معصومين من الخطأ والذنوب ، بل يرتكبون المنكرات ، من شرب خمر وزنا وسبي النساء[١] .

فالنبي داود يكوّن عصابة لقطع الطريق والفساد في الأرض[٢] ، ويزني بحليلة

---

(١) انظر: سناء عبد اللطيف صبري: ملامح الشخصية اليهودية وطبائعها كما تصورها فكاهاتهم ، دار القلم، دمشق، طبعة ١ / ١٩٩٩، ص ١٣ وما بعدها.

(٢) صموئيل الأول : ٢٢ ـ ١٠ / ٢٣.

جاره وقائد جنده أوريا الحثي[١]، ويضع بني عمّون تحت المناشير ويحرقهم في الأتون[٢]، وسليمان يغتال أخاه أدونيا[٣]، ويقوم بمجموعة من التصفيات الجسديّة، ويعبد الأوثان ويصنع لها المعابد[٤]، كما ترد قصّة أيوب ـ عليه السلام ـ في سفر كامل هو سفر أيوب، ويدخله الباحثون في الأسفار الأدبية لما فيه من وصف بليغ للآلام التي كان يعانيها أيوب[٥]، وهو صورة وضيعة لنبي كريم من أنبياء الله[٦]. فهو لا يصدق إلاّ على رجل آخر غير النبي أيوب ـ عليه السلام ـ الذي ذُكِر في القرآن الكريم.

ـ اليوم الآخر:

ليس في التّوراة أيّ إشارة لليوم الآخر أو للبعث والحساب بشكل واضح، وما ورد في التلمود حول الجنّة والنّار يغلب عليه الغموض وعدم التناسق في ما بين أجزائه، إلاّ أنّه يمكن أن نعثر في التوراة على ما يفيد الحساب الدنيوي المادي فقط، ومن ذلك:

« أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطول أيامك ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك »[٧].

« واعمل الصالح والحسن في عيني الرب لكي يكون لك خير وتدخل وتملك

---

(١) صمويل الثاني: ١١ ـ ٢٦.

(٢) صمويل الثاني: ١٢ ـ ٢٦ / ٣١.

(٣) الملوك الأوّل: ٢ ـ ٢٣ / ٢٥.

(٤) الملوك الأول: ١١ ـ ١ / ١٢.

(٥) انظر: محمّد علي البار: الله جلّ جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق، طبعة ١ / ١٩٩٠، ص ٤٨٢.

(٦) أيّوب: الإصحاح الأول.

(٧) تثنية: ٥ ـ ١٦.

الأرض الجيدة التي حلف الرب لآبائك أن يغطي جميع أعدائك من أمامك كما تكلم الرب »[١].

« ومن أجل أنّكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملونها يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللّذين أقسم لآبائك ، ويحبك ويباركك ويكثرك ويبارك ثمرة بطنك وثمرة أرضك قمحك وخمرك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك على الأرض التي أقسم لآبائك أنه يعطيك إياها »[٢].

ويقابل يوم الحساب في العبرية «يوم هدِّين» ، أي اليوم الذي سيحاسب فيه الإله كل البشر في آخر الأيّام. وقد حذر عاموس اليهود من أنّ الإله سيحطّم جماعة يسرائيل بسبب فسادها ، كما أكّد إرميا وحزقيال المسؤولية الفردية عن أعمال الإنسان[٣]. وقد وردت أوّل إشارة للثواب والعقاب بعد البعث في إشعياء ، وكذلك دانيال: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي»[٤].

ويذهب بعض المختصّين في الدراسات الدينية التاريخية ، إلى أنّ البعث وإن وجدنا لها أثرا في مصادر العقيدة اليهودية إلاّ أنّها كانت تحت تأثير فارسي لإقامة اليهود ببابل زمن السبي ، وبعد ظهور المفهوم حاول مفسرو العهد القديم أن يقوموا بعملية إسقاط لهذه الفكرة على نصوص سابقة لتفسّر على أنّها تتحدّث عن البعث ، إذ كان الصدوقيون عند هدم الهيكل لا يزالون ينكرون البعث. في حين

---

(١) تثنية: ٦ – ١٨.

(٢) تثنية: ٧ – ١٢ / ١٣.

(٣) عاموس: ٥ – ١٨، إرميا: ٣١ – ٢٩ / ٣٠، حزقيال: ١٨.

(٤) إشعيا: ٢٦، دانيال: ١٢ – ٢.

يرى الحاخامات أنّ الإيمان ببعث الموتى جسدا وروحا إحدى العقائد الأساسية في اليهودية.

ولعدم وجود نصوص ثابتة حاسمة في مسائل البعث والحساب، فقد بقي الأمر اجتهاديا افتراضيا بين اليهود. إذ يرى اليهود الحسيديم بأن هناك ثوابا وعقابا بعد الموت، حيث يعاقب المذنب على ما اقترفه من ذنوب، ويثاب الصالح على ما عمل من خير. وفي اعتقادهم أن الإنسان لا بدّ أن يتطهّر لكي يدخل الجنة، والتي تسمى « جان عدن ». والمرحلة الأولى من هذا التطهير تأتي بعد الموت مباشرة، حيث يقوم الملائكة بهزّ جسم الإنسان كي يزول ما علق به وتراكم من أدران بسبب الملاذّ الحسية والجسدية، ويجب أن يتطهّر كذلك ممّا دخل النّفس من تلوث خلال الكلام والتفكير أثناء حياته. وحتى يتخلّص من ذلك كلية فإن ملَكَين يأخذانه ويتقاذفانه بين نهايتي العالم، وهناك من الخبث ما لا يمكن زواله إلا بدخول جهنّم لتطهيره. وللحسيديم تصوّر خاص لجهنّم[1].

ـ الصلاة:

يؤدّي اليهود الصلاة فرادى وجماعات في المنازل والكنيس، وهي ثلاث مرّات في اليوم: عند الفجر وعند منتصف النهار وعند المساء. ويغسلون أيديهم قبل الصلاة، ويضعون رداء صغيرا على الكتفين وطاقية. والصّلاة عندهم قراءة من التّوراة وتراتيل كما تتضمن مواعظ وموسيقى. وفي الكنيس الأورثوذكسي يجلس الرّجال والنساء منفصلين والصّلاة تكون بالعبرية، بخلاف المحافظين والإصلاحيين الذين يؤدّون الصلاة بلغة القطر.

---

(١) D. Cohn – Sherbok: Holocaust Theology, London 1989, P 121 .

وتختلف أهمية الصلاة وطبيعتها عند اليهود، فلها عند الحسيديم أهمية كبيرة، تتجاوز في أهميتها دراسة التوراة كما هو مشاع بين اليهود الأورثوذوكس. وكان بعل شم طوب أول من أعطى أهمية وأولوية للصلاة، فقد ذُكِر عنه بأنه كشف له عن العالم العلوي بسبب الصلاة التي كان يصليها بتركيز وإخلاص، وليس بسبب دراسة التلمود والشريعة اليهودية[١]؛ لذلك فلا يجب أن تؤدى الصلاة من أجل تحقيق غرض دنيوي، بل يجب أن تحقّق الصلاة هدفا روحيا، وهو الالتصاق الروحي بالله « الدبقوت »، فيبلغ الحسيد بذلك مرحلة انعدام الشيئية « بطول هايش ».

كما يُعطي الحسيديم أهمية للحركة الجسمانية أثناء تأدية الصلاة، وهو ما عناه بعل شم طوب بقوله: « كما أن الإنسان لا يجوز له أن يضحك من الغريق الذي يحرّك جسمه ليخلّص نفسه من الغرق، كذلك يجب أن لا يهزأ بالمصلّي الذي يحرك جسمه في الصلاة ليخلّص نفسه من الشرور والأفكار الخبيثة التي تقطع عليه التفكير بالصلاة »[٢]. بل شبّهها تشبيها غريبا فقارنها بالحركة أثناء العملية الجنسية، فقال: « إنّ الصلاة عبارة عن جماع مع الشكيناه، فكما يكون هناك تحرّك في عملية الجماع، فكذلك على الإنسان أن يتحرّك أوّلا، ثم يبقى ساكنا ملتصقا بالشكيناه بشكل قوي[٣]. كما ورد في الزوهار نصوص كثيرة استعملت فيها الرموز الجنسية للعلاقة بين الإنسان والرب[٤].

---

(١) L. Jacobs : Hasidic Prayer, Lodon 1972, P17.

(٢) Ibid, P59.

(٣) Ibid, P56.

(٤) Zohar, Vol, 1, 50 a.

أشهر السنة اليهودية :

١ ـ Aviv ou (Nissane) نيسان: ٣٠ يوم .

٢ ـ Iyyar إيار: ٢٩ يوم .

٣ ـ Siwane سيوان: ٣٠ يوم .

٤ ـ Tammouz تموز: ٢٩ يوم .

٥ ـ Av آف: ٣٠ يوم .

٦ ـ Eloul إلول: ٢٩ يوم .

٧ ـ Tichri تشري: ٣٠ يوم .

٨ ـ Marhechwane مرحشوان: ٢٩ أو ٣٠ يوم .

٩ ـ Kislew كسلو: ٢٩ أو ٣٠ يوم .

١٠ ـ Téveth تفت: ٢٩ يوم .

١١ ـ Chevatt شفات: ٣٠ يوم .

١٢ ـ Adar آدار: ٢٩ يوم[١] .

الأعياد اليهودية:

تنقسم الأعياد اليهودية إلى قسمين كبيرين؛ أعياد جاء ذكرها في التوراة ، أي التي كان يقيمها اليهود قبل التهجير ، وأعياد أضيفت بعد العودة من بابل. وممّا تجدر إليه الإشارة في هذا السياق هو كثرة الأعياد الدينية اليهودية والتي ترتبط

(١) Voir : Schalom BEN CHORIN : Le Jedaïsme en priére, la liturgie de la Synagogue. Cerf, Paris 1984.

عندهم بحادثة تاريخة معيّنة أو لها دلالة عقدية[١]. وكلمة «أعياد» تقابلها في العبرية كلمة «حَجِّيم» ، ويقابلها أيضا «موعيد» أو «يوم طوف». وتُستخدم كلمة حجيم للإشارة إلى عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال (أعياد الحج الثلاثة). أما كلمة «موعيد» فتشير إلى باقي الأعياد ، وكذا لعيد رأس السنة «روش هشَّاناه» ويوم الغفران ، وقد ورد ذِكر ذلك في العهد القديم:«هذه مواسم الرب المحافل المقدّسة التي تنادون لها في أوقاتها»[٢]. وتتّسع كلمة «أوقاتها» والتي تقابلها في العبرية «موعاديم» كلّ الأعياد ، كما تستخدم أحيانا للإشارة إلى أعياد الحج الثلاثة وحسب. أما أيّام الصوم والفرح التي يحدّدها اليهود أو حاخاماتهم ابتداء فيشار إليها بأنّها «يوم طوب» ، أي «يوم طيب أو سعيد أو مبارك» ؛ ولذا لا يلزم تقديم أي قرابين أو تضحيات فيها[٣].

ـ عيد رأس السنة : هو عيد «روش هشاناه Rocha Hachana» بالعبرية ، يحتفل به لمدّة يومين في أوّل شهر تشري [٤] Tichri. وهو احتفال بخلق الله للكون ،

---

(١) Voir : Rabbin LEO ADLER : La signefication morale des fêtes juives. Labor et fides, Genève.

(٢) لاويين: ٢٣ – ٤.

(٣) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٥/ ٢٦٠ (بتصرّف).

(٤) ورد في المشنا ذِكر أربعة أيام أخرى باعتبارها رأس السنة، وهي: ١ـ أوّل نيسان: أول العام لتحديد حكم الملوك العبرانيين ولتحديد الأعياد، ٢ ـ أوّل إيلول : هو أول العام لدفع عشور الحيوانات ، ٣ ـ أوّل تشري : أول العام المدني، وتتضمن أيضا حساب حكم الملوك الأجانب ، ولحساب السنة السبتية، وعام اليوبيل، ٤ ـ أوّل شفاط: رأس السنة للأشجار باعتبار أنه في ذلك اليوم تسقط أكبر كمية من الأمطار حسبما ورد في التلمود. ومع ذلك فإن اليهود لا يحتفلون إلاّ برأس السنة التي تقع في أول تشري، وهي التي يشار إليها باسم «روش هشَّاناه». انظر : عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٥/ ٢٦٣ (بتصرف).

ويعتقد اليهود أنّ النّاس يحاسبون في ذلك اليوم على أعمالهم السنة الماضية ، ومن الجدير بالذكر أنّ هذه المناسبة هي العيد الوحيد الذي يُحتفل به في الدولة اليهودية لمدّة يومين على التوالي. وعيد رأس السنة أوّل أيّام التكفير العشرة ، والتي تنتهي بأقدس يوم عندهم وهو يوم الغفران «يوم كيبور» ، ويحيي اليهود بعضهم بعضا في رأس السنة بقولهم: « فليُكتب اسمك هذا العام في سجلّ الحياة السعيدة ». وترتبط بهذا العيد طقوس كثيرة ، منها: النفخ في النفير (شوفار) ، ويرتدون الثياب البيضاء أثناء الصلاة ، كما يجهزون فيه أطباقا خاصّة من الطعام ذات دلالة معيّنة ، كالخبز والتفاح المغموس في العسل ، والذي يؤكل مع تلاوة صلوات تعبّر عن الأمل في سنة حلوة قادمة ، أمّا في اليوم التالي فلا بدّ له أن يذوق فاكهة جديدة لم يسبق له أن أكلها طوال الموسم الماضي. كما يخصون ذلك اليوم بصلوات خاصّة ، فيقرأ في اليوم الأوّل سفر التكوين ، الإصحاح ٢١ والكتاب الأوّل لصمويل الإصحاح ١ المقطع الثاني ، وفي اليوم الثاني يقرأ سفر التكوين الإصحاح ٢٢ ، والنبي إرمياء الإصحاح ٣١ المقاطع من ١ إلى ٢٠ ، والعشرة أيّام اللاّحقة هي أيّام ندم وتكفير عن الذنوب المقترفة ، وتصالح مع الأقارب.

ـ يوم الغفران Yom Kippour: أو يوم الكفّارة. وكلمة «كيبور» من أصل بابلي ومعناها «يطهر». وهو العاشر من بداية السنة العبرية (شهر تشري) ؛ ولأنّه أقدس أيّام السنة عند اليهود فإنّه يطاقون عليه «سبت الأسبات» ، وهو اليوم الذي يطهّر فيه اليهودي نفسه من كل ذنب. وبحسب التراث الحاخامي ، فإن يوم الغفران هو اليوم الذي نزل فيه موسى من سيناء للمرة الثانية ومعه لوحا الشريعة ، حيث أعلن أن الرب غفر لهم خطيئتهم في عبادة العجل الذهبي. وفي هذا اليوم يطلب الشعب ككل الغفران من الإله .

ويبدأ الاحتفال بهذا اليوم قبيل غروب شمس اليوم التاسع من تشري ، ويستمر إلى ما بعد غروب اليوم التالي ، فيصومون اللّيل والنهار عن الأكل والشراب والجماع الجنسي ، ويعبّرون عن ندمهم على ما اقترفوا السنة الماضية ، ويحتوي هذا اليوم على خمس صلوات ، تبدأ من عشية يوم الغفران إلى مسائه ، ينشدون فيها الغفران لما ارتكبوا من ذنوب ، فيرفع كلّ صوته أمام الملأ معترفا بذنوبه ، ثمّ يسجد تعظيما للخالق ، وفي الصباح يقرأ كتاب اللاّويين الإصحاح ١٦ والنبي إشعياء من الإصحاح ٥٧ مقطع ١٤ إلى الإصحاح ٥٨ مقطع ١٤ ، وعند منتصف النهار يقرأ الإصحاح ١٨ من اللاّويين.

ـ عيد المظال « سوكوت Soukkot » : وهو ثالث أعياد الحج عند اليهود ، إلى جانب عيد الفصح وعيد الأسابيع. كما عرف بأسماء أخرى منها «عيد السلام» و«عيد البهجة». ويحتفل به من ١٥ إلى ٢١ من شهر تِشري ، ومدّته سبعة أيّام بعد عيد يوم الغفران. وهي مناسبة لإحياء ذكرى خيمة السعف التي آوت العبرانيين في العراء أثناء الخروج من مصر. وقد جاء في كتاب العهد القديم:«وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأوّل ثمر أشجار بهجة وسعف النّخل وأغصان أشجار غبياء وصفصاف الوادي»[1]. ويتمّ الاحتفال بأن يأخذ اليهود النباتات الأربعة المشار إليها ، فيمسكون بالأغصان بيمناهم بعد ربطها بطريقة خاصّة ويلوحون بها في كلّ اتّجاه ، رمزا إلى أنّ الإله هو ربّ الطبيعة. ويُكتفى الآن في الغرب بعمل مظلّة صغيرة من السعف ، تُنصب في شرفة المسكن ، ويتناولون فيها وجبات الطعام ، وقد تبنى بجوار المعبد اليهودي حيث يتناولون فيها وجبة رمزية ، على أن يقضوا

(١) اللاويين: ٢٣ ـ ٤٠.

ليلتهم في بيوتهم[١].

ـ عيد التدشين «حانوخة Hannukah»: ويستمرّ ثمانية أيّام بدءا من ٢٥ كسلو حتى ٣ تِفَت. والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي دخول يهودا الحشموني (أو المكابي) القدس وإعادته للشعائر اليهودية في الهيكل؛ لذلك سمي بعيد التدشين. ويقال: إنّ يهودا لمّا دخل الهيكل وجد أنّ الزيت الطاهر الذي يحمل ختم الكاهن الأعظم لا يكفي إلاّ يوما واحدا، وكان من الضروري أن تمرّ ثمانية أيّام قبل إعداد زيت جديد كما تقضي التوراة، فحدثت المعجزة بأن استمرّ الزيت في الاحتراق ثمانية أيّام بدلا من يوم واحد؛ ولذلك صُمِّم لهذا اليوم شمعدان مينوراه خاص من تسعة أفرع، فتوقد شمعة في اللّيلة الأولى، ثم تضاف ثانية في اليوم التالي، وهكذا حتى اليوم الثامن. وفي هذه المناسبة تُقرأ بعض الفقرات من سفر العدد، ثم يضاف وصف لمعجزة الحانوخة في تلاوة العميداه أثناء الصلاة[٢].

وبحكم توافق هذا العيد مع عيد الميلاد النصراني، ومن أجل الحفاظ على الهوية القومية، ارتقى اليهود بهذا العيد البسيط الذي كان لا يختلف عن باقي أيّام الأسبوع إلى جعله من أهم الأعياد على الإطلاق، وأصبح يضاهي عيد الكريسماس النصراني، فحلّت «شجرة الحانوخة» محل «شجرة الكريسماس»، وهناك «العم ماكس» رجل الحانوخة بدلا من «بابا نوال».

ـ عيد النصيب «البوريم Pourim»: «بوريم» كلمة عبرية مشتقة من كلمة

---

(١) Jacob Newman & Gabriel SIVAN : Le Judaïsme de A à Z : Lexique des termes et notions de la vie juive. DORA, Paris 2000.

(٢) Voir : Josy Eisenbery/Adin Steinsaltz : Le Chandelier d'Or. Verdier 1988.

«بور» أو «فور» البابلية ، ومعناها «قرعة» أي «نصيب». وكان عيد البوريم يُدعى «يوم مسروخت» ، إشارة إلى «القناع» أو الملابس التنكرية التي كان يرتديها الشخص في هذه المناسبة في القرن الأول قبل الميلاد ؛ لذلك سمّاه العرب عيد المساخر. ويحتفل بهذا العيد في ١٤ آدار ، وهو عيد بابلي كانت الآلهة البابلية تقرِّر فيه مصير البشر ، وفي هذا اليوم أنقذت إستير يهود فارس من مؤامرة دبّرها هامان لذبحهم ؛ لذلك يصوم بعض اليهود اليوم الذي يسبق العيد «صوم تعنيت إستير» ، إحياء لذكرى الصوم الذي صامته إستير وكل اليهود معها قبل ذهابها إلى الملك تستعطفه لإلغاء قرارات هامان بحسب ما جاء في التوراة ، وقد تقرّر بالقرعة (أي النصيب) أن يكون الذبح في الثالث عشر من آدار ، ومن هنا جاءت التسمية. فيقرؤون فيه سفر إستير التي أنقذتهم ، وهو سفر ليس كغيره حيث لم يذكر فيه اسم الله أبدا ، ويعتبر اليهود أنّهم مدينين لها. وتبعا للتقليد اليهودي كلّ الأعياد والمناسبات لربّما تنتهي في يوم ما ، إلاّ عيد إستير فهو أبدي[١].

ـ عيد الفصح Pessah: أو يوم الرّبيع ، أو عيد الفطير. وهي تسميات مختلفة لعيد واحد ، والسبب في ذلك هو اتّفاق هذا العيد (ذِكرى الخروج) مع أعياد أخرى كانت سائدة في تلك الفترة ؛ لذلك يذهب بعض المختصين في الدراسات الدينية إلى أن الحاخامات قد فسّروا هذه المصادر تفسيرا دينيا برغم طابعها الدنيوي الوثني. ويبدأ الاحتفال به في ١٥ نيسان/ أبريل ، ويدوم سبعة أيام داخل

(١) Voir : Edward Hoffman : Mystique juive et Psychologie moderne, la vie de la splendeur. DERVY-LIVRES. Paris 1988, et : Priere, mystique et judaïsme : Travaux du centre d'Histoire des religions de Strasbourg II. Puf, Paris 1987.

الدولة اليهودية ، وثمانية أيام خارج فلسطين . وهو أوّل أعياد الحج اليهودية الثلاثة. يحتفلون فيه بذكرى خروجهم أو نزوحهم من مصر ، وكلّ يهودي لا بدّ وأن يعتبر نفسه وكأنّه خرج من مصر ، فيحضرون فيه أكلا له دلالات ورموز تاريخية[١]. فباقة البقدونس تعبيرا على الحصاد المستقبلي في أرض الميعاد ، والعشب المرّ يذكّر مرارة الاستعباد ، والماء المالح أو المخلوط بالخل يذكّر بدموع اليهود ، وعجين اللّوز مع القرفة المنقوع في النبيذ رمز الملاط الذي كانوا يستخدمونه في البناء في مصر ، وذراع الخروف المشوي يذكّر بالحمل الذي كان يُضحَّى به. ويلاحظ أنّ تناول هذه الأطعمة والمأكولات يتمّ حسب نظام معيّن[٢].

ـ السبت Shabbat: هو العيد الأسبوعي عند اليهود. فالعمل على أنواعه محرّم في اليوم السابع. وفيه تضاعف الذبائح اليومية. ويرتبط الاحتفال بالسبت بإنجاز الله عمله في الخليقة ــ إذ بعد خلق العالم في ستّة أيّام ، كما يرون ، الله يستريح

---

(١) ذُكِرت في الاحتفال بهذا العيد حكايات كثيرة، لم أقف على ما يثبتها أو ينفيها في الكتب الأصولية اليهودية. ومن ذلك ما ذكره يوسف نصر الله في كتاب: «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ، أنّ بعضا من متطرّفي اليهود قد استنزفوا دماء بشرية واستخلصوها من أبدان أصحابها قصد شربها وصنع الفطير في بعض مناسباتهم الدينية. ومن ذلك ما حدث في مدينة دمشق السورية من قصّة قتل الطفل «هنري عبد النور»، أحد أبناء الطائفة النصرانية من الأرمن الكاثوليك ، ثم واقعة ٥ فبراير ١٨٤٠ التي راح ضحيتها الأب توما الكبّوشي وخادمه المسلم إبراهيم عمّار. (ص ٢٩ وص ٣٣). وقد أخذ القصّة من مرجعين هما: تاريخ سورية لسنة ١٨٤٠ لشارل لوران، وكتاب : حول أصول وفصول التلمود للدكتور روهلنج. (ص ١٢). كما ذكر مصطفى أحمد الزرقا أنّه اطّلع على تفاصيل القصّة في مفتتح الجزء الخامس من مجموع وثائق جمعها أسد رستم (كان أستاذا للتاريخ الشرقي في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد توفي في بيروت سنة ١٩٦٥) تتعلّق بتاريخ سورية في زمن إبراهيم باشا المصري من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٥ هـ.(ص٨).

(٢) Voir : Le Paque dans la conscience juive, édition Albin Michel, Paris 1959.

(خروج ٢٠: ١١) ـ وبالخروج من مصر (تثنية ٥: ١٥)، وبحاجة الإنسان إلى الرّاحة والترويح عن النّفس (خروج ٢٣: ١٢). وبعد فترة السبي فرضت قواعد حفظ السّبت بصورة صارمة (نحميا ١٣: ١٥/ ٢٢)، حتى بات حفظ السبت إحدى الخصائص البارزة في اليهودية. فلا يعمل اليهود فيه، ولا يسافرون، ولا يوقدون نارا، ولا يكتبون عهدا أو عقد زواج، ولا يقودون فيه حربا هجومية، فيحضرون بالكنيس للصلاة، ويتناولون وجبة خاصّة[١]. وقد خالف موسى بن ميمون[٢] صاحب النزعة العقلية هذا التفسير والفهم، ويذهب إلى أنّ معنى «استراح» هو انفعال من النّفس... وأنّه بمعنى الغرض والإرادة فيكون معناه استكمال إرادته ونفاذ جملة مشيئته[٣]. وليس ما دلّ عليه الفهم الإنساني التجسيدي لله.

الفرق اليهودية:

تفرّعت في اليهودية فِرق كثيرة، تختلف في مبادئها وأسس حياتها ونظرتها إلى الكون وإلى ما وراء الكون. وقد أسهمت معطيات كثيرة في تولّد هذه الفرق وتكاثرها. يرجع بعضها إلى أسباب خلافية عقائدية وفقهية وأخرى سياسية، هذا إلى جانب أهمية الظروف التي مرّت بها الجماعات اليهودية في الشتات، فكان لها الأثر البالغ في هذا التعدّد الكمي والنوعي في الإطار اليهودي. وسنعرض في

---

(١) تأثّرت الأحكام الفقهية اليهودية بالواقع فتغيّر بعضها مسايرة لحركة التجديد التي طالت كلّ أوجه الحياة، ومن ذلك قضية الأعياد وخاصّة السبت الذي يفوّت التزامه كثيرا من مصالح التجّار المالية فتمّ البحث في إمكانية أن يعطي التاجر للجهة الدينية المسؤولة مبلغا ماليا معيّنا يقتطع من ربح يومه.

(٢) موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (بدون)، ص ١٦٧.

(٣) Voir : Le Shabbat dans la conscience juive, données et textes. Presses universitaires de France, 1er édition 1975.

هذا المبحث عدّة فرق تعبّر عن طبيعة الاختلاف بينها.

الفريسيون :

أُخِذت كلمة «فريسيون» من الكلمة العبرية «بيروشيم» ، أي المنعزلون. وكانوا يلقبون بلقب «حبيريم» أي «الرفاق أو الزملاء» ، وهم أيضا الكتبة. وإليهم ينتمي الحاخام «مائير كاهان». ويرجع التراث اليهودي جذورهم إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. ويُعدُّ الفكر الفريسي أهم تطوّر في اليهودية بعد تبني عبادة يهوه. وقد كان جوهر برنامجهم يتلخص في إيمانهم بأنه يمكن عبادة الخالق في أي مكان ، وليس بالضرورة في الهيكل في القدس ، أي أنهم حاولوا تحرير اليهودية ، كنسق أخلاقي ديني من الوثنية المتمثّلة في عبودية المكان والارتباط بالهيكل وعبادته القربانية.

وقد دافع الفريسيون عن الهوية اليهودية دون تعصّب أو عنف ، وإنّما كانوا يدافعون عن هوية متفتحة استفادت من الفكر البابلي الديني ، ثم الفكر الهليني ، وكانت تدرك عبث محاولة الاستقلال القومي ؛ ولذا أُعيد تعريف الهوية بحيث أصبحت هوية دينية داخلية روحية ذات بُعد إثني ليس قوميا بالضرورة. وقد واكب هذا التعريف الجديد استعدادا للتصالح مع «روما» الدولة الحاكمة في المنطقة آنذاك ، ما دامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينية ، ولربما فضلوها على حوكمة يهودية تعطّل الشعائر اليهودية ، مثل الحكومة الهيرودية أو الحشمونية. إلاّ أنّه وجدت بداخلهم تيارات متطرّفة مثل «الغيورون» و«عصبة الحناجر» و«الأسينيون». وهم بخلاف الصدوقيون فقد آمنوا بوحدانية الخالق ، وبالماشيَّح ، وبخلود الروح في الحياة الآخرة ، وبالبعث والثواب والعقاب والملائكة وحرية الإرادة التي لا تتعارض مع معرفة الخالق المسبقة بأفعال الإنسان.

وقد دفعتهم سياستهم الاعتزالية ، وادّعاؤهم أنّهم أقدس من غيرهم ، إلى احتقار غيرهم من النّاس. فدخلوا في نزاع مع المسيح بسبب كبريائهم وتشدّدهم الزائد في حفظ الطقوس على حساب المحبّة والرّحمة. ولم يهاجم المسيح عقائدهم التي اعتبروها صحيحة ، بل هاجم كبرياءهم وقساوة قلوبهم في ممارستهم لهذه العقائد. وقد كان تأثير الفريسيين عظيما جدا على الرغم من قلّة عددهم. وقد رسم الفريسيون الخطوط العريضة لليهودية الحديثة بعد سقوط أورشليم ٧٠ للميلاد ، فاستمرّوا في التشديد على التقوى الفردية وعلى مبادئ أخلاقية متشدّدة ، فضلا عمّا عرف عنهم من تمسّك بالمظاهر الخارجية للدين. وقد تمتّع الفريسيون باحترام باقي اليهود لهم إن لم نقل بمحبّتهم.

السامريّون :

صغة جمع عربية ، معرّبة من كلمة «شومیرونیم» العبرية ، أي سكّان السّامرة. ويشار إليهم في التلمود بلفظة «كوتيم» وتعني «الغرباء». لكن هذه التسميات هي تسميات اليهود الحاخاميين لهم. وكان يوسيفوس يسميهم الشكيميين نسبة إلى «شكيم» (نابلس الحالية). أمّا هم فيطلقون على أنفسهم «بنو يسرائيل» ، أو «بنو يوسف» ، باعتبار أنّهم من نسل يوسف. كما يطلقون على أنفسهم اسم «شومريم» ، أي «حفظة الشريعة» ، باعتبار أنّهم انحدروا من صلب يهود السامرة الذين لم يرحلوا عن فلسطين عند تدمير المملكة الشمالية عام ٧٢٢ ق. م ، فاحتفظوا بنقاء الشريعة[١].

ويعود تاريخهم إلى بداية قدوم اليهود إلى فلسطين ، وظهرت طائفتهم نتيجة

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٥/ ٣١٩.

خلافات داخلية بين اليهود حول قضية اختيار الكاهن الأكبر ، إذ اختارت مجموعة تنصيب الكاهن الأكبر حسب العمر ، فيما أرادت فئة أخرى اختباره بالخلافة مع توارث صفة الكهانة. ولمّا لم يتّفقوا على رأي محدّد انفصلت المجموعة التي سُمِّيت فيما بعد بالسامرية ، مطالبة باختيار الكاهن حسب العمر ، وسكن أفرادها منطقة سبسطية ، وهي مدينة رومانية أثرية شمال مدينة نابلس[1]. وقد تسمّى السامريّون بهذا الاسم نسبة إلى معنى كلمة «سامري» العبرية ، (وتعني حراس بالعبرية)، والتي تعني عندهم الحراس على تعاليم التوراة ، وهم ـ بحسب الكاهن عبد المعين صدقة ـ بنو إسرائيل المذكورون في القرآن الكريم.

وتَعتبر الطائفة جبل «جرزيم» بنابلس هو الجبل المقدّس ، حيث يعتقد رجال الدّين اليهود من الطائفة السامرية أنّ هيكل سليمان كان موجودا فوق جبل «جرزيم» ، ولا يعترفون بمزاعم حاخامات اليهود ـ خاصّة القادمين من أمريكا وبريطانيا ـ بأنّ هيكل سليمان تحت الحرم القدسي الشريف. ومن ثم قامت هذه الطائفة بالترحال إلى داخل المدينة حيث الاقتراب من جبل جرزيم ، الذي يطلقون عليه «جبل الطور» تمهيدا لإقامة المملكة الخاصّة بهم على هذا الجبل. وتتكوّن هذه الطائفة من خمس عائلات ، وتمثّل العائلة الأولى «عائلة الكهنة» التي تنحدر من سبط لاوي ابن سيّدنا يعقوب ، وهي مكلّفة بإدارة شؤون الطائفة المختلفة. أمّا باقي العائلات فهي: اللطيف ومفرج وسراوي وسبقة ، وكلّها منحدرة من سيّدنا يوسف وأخيه بنيامين ، ابني سيّدنا يعقوب ، وفقا لمعتقداتهم.

---

(١) توفي الكاهن الأكبر لطائفة السامرية «سلوم عمران» ، عضو المجلس التشريعي الفلسطيني يوم ٠٨/ ٠٢/ ٢٠٠٤ بمدينة نابلس الفلسطينية.

ويدين السامريون باليهودية ولكنّهم يحتفظون بأوجه اختلافهم معها ، حيث يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيّين لبني إسرائيل ، وأنّ اليهود طائفة منحرفة مرتدّة عن الطريق القويم لدين موسى.

وتشبه عاداتهم وتقاليدهم إلى حدّ ما عادات وتقاليد الشعب الفلسطيني إلاّ في بعض الأمور مثل الزواج ، حيث يحرم على الفتاة الزواج من خارج الطائفة ، بينما يسمح للفتى أن يتزوّج من خارج الطائفة شريطة موافقة الكاهن ، وأن تترك العروس أيّ دين يخر وتؤمن بتعاليم السامريّين. وتتركّز حالات زواجهم من خارج الطائفة في الفتيات اليهوديات والنصرانيات. ومن أسباب لجوئهم إلى الزواج من خارج الطائفة قلّة عدد فتيات الطائفة السامرية ، بل بداية انقراض الطائفة التي تعتبر أصغر وأقدم طائفة يهودية ، حيث بلغ تعدادهم سنة ٢٠٠٤ نحو ٦٥٠ شخصا ، يتواجدون بمنطقتين هما: جبل الطور بمدينة نابلس ومنطقة حولون داخل الأراضي المحتلّة عام ١٩٤٨.

ويعتقد السامريون بوجود عيدين لهما ، الأوّل عيد العرش ، ويكون في شهر مارس من كلّ عام ، ويتمّ فيه صنع مظلّة مربّعة الشّكل داخل كلّ منزل تعلّق عليها ثمار الأرض ، ويستمرّ لمدّة سبعة أيّام كاملة ، يتمّ بعدها توزيع الثمار على أفراد الطائفة. وأمّا العيد الثّاني فيطلق عليه «عيد الفصح» ، ويتمّ فيه ذبح الأضاحي وتوزيعها على أبناء الطّائفة ، ويكون هذا العيد إمّا في شهر أبريل أو مايو من كلّ عام. وتصوم الطّائفة السامرية يوما واحدا في السنة ، وعلى كلّ فرد في الطائفة صيام هذا اليوم حتى الأطفال ، بناء على معتقد مفاده أنّ كلّ نفس لا تصوم في هذا اليوم تموت. ويكون الصيام عن كلّ شيء ابتداء من الأكل والشّرب

ومرورا بالأعمال المنزلية والعمل والدراسة ، ولا يمكن حتى مشاهدة التلفاز أو القيام بأيّ نشاطات دنيوية ، على أن يخصّص يوم الصيام للصلاة التي تكون عبارة عن ركوع وسجود بتخلّلها تراتيل باللّغة العبرية[١] .

الصدقيون :

شكّل الصدوقيون في زمن المسيح ، الجماعة الثانية من حيث الأهمية ، بالرّغم من تراجع نفوذهم. وقد كان معظمهم من الطبقة الغنية المالكة ، واستطاعوا منذ نشأتهم أن يهيمنوا على المراكز الرفيعة ، وذلك من طريق استغلالهم الجيّد لنفوذهم السياسي. وفي زمن المسيح تساووا مع الفريسيين ، إذ كان لهم تقريبا عدد المقاعد ذاته في السنهدريم (المحكمة اليهودية العليا ، انظر سفر أعمال الرّسل ٢٣ : ٦/ ١٠). وقد كان الكثيرون من رؤساء الكهنة من الصدوقيين ، أو على علاقة وثيقة بهم. أما من ناحية معتقدهم الديني ، فكانوا متشدّدين في حصرهم الإعلان الإلهي في أسفار موسى الخمسة ، دون سواها. وبذلك رفضوا المفاهيم الدينية مثل الخلود ، القيامة ، الملائكة والشياطين ، التي كان الفريسيون يؤمنون بها (سفر مرقس ١٢ : ١٨ ، سفر أعمال الرسل ٢٣ : ٨). لكن الصدوقيين لم يحظوا بتأييد الشعب بسبب انتمائهم إلى الطبقة الآرستقراطية.

الآسيون :

برزت هذه الجماعة فجأة بعد بقائها فترة طويلة في الظل ، على أثر اكتشاف مخطوطات البحر الميّت سنة ١٩٤٧ . وتؤلّف هذه المخطوطات جزءا من مكتبة

(١) هنادي دويكات: وفاة أكبر كهان السامرية بفلسطين ، شبكة إسلام أون لاين ٠٩/ ٠٢/ ٢٠٠٤.

جماعة قمران ، وهي طائفة رهبانية كانت تعيش في عزلة في صحراء قاحلة قرب البحر الميّت. ومع أنّه لا يمكننا أن نجزم في مسألة التطابق بين جماعة قمران والآسنيين ، فإنّ أوجه التشابه بين الجماعتين كثيرة. وقد تأسّست هذه الطائفة على يد شخص لا نعرف عنه سوى اسمه «معلّم البِر» ، وذلك على الأرجح حوالي سنة ١٦٥ ق م ، واستمرّت حتى سنة ٦٨ ق م ، حين قُضِي عليها في الثورة اليهودية. وقد اعتبر أفراد هذه الجماعة أنفسهم أنّهم شعب الله الحق ، أما سائر النّاس ومن بينهم القادة اليهود في أورشليم ، فهم أعداء الله. وقالوا إنّهم «أبناء النور» الذين يعيشون بانتظار اليوم الذي فيه سيكون النصر من نصيبهم في المعركة النهائية ضد «أبناء الظلام» ، حين سيدفع إليهم السلطان الذي يستحقونه.

وإلى أن يحين ذلك الوقت ، عليهم أن يهتفوا بأنفسهم ويكبّوا على دراسة أسفار الوحي بكلّ اجتهاد ، متّبعين نظاما رهبانيا قاسيا في ضبط النّفس ، يحبّ بعضهم البعض الآخر ، كارهين كلّ الذين هم خارج الجماعة. وقد وضعوا شروحات عميقة للأسفار ، مطبّقين كل آيات العهد القديم على ظروفهم الحياتية وتوقّعاتهم المستقبلية. وكانوا ينتظرون مجيء مشيحين ، واحد من هارون (كهنوتي) ، والآخر من إسرائيل (ملكوتي) ، أو ربّما مشيّح واحد يجمع بين الدورين. وتكمن أهمية مخطوطات قمران ، ليس في تعريفها بهذه الجماعة فحسب ، بل بالحري في تقديمها الدليل على وجود تيّار رؤيوي في اليهودية بعيد كل البعد عن الديانة الأساسية في أورشليم. والذي يبدو أنّه لم يكن محصورا في مجموعة صغيرة تعيش في عزلة ، بل تخطّاها بكثير. وقد سقط منذ ١٩٤٧ الاعتقاد السائد بأن الفريسيين والصدوقيين هم كل «اليهود» ، فالمسألة ليست بهذه البساطة.

الغيورون :

في الوقت الذي سعى فيه الفريسيون والصدوقيون إلى الإفادة من الحكم الروماني ، وبينما كان رجال قمران يحلمون بتدخّل إلهي يحرّرهم من يد أعدائهم ، سعى كثير من اليهود بنشاط إلى تحقيق التحرير بأنفسهم. فالثوار اليهود أو الغيورون كما دُعوا فيما بعد كانوا المقاتلين من أجل الحرية. وهم الذين أشعلوا في النهاية نيران الثورة التي أدّت إلى تدمير أورشليم على يد الرومان سنة ٧٠ م. وكانت عدّة ثورات فاشلة قامت قبل المسيح وفي زمنه (سفر أعمال الرّسل ٥: ٣٦/ ٣٧). وقد اعتبر الغيورون ، الذين اشتهروا بوطنيتهم ، أنّ الخضوع لروما هو خيانة لله ، ملك إسرائيل الحقيقي. ومن الواضح أنّ واحدا من الرّسل على الأقل كان ينتمي إلى حركة الغيورين قبل اتّباعه المسيح[1].

القراؤون :

شهدت اليهودية في القرن الثامن حركة إصلاح ديني من جانب القرّاءين ، الذين تأثروا بالتراث الديني الإسلامي وعلم الكلام والنزعة العقلانية في التراث الديني الإسلامي ، فرفضوا الشريعة الشفهية التي جُمِعت معظم أحكامها في التلمود ، ونادوا بأن لا قداسة إلاّ للتوراة وحسب. أمّا الشريعة الشفوية فهي مجرّد تفسيرات واجتهادات غير ملزمة. وهو موقف مختلف تماما عن موقف اليهودية الحاخامية التي ترفع الشريعة الشفوية (أي تفسيرات الحاخامات) إلى مرتبة

(١) ريتشارد فرانس: الخلفية الدينية للعهد الجديد، بحث ضمن كتاب «المرشد إلى الكتاب المقدّس» ، ص ٤٩٤ وما بعدها.

التوراة ، بل إلى مرتبة أعلى منها أحيانا[١].

الحسيدية :

الحسيدية كلمة مشتقة من الكلمة العبرية «حسيد» ومعناها «التقي» ، وتستخدم في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية التي أسّسها بعل شم طوب[٢] (١٧٠٠ – ١٧٦٠) ، وقد بدأت هذه الحركة في منتصف القرن الثامن عشر في جنوب بولندا وجليشيا وأوكرانيا ، وانتشرت منها إلى وسط بولندا

---

(١) عبد الوهاب المسيري: من هو اليهودي؟ ص ٣٢.

(٢) واسمه الحقيقي «إسرائيل بن أليعازر» ، ولد في منطقة بودوليا Podolia التي تقع جنوب شرق أوكرانيا، من عائلة يهودية أرثوذكسية فقيرة، وقد توفي أبواه وهو ما زال طفلا صغيرا، فتبنّته الطائفة اليهودية في مدينته ورعته وقامت بشؤونه، وقد أُدخل «حدر» وهي المدرسة اليهودية التقليدية التي يتعلّم فيها أبناء اليهود الأرثوذكس، إلاّ أنّه لم يستمرّ بها طويلا فأخذ يهرب منها ويذهب إلى الغابات المجاورة حيث يختبئ وينقطع فيها لفترات طويلة أحيانا، وعند الثانية عشرة من عمره اشتغل بعدّة أعمال، كمساعد لمعلّم ثمّ حاجب لكنيس، وكان عندما عمل بالكنيس ينام أكثر نهاره ويقضي ليله وحيدا في التعبّد وقراءة بعض الكتب التي كما قيل لها علاقة بالقبالة، وبعد زواجه من ابنة الحاخام أبراهام غرشون، استقرّ في مدينة تولست Tulst، حيث عمل قصّابا شرعيا ومنشدا في كنيس ومعلّما، وكان في تأمّله اللّيلي يقلّد الحاخام المشهور اسحاق لوريا (ت ١٥٧٢ م) وهو صاحب مدرسة في القبالة، كان قد اعتكف لسبع سنوات على ضفاف النيل في مصر يفكّر ويتأمّل. ومن المعروف أنّ اليهود قد كثرت بينهم الخرافات والسحر والشعوذة، كما كان الأطباء قليلين بينهم، فكانوا يلجؤون إلى جماعة بينهم عرف الواحد منهم باسم «بعل شم» أي «سيد الاسم»، والمقصود به هنا «اسم الرب»، فكانوا يطوفون المدن والقرى بقصد العلاج مستعملين الرُّقى والأدعية والتمائم والسحر، فانضمّ إليهم إسرائيل بن أليعازر وصار واحدا منهم يشتغل مهنتهم، فاشتهر بين النّاس اليهود وغير اليهود، وأخذت تعزى له الكرامات والأعمال الخارقة، فوفد إليه النّاس كلّ يبتغي حلاّ لمشكلته، وكان في هذه الحالات يستعين بكتاب «الزهار». ومن ثم أطلقوا عليه «بعل شم طوب» بإضافة كلمة «طوب» التي تعني طيّب، وأصبح هذا اللقب خاصا به دون غيره، ولربّما يُختصر على نحو «بشط» التي تجمع الحروف الثلاثة الأولى من الاسم. للتفصيل انظر: جعفر هادي حسن: اليهود الحسيديم: نشأتهم، تاريخهم ، عقائدهم ، تقاليدهم ، دار القلم ، دمشق ، طبعة ١ / ١٩٩٤ ص ١٥ وما بعدها .

وروسيا البيضاء والمجر ورومانيا ، حتّى أصبحت هي عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا بحلول عام ١٨٣٠ .

ولكن الحسيدية برغم أنّها حركة واحدة إلاّ أنّها انقسمت إلى فرق متعدّدة ، ولعلّ أهمّ سبب لهذه الانقسامات هو أنّ كلّ جماعة كانت تدور حول شخص واحد يسمّى تساديك Tsaddik ، تتشبّه به وبأقواله وأفعاله. وقد اتّجهت بعض الفرق الحسيدية اتّجاها صوفيا محضا ، بينما اتّجه بعضها (مثل حركة حبد) اتّجاها صوفيا ذهنيا يعتمد على دراسة القبالة والتلمود ؛ ولذلك أسّست هذه الحركة مدارس تلمودية[1] .

*****

(١) من الجماعات الحسيدية الحديثة جماعة « لوبافيتش Loubavitch »: والتي يرتبط تاريخها بحسب «حاييم نيسنبوم Haim Nissenbaum» بالحركة الحسيدية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر بداية القرن التاسع عشر. وقد تمركزت منذ ١٩٤٠ بالولايات المتحدة الأمريكية وبفرنسا منذ ١٩٦٥، حيث بدأت تكتسح الجماعة اليهودية وتأسس المؤسسات التعليمية ... ACTUALICS/N°1/Avril2004/P12/Paris .

النصرانية

نشأة المصطلح ودلالته :

يتعلّق هذا المبحث بمصطلحين اثنين : أحدهما : قديم يتّصل بالاستعمال الذي ساد المجتمعات العربية الإسلامية القديمة وهو مصطلح «النصرانية» ، والثاني : حادث يرتبط أساسا بغلبة الحملات العسكرية وإرسائها ثقافة جديدة ، أسّست للمصطلحات وحدّدت مضامينها ، وهو مصطلح «المسيحية». ومهما كان أصل التسمية فإنّنا لا نجد تاريخا محدّدا يمكن اعتباره بداية لنشأة المصطلح ، وسبب ذلك:

ـ أنّه لم يرد على لسان المسيح ـ عليه السّلام ـ أنّه سمّى أتباعه «النصارى».

ـ أنّه لم يُعرف هذا الاسم إلاّ بعد فترة من رفع المسيح ـ عليه السلام.

ـ أنّه لم يرد ذكر للنّصرانية في القرآن الكريم ، وإنّما استخدم الاسم «نصارى» ، «أنصاري» ، للدلالة على أتباع عيسى ـ عليه السّلام ـ فجاءت في صيغة الجمع «نصارى» ، وفي صيغة المفرد «نصرانيا» ، وفي صيغة الوصف «أنصار»[١].

وحتّى ما ورد في القرآن الكريم من هذه التسمية في آيتين فقط ، إنّما يشير إلى أنّ أتباع سيّدنا عيسى ـ عليه السلام ـ هم الذين سمّوا أنفسهم بذلك ، كما لا يوجد تحديد لتاريخ التسمية ذاته ، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً

(١) محمّد عثمان صالح: النّصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير: دراسة مقارنة حول المصطلحات والدلالات ، مكتبة ابن القيم، المدينة المنوّرة ، طبعة ١ / ١٩٨٩ ص ١١.

(٢) سورة المائدة : ١٤.

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [١] ، وممّا يقوّي ذلك نداء سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ للحواريّين ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [٢] ، بل في القرآن ما جاء يدلّ على أنّهم سمّوا أنفسهم كذلك مسلمين وشاهدين قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [٤].

ـ أنّ كلمة النّصارى تطلق ويراد بها الموحّدين الذين تبعوا سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ وتعرّضوا لابتلاءات شتّى ، وتطلق كذلك ويراد بها الذين بدّلوا العقيدة الأصيلة ، وقالوا بالتّثليث والتجسّد والصّلب...وقالوا في أمّ المسيح والرّوح القدس قولا عظيما.

وبمراجعة القواميس العربية ، نجد أنّ اللّغويين قد اجتهدوا في تحديد الأصول الأولى للمصطلح ، بالبحث في جذوره البعيدة ، وهي ميزة تتفرّد بها اللّغة العربية التي ترجع الكلمة إلى جذرها وتفصّل في معانيها الكثيرة. ومثاله ما جاء في لسان العرب لابن منظور [٥] : « ونصرى ونصري وناصرة ونصورية قرية بالشّام ، والنصارى ينسبون إليها ، قال ابن سيّده: هذا قول أهل اللّغة ، قال: وهو ضعيف إلاّ أنّ نادر النّسب يسعه...وقال اللّيث: زعموا أنّهم نسبوا إلى قرية بالشّام اسمها نصرونة ، وقال الجوهري: ونصران قرية بالشّام ينسب إليها النصارى ، ويقال:

---

(١) سورة المائدة : ٨٢.

(٢) سورة الصف : ١٤.

(٣) سورة آل عمران : ٥٢.

(٤) سورة آل عمران : ٥٣.

(٥) لسان العرب: ٦ / ٤٤٤٠.

ناصرة ، والأنصر: الأقلف ، وهو من ذلك لأنّ النصارى قلف ، وفي الأثر: « لا يؤمّنكم أنصر » ، أي أقلف. وورد في معجم متن اللّغة: [١] « النصرانية أحد الأديان السماوية الثلاثة ، وأهلها النصارى ، وأحدهم نصراني: نسبة إلى الناصرة ، بلد المسيح ـ عليه السلام ، أو إلى نصران: اسم موضع ، أو نصورية أو نصرى أو نصرونة: وهي أسماء مدينة الناصرة ، أو سمّوا بذلك لقوله تعالى: ﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ [٢] ، و﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [٣] ». وعرّفها محمّد فريد وجدي [٤] بقوله : « تطلق النصرانية على الذي أتى به عيسى النّاصري ابن مريم ـ عليها السلام ـ إلى بني إسرائيل منذ حوالي ١٩٠٠ سنة ». وعرّفتها الموسوعة البريطانية الجديدة [٥] مقتصرة على الجانب التاريخي: « النصرانية: أُسِّست في القرن الأوّل بعد الميلاد من طرف عيسى النّاصري (المسيح ، الممسوح باسم الله) » .

وإذا أضفنا الاعتبارات السابقة الذّكر للتّعريفات التي أوردناها ، فإنّه لا يمكن ترجيح أحد الآراء على أساس أنّه الحدّ النهائي للنصرانية ، وإن وقع شيء من ذلك فهو لتحرير المصطلح ووضع حد وسط لتعيين هذه الديانة ، خاصّة وأنّنا لم نجد في التراث الفكري النصراني رأي معتبر يستند إليه في تحديد تعريف نهائي ، باستثناء بعض المحاولات التي اجتهدت في التوفيق بين المعطى الجغرافي « مدينة الناصرة » والمعطى التاريخي « تسمية اليهود لأتباع عيسى ـ عليه السلام » . جاء

---

(١) ٥ / ٤٧١.

(٢) سورة الصف : ١٤.

(٣) سورة الصف : ١٤.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٧١ ، ٩ / ١٩٧.

(٥) The new encyclopaedia Britanica : V16 – P251.

في قاموس « لاروس »[١] ما معناه : « النصرانية اسم أطلقه اليهود على أوائل المسيحيين ، له صلة بالمسيح النّاصري...والنّاصري لقب ، صفة أعطيت للمسيح... » .

وللأمانة العلمية فإنّه لفقدان المصدر الأوّل « إنجيل عيسى » الذي في غيابه كتبت سائر أسفار العهد الجديد ، فإنّه لا يمكن الوقوف على تعريف نهائي يعتبر أصل التّسمية. حتّى العبارات التي أخذت مكانها في نصوص العهد الجديد ، لا يمكن التّعويل عليها ؛ لأنّها محلّ نقد وغير معتبرة كثيرا عند علماء مقارنة الأديان ، وقد ذكر المؤرّخ « وُل ديورانت Will Durant » في قصّة الحضارة[٢] عند إيراده لثبت مسلسل لتواريخ هامّة تحت عنوان « كلّ التواريخ ما عدا أوّلها بعد الميلاد ، وكلّ ما كان منها قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه ». وبناء عليه فإنّ ما ورد ذكره في نصوص العهد الجديد هو مجرّد عرض لآراء النصارى في أصل التّسمية ، وذلك لوجود تسميات أخرى شائعة الاستعمال خاصّة في رسالة أعمال الرّسل ، مثل: التلاميذ ، والإخوة ، إلاّ أنّها لم تجد حظها في الاستعمال اليومي ، مثل مصطلح النصارى قديما ثمّ مصطلح المسيحيين في فترة لاحقة ، وهو مخالف لتوجيهات النصوص الدينية ، حيث كثر استعمالها بل واعتبرت محور العلاقة الحميمة بين المسيح وأتباعه ، ومثال ذلك ما ورد في « إنجيل برنابا » ، الذي حافظ في جميع سياقاته على المصطلحات التي شاعت زمن المسيح ـ عليه السلام ـ ومنها:

---

(١) Petit Larousse : P694.

(٢) قصّة الحضارة Histoire de la Civilisation : ١١ – ١٢ / ١٩٩.

ـ فدعاهم يسوع إلى قربه ، وقال لهم: ماذا تريدون منّي أيّها الإخوة[١].

ـ فلم يجب يسوع بكلمة واحدة ؛ لأنّهم كانوا من غير أهل الختان ، فتحنّن التلاميذ وقالوا: يا معلّم تحنّن عليهم انظر ما أشدّ صراخهم[٢].

ففي هاذين المقطعين إشارة إلى عدّة مسائل:

الأوّلى: دعوة المسيح أتباعه « بالإخوة » ، وهي صفة لها شروطها ، ومنها القبول والتسليم بما جاء به.

الثّانية: موافق لما جاء في الأثر الذي سبق ذكره: « لا يؤمنّكم أنصر » ، أي أقلف ، أي غير مختون. وهو سبب إعراض المسيح عليهم وعدم إجابتهم بكلمة واحدة ؛ لأنّهم غيّروا ما أمر به ولم يتّبعوا ما جاء به.

الثالثة: كان من الممكن أن يتسمّوا بما يدلّ على التّوحيد أو العبودية أو وحدة الدّين ، ولكن على الأرجح أنّها من تأثيرات التحريف الذي أحدثه بولص[٣] ، لإبعاد النّاس عن جوهر الدّين وشعاره وهو « التوحيد » ، خاصّة وأنّ تسمية الأتباع للمسيح « بالمعلّم » دلالة على أنّه يلقّنهم مبادئ الدّين الحنيف ، والذي من شروطه الرئيسية التوحيد المُطلَق.

---

(١) برنابا: فصل ١٩ / ١٣.

(٢) برنابا: فصل ٢١ / ١٩ – ٢٠.

(٣) انظر ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ، تحقيق وتعليق: علي بن حسن بن ناصر (بالاشتراك) ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض ، طبعة ٢ / ١٩٩٩، ٥ / ٢٢. وممّا أورده ابن تيمية: « أنّ بولص لمّا صار إلى (أثينية) دار الفلاسفة، وفيها دار الأصنام، وجد مكتوبا على باب دار العلماء الإله الخفي الذي لا يُعْرَف، هو الذي خلق العالم...ولكن النصارى ركّبوا دينا من دينين: من دين الأنبياء الموحّدين، ودين المشركين، فصار في دينهم قسط ممّا جاء به الأنبياء، وقسط ممّا ابتدعوه من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم، وهي ألفاظ لا توجد في كلام الأنبياء...».

أمّا بتتبعنا للأناجيل فإنّنا نجد أنّ هذه التسمية استخدمت على النّحو التّالي:

ـ أيّها الرّجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال ، يسوع النّاصري رجل قد تبرهن لكم[١].

ـ فقال لي أنا يسوع النّاصري الذي تضطهده[٢].

ـ فخرج يسوع وهو عالم بكلّ ما يأتي عليه ، وقال لهم : من تطلبون ؟ أجابوه يسوع النّاصري[٣].

ـ جاءت إحدى جواري رئيس الكهنة ، فلمّا رأت بطرس يستدفئ نظرت إليه وقالت: وأنت كنت مع يسوع النّاصري[٤].

ـ قائلا: آه ما لنا ولك يا يسوع النّاصري[٥].

ـ إلاّ أنّ متّى يورد نفس القصّة مستعملا وصفا آخر ألحقته جارية رئيس الكهنة بيسوع: فجاءت إليه جارية قائلة: وأنت كنت مع يسوع الجليلي[٦].

ـ فقال لها: وما هي؟ ، فقالا: المختصّة بيسوع النّاصري الذي كان إنسانا نبيّا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب[٧].

---

(١) أعمال الرّسل: ٢ / ٢٢.
(٢) أعمال الرّسل: ٢٢ / ٨.
(٣) يوحنا: ١٨ / ٥.
(٤) مرقس: ١٤ / ٦٧.
(٥) لوقا: ٤ / ٣٤.
(٦) متّى: ٢٦ / ٦٩.
(٧) لوقا: ٢٤ / ١٩.

ـ وكتب بيلاطس عنوانا ووضعه على الصليب ، وكان مكتوبا يسوع النّاصري ملك اليهود[١].

وقد علّق محمّد عثمان صالح على هذه الاستعمالات بقوله[٢]: « ومن هذه الاستعمالات المتكرّرة نستنتج أنّ إطلاق اسم « النّاصري » على عيسى ــ عليه السّلام ـ وإطلاق اسم « النّاصريين » على أتباعه ـ كان في الإنجيل ــ أمرا عاديا شائعا لدى معاصريه ، بل يكاد الباحث يجزم أنّ هذا الوصف كان أشهر وصف أطلق على عيسى ـ عليه السّلام ـ في « العهد الجديد » ؛ لأنّه استخدم فيه من قبل العامّة ومن الشخص المعني « عيسى » كما استخدم من قبل الموافقين والمخالفين. ولكن كيف أصبحت تسمية أتباع عيسى « بالنصارى » بدلا من النّاصريين؟. وهذا ما لا سبيل إلى التأكد منه ، ولكنّه أمر وقع على كلّ حال ، وربّما شاعت هذه التّسمية « بالنصارى » بفعل التجاوز في التّعريف حين ترجمت الكلمة الأصلية إلى العربية ، وأصبحت هذه التّرجمة مقبولة عند النصارى ولا سيما في القرون الأولى للميلاد ، ولم يتراجع أتباع عيسى عن تسمية أنفسهم بالنصارى ، حتّى انبثقت التسمية الأخرى المقترنة بعقيدة تأليه المسيح وهي « المسيحية » .

كما أنّنا لم نعثر في التراث الفكري اليهودي على أصل للتسمية ، برغم الأسماء والأوصاف الكثيرة التي ألحقتها بالمسيح ، مثل « ذاك الرّجل » و « رجل معيّن » و« ابن النجّار » و« الرّجل الذي شنق » . وقد أورد الأب « آي بي برانا يتس » بعضا منها في فقرة خاصّة تحت عنوان « ما يتعلّق بأسماء يسوع المسيح » ، حيث

(١) يوحنا: ١٩ / ١٩.

(٢) النصرانية والتنصير: ص ١٢.

يقول: « الاسم الأصلي للمسيح في اللّغة العبرية هو « جيشوآهانوتسري Jeshuahanotsri » أي يسوع النّاصري ، وقد دعي بالنّاصري ، نسبة إلى مدينة النّاصرة التي نشأ فيها ، وهكذا فإنّ « التلمود » يدعو المسيحيين أيضا بالعبرية « نوتسريم Notisrim » أي النّاصريون. وبما أنّ كلمة « جيشوا Jeschua » تعني المنقذ أو المخلّص Savior ، فإنّ اسم يسوع الأصلي قلّ ما يظهر في الكتب التلمودية ، وهو يختصر دائما تقريبا باسم « جيشوا Jeschu » الذي اقتبس بحقد في الواقع ، من تركيب الأحرف الأولى للكلمات الثلاث: إيماش شيمو فيزيكرو Immach schemo vezikro أي « ليمح اسمه وذكره » ، ويدعى مسيحي من يتّبع تعاليم ذاك الرّجل الكاذب ، الذي يعلّمه الاحتفال بالعيد الديني عند أوّل يوم يلي السبت[١]. ثمّ يورد تحت عنوان « الأسماء التي يطلقها التلمود على المسيحيين » قوله: « كما هو الحال في لغاتنا حيث يستنبط المسيحيون اسمهم من اسم المسيح ، فإنّ المسيحيين يدعون في لغة « التلمود » باسم نوتسريم Notsrim أي ناصريون نسبة إلى يسوع النّاصري ـ من مدينة النّاصرة في فلسطين ـ غير أنّ المسيحيين يدعون كذلك بأسماء أخرى يستعملها « التلمود » للدلالة على كلّ من هم غير يهود أيضا[٢]. وبمراجعتنا لقاموس عبري عربي ، وجدنا أنّ كلمة «معمّد» في الديانة المسيحية تعني « مرتدّ » عن الدّين اليهودي »[٣].

أمّا عن مصطلح « المسيحية » فإنّنا لم نجد أثرا لتسمية المسلمين أتباع سيّدنا

---

(١) فضح التلمود: إعداد زهد الفاتح ، دار النفائس، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٨٥ ، ص ٧٦.

(٢) نفس المصدر السّابق: ص ٧٧.

(٣) يقوجان: قاموس عربي ـ عبري ، ص ٥١٣.

عيسى ـ عليه السّلام ـ بهذا الاسم ، أو إطلاق اشتقاقه على الديانة ، بل ثبت تسمية نصارى ونصرانية في جميع كتب الملل والنّحل والعقائد والأديان والرّدود الإسلامية ، وإنّما غلب النصارى المسلمين في العصر الحديث بعد الهيمنة الاستعمارية في تثبيت مصطلح « مسيحية » في أذهان المسلمين بدلا من « نصرانية » ، وفي تثبيت مصطلح « مسيحيين » بدلا عن « نصارى » ؛ ولذلك جذوره التّاريخية التي توضّح بجلاء أنّ بولس هو الذي أراد ربط هذه التّسمية بعقائده وأفكاره الوثنية التي صاغتها مخيّلته[١] ، ومن ذلك ما جاء في العهد الجديد: « ثمّ خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاؤل ، ولمّا وجده جاء به إلى أنطاكية فحدث أنّهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة وعلّما جمعا غفيرا ، ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكيا أوّلا »[٢] .

ولو أردنا التفصيل في الجانب اللّغوي فإنّ كلمة المسيح ليست اسما وإنّما لقبا ، وهي ترجمة للكلمة العبرية « منسيا » ، بمعنى ممسوح بالدّهن أو الزيت المقدّس ، والمرادف في اللّغة اليونانية للممسوح بالدّهن أو الزيت المقدّس هي كلمة: خريستوس Christos التي نحصل منها على كلمة: كرايست Christ الإنجليزية. وقد كان الكهنة والملوك يمسحون حينما يرسمون للخدمة. ويمنح الكتاب المقدّس هذا اللّقب حتّى للملك كورش Cyrus الوثني الفارسي « هكذا يقول الربّ لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما »[٣] ، وذكر إنجيل القدّيس لوقا أنّه « لمّا تمّت ثمانية أيّام ليختنوا الصبي سمّي يسوع كما تسمّى

(١) محمّد عثمان صالح: النصرانية والتنصير ، ص ٢٤.

(٢) أعمال الرّسل: ١١ – ٢٥ / ٢٦.

(٣) إشعيا: ٤٥ / ١.

من الملاك قبل أن حبل به في البطن »[١]. فالاسم الذي أعطي إلى ابن مريم والذي لم يكن قد ولد بعد، كان يسوع وليس المسيح، وإنّما دُعِيَ يسوع « المسيح» فقط بعد معموديته بيد يوحنّا المعمدان « يحيى عليه السّلام »، ولم يكن اليهود بالذين يقبلون إدّعاءه...[٢]. وممّا تجدر ملاحظته:

ـ كيف يمكن استعارة اسم وجعله علما على ديانة تدعي التوحيد والانتماء إلى أصل الرسالات، في حين يستعمل نفس الاسم ويلحق صفة بالملك كورش Cyrus الوثني الفارسي؟.

ـ أنّ هذا الاسم لا يحمل أيّ دلالة عقدية، ولا يدلّ على مضمون ديني أو عبادي، وأنّه لا تتجاوز في أقصى الحالات عملية المباركة التي لم تقتصر بحسب نصوص العهد الجديد على المسيح بل تمتّع بها الملك الوثني؟.

ـ أنّ اليهود أصرّوا على تسمية أتباع سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ بالنّاصريين، ورفضوا تشريفهم بتسمية « المسيحيين » لتضمّنها الانتماء إلى المسيح المنتظر، الذي لم يظهر بعد في نظر اليهود. ولم يُتوصّل إلى حلّ جزئي إلاّ في ظلّ الحركة التجديدية التي حدثت في كلا الديانتين، حيث توصّل إلى نوع من التقارب والتفاهم بينهما، وخاصّة بين الكنائس البروتستانتية وبين اليهودية « المسماة تجديدية أو إصلاحية »، فظهرت بذلك تيّارات تدعو إلى التصالح مع النصارى، ولقبول عيسى « مسيحا » ضمن مسحاء الرب، وأنّه ابن امرأة يهودية، وأنّ ما

---

(١) لوقا: ٢ / ٢١.

(٢) انظر: أحمد ديدات: هل المسيح هو الله، ترجمة محمّد مختار، دار الهدى، الجزائر، طبعة ١ / ١٩٩١ ص٣٤.

قام به يعدّ محاولة تجديدية في اليهودية[١].

كما ذهب « هرمان ريمارس Herman reimarus » أستاذ اللّغات الشرقية في جامعة « همبرج Hambourg » ، إلى أنّ يسوع لا يمكن أن يعدّ مؤسّس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنّه الشخصية النهائيّة الرئيسيّة في جماعة المتصوّفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أنّ المسيح لم يفكّر في إيجاد دين جديد ، بل كان يفكّر في تهيئة النّاس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذي سيحاسب فيه الله الأرواح على ما قدّمت من خير أو شرّ[٢].

ـ إنّ تحقير اليهود للنصارى وازدرائهم ، كان لها دور في رفض تسمية « نصارى » ، وحرصهم إلحاق أنفسهم بصفة أكثر قداسة في تصوّرهم « المسيح »، عوضا عن تسمية هشّة تنسبهم إلى مدينة ، فأبعدهم ذلك عن التشبّث بأصول التّوحيد ووصلهم بتعاليم بولس المستحدثة. وتذهب موسوعة الدّين والأخلاق[٣] إلى أنّ تتبّع أصول المسيحية يحتاج إلى نظرة أبعد من ربطها بشخص المسيح وأعماله ، مع الوضع في الاعتبار أنّ العهد الجديد الذي يعتبر المصدر الأدبي الوحيد لهذه الديانة قد تعرّض للنقد...

أمّا عن التعريف الإسلامي للنصرانية فهو يختلف في جوهره عن باقي التعريفات ، التي اقتصرت على الجانب الشكلي دون المضموني ، بالرّغم من أهمية الجانب الاشتقاقي اللّغوي ؛ لذلك فإنّنا نعتقد: أنّ النّصرانية هي الديانة السماوية

---

(١) انظر : محمّد عثمان صالح: النصرانية والتنصير (بتصرّف).

(٢) وُل ديورانت: مصدر سابق ١١ – ١٢ / ٢٠٣.

(٣) Encyclopaedia of Religion and Ethics – Edinburgh – T& T-CLARK – V3-P582.

التي أنزلت على سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ مكمّلة لرسالة سيّدنا موسى ـ عليه السّلام ـ ومتمّمة لما جاء في التّوراة من تعاليم ، وموجّهة خاصّة إلى بني إسرائيل ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [١]. ولكن دخل هذه الديانة التّحريف كما حُرِّفت اليهودية ، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم المعيار الخالد ، وأثبتته الدراسات النقدية الحديثة لمصادر النصرانية ومعتقداتها. فقد كانت دعوة المسيح ـ عليه السّلام ـ تقوم على أسس التّوحيد والصّلة المباشرة بالله والزّهد والتبشير باليوم الآخر ولها كتاب منزّل من عند الله. وهو ردّ على انحراف بني إسرائيل عن التّوحيد ، وخضوعهم للرّهبان وتعدّد تفسيرات التوراة وخاصّة التلمود ، وكذلك إنكارهم لعالم الرّوح واليوم الآخر بمفهومه القرآني وانصرافهم التام إلى الدّنيا وما لها من صور الفساد المادي والعقدي.

وقد ظهرت على يديه معجزات تأييدا له من عند الله ، تحدّيا لبني إسرائيل:

ـ حملت به العذراء البتول مريم من غير أب ، وذلك لحكمة يعلمها الله جلّت قدرته ، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [٢] ، فيتّضح من ذلك أمران :

أحدهما: أنّ ولادة عيسى ـ عليه السّلام ـ من غير أب تعلن قدرة الله تعالى ، وأنّه سبحانه لا يتقيّد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسبّبات.

الثّاني: أنّ ولادة المسيح ـ عليه السّلام ـ من غير أب إعلان لعالم الرّوح بين قوم

---

(١) سورة الصف : ٦.

(٢) سورة مريم : ٢١.

أنكروها[١].

- نطق السيّد المسيح في المهد لتبرئة أمّه : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[٢].

- يصوِّر من الطّين كهيئة الطّير .

- يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص .

- انباؤه بأشياء غائبة: ما يأكل القوم وما يدّخرون .

- إنزال المائدة : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وقد عارض اليهود دعوته ، التي جاءت مخالفة لتوقّعاتهم ؛ لأنّهم كانوا ينتظرون مخلّصا ، فتصوّروه ملكا يخلّصهم من الذلّ ويجمع شتاتهم ، فجاءهم رجل بسيط يدعو للزهد ، فحاولوا تحقيره وإبعاد النّاس من حوله ، ولمّا انتشر

---

(١) محمّد أبو زهرة: محاضرات في النّصرانية ، طبعة المملكة العربية السعودية ، طبعة ٤ / ١٩٨٤ ص ٢١ (بتصرّف).

(٢) سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٣.

(٣) سورة آل عمران : ٤٩.

خبره وتبعه النّاس وأعيتهم الحيلة ، حملوا الحاكم الرّوماني على أن يصدر الأمر بالقبض عليه ، والحكم عليه بالإعدام صلبا[١]. وهو ما أشرنا إليه في أصل التّسمية ، من أنّ الحاكم الرّوماني بيلاطس ، كتب على قبره عنوانا ووضعه على الصليب ، وكان مكتوبا يسوع النّاصري ، ملك اليهود[٢]. إلاّ أنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ الله تعالى لم يمكّنهم منه بل رفعه إليه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ .... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[٣] ؛ لذلك فإنّ رؤية المسلمين لأصل النصرانية هي:

١ـ أنّ النصرانية دين توحيد مثل باقي الأديان السماوية ، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[٤] ، ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[٥] ، وقريب من هذا ما جاء في العهد الجديد :

ـ فأجابه يسوع أنّ أوّل كلّ الوصايا هي اسمع يا إسرائيل ، الربّ إلهنا ربّ واحد[٦].

ـ بل ينبغي أن أسير اليوم وغدا وما يليه ؛ لأنّه لا يمكن أن يهلك نبي خارجا

---

(١) محمّد أبو زهرة : محاضرات في النّصرانية ص ٢٩.

(٢) يوحنا: ١٩ / ١٩.

(٣) سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨.

(٤) سورة المائدة : ٧٢.

(٥) سورة المائدة : ٧٣.

(٦) مرقس: ١٢ / ٢٩.

عن أورشليم ، يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين[١].

٢ـ أنّ عيسى ابن مريم رسول إلى بني إسرائيل خاصّة : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٢] ، وممّا جاء في العهد الجديد :

ـ فأجاب وقال: لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة[٣].

ـ ولمّا صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان ، قائلين: إنّك دخلت إلى رجال ذوي غلفة وأكلت معهم[٤] ، وفي ذلك دلالة على تمسّك الحواريين بعد عيسى ، بأنّ المسيحية دين لبني إسرائيل خاصّة ، وأنّ ما قام به بولس من إخراج المسيحية إلى غير بني إسرائيل هو تحريف ، ممّا يعني عدم وجود دين قائم بذاته اسمه المسيحية.

٣ـ أنّ طابع النصرانية كان الزّهد والرّضا بالضّيم:

ـ قال له المسيح : إن أردت أن تكون كاملا ، فأذهب وبع أملاكك وأعطي الفقراء ، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتّبعني[٥].

ـ من ضربك على خدّك فأعرض له الآخر أيضا ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا[٦].

---

(١) لوقا: ١٣ / ٣٣ ، ٣٤.

(٢) سورة آل عمران : ٤٨ ، ٤٩.

(٣) متّى: ١٥ / ٢٤.

(٤) أعمال الرّسل: ١٥.

(٥) متّى: ١٩ / ٢١.

(٦) لوقا: ٦ / ٢٩.

٤ ـ أنّ المسيح دعا للصّلة المباشرة بين الله والنّاس.

٥ ـ أنّ ما جاء به المسيح في الإنجيل قريب جدّا ممّا ورد في القرآن، لاعتبار وحدة العقيدة والمصدر والمصير، وأنّ اختفاءه كان مقصودا، لترك المجال واسعا بدون ضابط للتزيّد والوضع.

٦ ـ أنّ النصرانية بعد المسيح اختلفت كليّا عن أصول التّوحيد وإخلاص العبودية لله، بتأثير من تعاليم بولس الوثنية، التي أدخلها ليخرج رسالة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ عن السياق العام الذي تنتمي إليه، وهو ركب النبوّة الذي يعدّ شراكة بين جميع الأنبياء بلا استثناء. ومن الأشياء الغريبة التي دخلت المسيحية بعد حركة الاضطهادات القتل والقسوة التي ظهرت بين المسيحيين أنفسهم، وكذلك بينهم وبين مخالفيهم، وقصّص محاكم التفتيش المروِّعة في الأندلس خير مثال على ذلك. فأين هذا ممّا عرف من تعاليم المسيحية من عدم مقابلة القوّة بالقوّة، ومن التسامح الذي يصل إلى حدّ الرضا بالضّيم[(١)].

٧ ـ أنّ المسيح بشّر بنبوّة محمّد ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[(٢)]. وقد عرض رحمت الله الهندي[(٣)] دليلا على أنّ البشارة الواردة في الكتاب المقدّس المقصود بها هو سيّدنا محمّد ﷺ: « وأمّا إسماعيل فقد

---

(١) أحمد شلبي: المسيحية، مكتبة النّهضة المصرية، طبعة ٣ / ١٩٦٧، مع مزيد من الشروح والإضافات، ص ٥٦ (بتصرّف).

(٢) سورة الصف: ٦.

(٣) إظهار الحق: الرئاسة العامّة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرياض، طبعة ١ / ١٤١٠ هـ ٤/ ١١٣٦.

سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره جدّا ، اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمّة كبيرة »[١] ، أمّا النّسخة التي اعتمدها رحمت الله الهندي فهي التّرجمة العربية لعام ١٨٤٤ ؛ لذلك جاءت تحمل اختلافا كالآتي: « وعلى إسماعيل استجبت لك ، هو ذا أباركه ، وأكثّره جدّا ، فسيلد اثنى عشر رئيسا وأجعله لشعب كبير ».

فلو اتّبعنا طريقة العدد التي يستعملها علماء بني إسرائيل لوجدنا ما يلي:

أوّلا: جدّا جدّا ، تعني: بماد ماد ، وهذه الحروف اثنان وتسعون:

ب م ا د م ا د.

٢ +٤٠+١+ ٤ +٤٠+١+ ٤ = ٩٢.

وحروف كلمة محمّد حسابها كما يلي:

م ح م د.

٤٠+٨+٤٠+٤ = ٩٢.

الثّاني: لشعب كبير ، تعني: لُغوي غدُول .

ل غ و ي غ د و ل.

٣٠+٣+٦ +١٠+ ٣ + ٤ + ٦ +٣٠ = ٩٢.

مصادر النّصرانية:

الكتاب المقدّس عند النصارى هو التّوراة والإنجيل معا ، ويقسّم الكتاب

---

(١) سفر التكوين: ١٧ / ٢٠ ، الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤، أمّا النسخ التي توجد الآن فهي تحمل الاختلاف الموضّح أعلاه، وهي طبعة دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط: Arabic Bible 43 .22-1M-1991

عادة إلى العهد القديم والعهد الجديد. وهناك خلاف بين اليهود والنصارى في عدد أسفار العهد القديم وأسمائها ومضامينها وترتيبها ، كما يوجد خلاف بين كنائس النصارى لا في عدد أسفار العهد الجديد فحسب بل في قيمتها. وكما أوجد اليهود كتابا تفسيريا للتوراة وهو «التلمود» ، فإنّ النصارى قد سلكوا مسلك التأويل لما هو مشترك بينهم وبين اليهود ، وألّفوا النصوص لتأكيد جملة من العقائد والمبادئ قرّروها سلفا ، وأخضعوها لما يخدم ما ذهبوا إليه ، تدعمهم في ذلك قرارات المجامع المسكونية ، ثمّ سلطان الكنيسة بناء على قاعدة عصمة البابا. ويتكوّن العهد الجديد والذي يسمى غالبا «الإنجيل» ، بناء على تسمية الكل بالجزء ، من سبعة وعشرين سفرا ، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

١ـ قسم الأسفار التّاريخية: الأناجيل الأربعة ورسالة أعمال الرّسل ، وسمّيت بذلك لاحتوائها قصصا تاريخيّا ، فهي توثّق لقصّة سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ من ميلاده حتّى صلبه (بحسب معتقد النصارى) ، وعضاته ومعجزاته. وفي أعمال الرّسل قصّة حياة معلّمي المسيحية وخاصّة بولس المؤسّس الفعلي للنصرانية الجديدة.

٢ـ قسم الأسفار التّعليمية: تشمل إحدى وعشرين رسالة توضّح تعاليم النّصرانية ومبادئها وشعائرها وقوانينها ، وهي تمثّل ثلث مادّة العهد الجديد تقريبا ، وتتنوّع محتوياتها ولكنها كلّها مادّة هامّة تجمع بين التعاليم والإرشاد في الحياة والسلوك ، كما تعطي نظرة عن مشاكل الكنيسة الأولى وكيف قوبلت. وقد صُنِّفت الرّسائل على أساس الكتّاب. فهناك ثلاث عشرة رسالة تحمل اسم بولس والرسالة إلى العبرانيين وواحدة كتبها يعقوب واثنتان كتبها بطرس وثلاث كتبها

يوحنا وواحدة كتبها يهوذا. وتقع رسائل بولس بحكم طبيعتها في أربع مجموعات:

ـ الرسالة الأولى والثانية إلى تسالونيكي وهما على الأرجح أبكرها وتهتمان خاصّة بأمر رجوع المسيح.

ـ رسالة إلى أهل رومة وأخرى إلى أهل غلاطية واثنتان إلى أهل كورنثوس تتفق جميعها على تأكيد عام على الإنجيل الذي بشر به بولس.

ـ رسائل الأسر التي يذكر في جميعها أنّه سجين وهي أفسس وكولوسي وفيلبي وإلى فليمون ونرى في هذه الرسائل بعضا من أعمق تعاليمه.

ـ الرسائل الرعوية الأولى والثانية إلى تيموثاوس وأخرى إلى تيطس، وتعنى كلها بالأمور العملية في قيادة الكنيسة والتنظيم.

أمّا الرسائل الأخرى فتصنّف تحت موضوع «رسائل عامّة» وقد وجّهت إلى قرّاء أوسع تحديدا ممّا نرى في تعاليم بولس، ما عدا الرسالة إلى العبرانيين التي تتميّز بصفة خاصّة والرسالة الثانية والرسالة الثالثة اللّتين كتبهما يوحنا لشخص خاص أو لكنيسة، إلاّ أنّه من الصعب التأكيد عن وضع الرسائل العامّة التاريخي الدقيق. فرسالة بطرس الأولى هي أدقها، فهي تذكر النصارى الذين كانوا مهدَّدين بالاضطهاد في خمس مقاطعات محكومة في آسيا الصغرى. والغرض من الرسالة هو تشجيع هؤلاء الذين كانوا يتعذبون من أجل المسيح وأساس هذا التشجيع يجدونه في العذاب الذي لاقاه المسيح نفسه. ورسالة بطرس الثانية أرسلت فيما يُظنّ لحلقة القراء العامة نفسها، فهي تحذّر من هرطقة خاصة تشجع الفساد وتعطي فكرة عن المؤثرات التي هدّدت تعاليم الكنيسة الأولى وسلوكها.

وتعتبر رسائل يوحنا الأولى والثانية والثالثة عموما بين الرسائل الأخيرة في العهد الجديد ، ويعود تاريخها في الأرجح إلى آخر عقد في القرن الأوّل . وقد عاش يوحنا كما يؤرخ النصارى في آسيا الصغرى ؛ ولهذا فخلفية الرسائل هي على الأرجح حياة الكنيسة هناك. وتعتبر رسالة يعقوب رسالة عملية وتهتم بالتشجيع والتحذير ، مع جهلنا التام بظروفها التاريخية من حيث النسبة والكتابة ، إلاّ أنّها تصوّر الأوضاع الأولى للحالة ضمن الكنيسة ، ولربّما تعود إلى حقبة قبل سقوط أورشليم سنة ٧٠ للميلاد ، ويظهر أنّها صدرت من القسم النصراني اليهودي في الكنيسة. أمّا عن رسالة يهوذا فهي وثيقة الصلة برسالة بطرس الثانية ، فتلتقيان في الحديث عن الهرطقة وأحيانا بلغة متشابهة.

رسالة رومة	رسالة بولس إلى تيطس
رسالة كورنثوس الأولى	رسالة بولس إلى فيلمون
رسالة كورنثوس الثانية	رسالة إلى العبرانيين
رسالة غلاطية	رسالة يعقوب
رسالة أفسس	رسالة بطرس الأولى
رسالة فيلبي	رسالة بطرس الثانية
رسالة كولوسي	رسالة يوحنا الأولى
رسالة تسالونيكي الأولى	رسالة يوحنا الثانية
رسالة تسالونيكي الثانية	رسالة يوحنا الثالثة
رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس	رسالة يهوذا
رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس	

٣ـ رؤيا يوحنا اللاّهوتي: وكأنّه أراد أن يظهر بها سلطان المسيح بعد رفعه ،

وصلته الدّائمة بالكنائس. فهم يرون أنّ يوحنا قد كتب هذا السفر زمن الاضطهاد. وحين نُفِيَ إلى جزيرة بطمس (١ : ٩) كان عليه في الأرجح أن يقوم ببعض الأعمال الشاقة في مقالع الحجارة هناك ، وكان بعض النصارى قد قتِل (٢: ١٣) والبعض الآخر سُجِنوا بسبب انتمائهم وكان يخشى من وقوع ما هو أسوأ (٢: ١٠) حيث أصبحت عبادة الإمبراطور الروماني أمرا إجباريا ، وعاش النصارى الأول في شوق لرجوع المسيح ، لكنه شوق لم يتحقّق حتى بعد ستين سنة من رفعه ممّا أثّر في إيمان البعض فداخلهم الشكّ والتردّد ، فكان هذا الكتاب أمرا لازما لتشجيعهم على الثبات ، فالله بيده السلطة مهما يكن من أمر ، والمسيح وليس الإمبراطور هو ربّ التّاريخ ، وبيده مفتاح القدر نفسه ، وهو آت ثانية لإحقاق العدل.

وممّا تجدر ملاحظته ، هو أنّ هذه الأناجيل قد انبنت على المعتقدات التي نشأت بواسطة بولس ، فقد كتب رسائله ما بين سنة ٥٥ للميلاد وسنة ٦٣ للميلاد ، ثمّ بعدها بدأ الإنجيليون كتابة أناجيلهم ، هذا إذا صحّت هذه التواريخ التي اعتبرها «وُل ديورنت» مشكوكا فيها[١]. وإلى جانب ما وضعه بولس وأتباعه توجد أناجيل أخرى منها:

أ ـ إنجيل عيسى ذاته ، والذي ورد ذكره في إنجيل مرقس وفي رسالة بولس إلى أهل روميّة ، وأناجيل أخرى أعدمت بقرار مجمع نيقية ، الذي أقرّ السبع وعشرين سفرا المذكورة ، والتي لم تكن قبل ذلك في عداد الكتب المقدّسة ، كما أنّ هذه الأناجيل ذاتها لم تكن موجودة زمن كتابة الرّسائل ؛ لأنّها لم تذكر شيء من

(١) قصّة الحضارة : ١١ / ١٢ ، ١١ / ١٩٩.

مضمونها أو تشير إليها مجرّد إشارة. ويرى يوسف الخوري أنّ يوحنّا وضع إنجيله بطلب من أساقفة آسيا، لوجود طائفة تنكر ألوهية المسيح، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله «متّى» و «مرقس» و «لوقا»، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدلّ على ذلك الاعتقاد.

ب ـ إنجيل برنابا «خال مرقس». وقد اكتشفت أوّل نسخة منه في مكتبة البابا سكتيس الخامس بروما، ثمّ انتقلت إلى مكتبة البلاط الملكي بفيينا عاصمة النمسا، وهي مكتوبة باللّغة الإيطالية وعليها تعليقات بلغة عربية ركيكة، وقد اتّخذ النصارى ذلك مطعنا للتشكيك في صحّة هذا الإنجيل واعتباره كتابا مزوّرا موضوعا عن النّصارى؛ لذلك لا يعترفون به إطلاقا خاصّة لمضامينه التي تناقِض باقي الأناجيل. ومن محتوياته:

ـ الله هو ربّ العالمين خالق السماوات.

ـ الذبيح من أبناء إبراهيم هو إسماعيل لا إسحاق.

ـ بشّر بسيّدنا محمّد ﷺ.

ـ يعتبر عيسى ـ عليه السّلام ـ نبيّا لا أكثر.

ـ لا يقول بصلب المسيح بل أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى شبهه على يهوذا الأسخريوطي.

ـ يحثّ على الختان.

التراجم العربية للكتاب المقدس:

عُرِفت للكتاب المقدّس ترجمات عديدة، أنجز بعضها بشكل فردي وآخر

بجهد جماعي ، كما وقف وراء بعضها مؤسّسات دينية كنسية. والأغرب من ذلك أنّ أوّل ترجمة عربية متكاملة للإنجيل كانت بتوجيه من الدولة الإسلامية في مصر في القرن السابع للميلاد. ويمكن تقسيم الترجمات إلى ترجمات قديمة وترجمات حديثة ، ومنها:

أ ـ الترجمات القديمة:

ـ عام ٦٣٩: طلب القائد المسلم عمر بن سعد بن أبي وقاص من البطريرك اليعقوبي يوحنا أن يترجم الإنجيل إلى اللّغة العربية.

ـ عام ٧٥٠: ترجم الأسقف يوحنا ، أسقف إشبيلية بالأندلس الكتاب المقدّس.

ـ عام ٨٦٧: ترجمة أعمال الرسل والرسائل كلها ، كانت محفوظة بمكتبة دير سانت كاترين بسيناء ، تحت رقم ١٥١ ، ثم نشرها «هارفي ستال عام ١٩٨٥».

ـ عام ٨٧٠: ترجمة حنين بن إسحاق للكتاب المقدّس عن الترجمة السبعينية اليونانية (مفقودة).

ـ عام ٩٣٠: ترجمة العالم اليهودي سعيد الفيومي لأسفار التوراة الخمسة وإشعيا ، ثم نشرت عام ١٩٨٣.

ـ عام ٩٥٠: نرجمة الحفص بن ألْبَر القوطي للمزامير بأسلوب شعري ، ثم نشرت عام ١٩٩٤ في فرنسا.

ـ الدياطسّرون أي الأناجيل الأربعة محبوكة في إنجيل واحد ، ترجمه عن السريانية أبو الفرج عبد الله بن الطيّب (ت ١٠٤٣) ، ثم طبع بروما علم ١٨٨٨ ،

ثم في بيروت عام ١٩٣٥.

ـ عام ١٢٥٠: ترجمة هبة الله بن العسال للأناجيل بالأسكندرية.

ـ عام ١٢٦٤: ترجمة العهد الجديد برومية، طبعه وليم واطسن عام ١٨٦٦ في لندن لمنفعة الكنائس الشرقية.

ـ عام ١٥١٦: ترجمة المزامير، بمدينة جنوة الإيطالية.

ـ عام ١٥٢٦: ترجمة العهد القديم برومية، طبعه وليم واطسن عام ١٨٦٦ بلندن لمنفعة الكنائس الشرقية.

ـ عام ١٥٧٣: ترجمة رسالة غلاطية، بمدينة هايدلبرغ الألمانية.

ـ عام ١٥٩١: ترجمة الأناجيل برومية.

ـ عام ١٦٢٥: ترجمة العهد الجديد، بمدينة ليدن الهولندية.

ـ عام ١٦٥٤: ترجمة أسفار التوراة الخمسة بباريس.

ـ عام ١٦٥٧: ترجمة أسفار التوراة الخمسة بلندن.

ـ عام ١٦٧١: ترجمة الكتاب المقدس بعهديه مع الكتب المضافة في التوراة السبعينية في رومية، ونشر النص العربي مع النص اللاّتيني. وتكمن أهمية هذه الترجمة في أنها أوّل ترجمة كاملة للكتاب المقدس بالعربية، وعلى مصطلحاتها ارتكزت الترجمات العربية التي صدرت في القرن التاسع عشر، وعرفت بالبروباغندا.

ـ عام ١٧٠٦: ترجمة المزامير في مدينة حلب السورية.

ـ عام ١٧٢٥ : ترجمة جمعية نشر المعارف المسيحية للمزامير بلندن.

ـ عام ١٧٢٧ : ترجمة جمعية نشر المعارف المسيحية للعهد الجديد بلندن.

ـ عام ١٧٣٥ : ترجمة المزامير بمدينة الشوير اللّبنانية.

ـ عام ١٧٥٢ : طبعة روفاييل الطوخي عن القبطية بروما.

ـ عام ١٨١٦ : نشر هنري مارتن للعهد الجديد بمدينة كالكتا الهندية.

ـ عام ١٨٢٢ : نشر الكتاب المقدّس ومن ضمنه العهد الجديد لهنري مارتن في لندن.

ب ـ الترجمات الحديثة:

أوّلا : الكتاب المقدّس بعهديه:

ـ عام ١٨٥٧ : ترجمه فارس الشدياق ووليم واطسن بلندن ، ونشره من جديد الأب إبراهيم شرّوج عام ١٩٨٢ .

ـ عام ١٨٦٥ : ترجمه ببيروت بطرس البستاني والمرسلان الإنجيليان عالي سميث وكرنيليوس فانديك ، وهذّب عباراته الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير. ويعتبر أشهر الترجمات العربية للكتاب المقدّس وأوسعها انتشارا في العالم العربي والعالم.

ـ عام ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨ : ترجمه الأسقف يوسف إقليموس داود بمدينة الموصل العراقية.

ـ عام ١٨٧٦ ـ ١٨٨٠ : الترجمة اليسوعية ببيروت. نقله إلى العربية إبراهيم اليازجي والآباء اليسوعيون أوغسطينوس روده وفيليب كوش وجوزيف فان

هام. وتميّزت هذه الترجمة بمتانة أسلوب إبراهيم اليازجي وبلاغته وبجمال الإخراج والطباعة، واشتهرت بين كاثوليك الشرق.

ـ عام ١٩٨٢-١٩٨٧: طبعت ببيروت الترجمة اليسوعية المنقحة عام ١٨٨١، وعمل عليه الآباء اليسوعيون أنطوان أودو وصبحي حموي ورنيه لافنان.

ـ عام ١٩٨٨: ترجمة تفسيرية لكتاب الحياة.

ـ عام ١٩٩٣: ترجمة جمعية الكتاب المقدّس ببيروت، وعمل على صياغة الأسلوب العربي الشاعر يوسف الخال مع آخرين.

ثانيا: سفر المزامير:

ـ عام ١٩٥٤: ترجمه ببيروت عن الترجمة اليونانية السبعينية رزق الله عرمان.

ـ عام ١٩٦٠: ترجمه ببيروت الأب عفيف عسيران.

ـ عام ١٩٦١: ترجمه بالقاهرة الآباء الدومينيكان.

ـ عام ١٩٨٢: ترجمه بالقدس اللّجنة البطريركية لليتورجيا.

ثالثا: العهد الجديد:

ـ عام ١٩٠٣: نشر بالقدس قراءات العهد الجديد مرتّبة حسب أشهر السنة الطقسية، ونقّحه بالاستناد إلى الترجمة الإنجيلية واليسوعية والشويرية والنص اليوناني وهبة الله صرّوف، ثم نشرته من جديد مطرانية بيروت للروم الأورثوذكس عام ١٩٨٣.

ـ عام ١٩٥٣: ترجمة بيروت المعروفة بالبولسية، قام بها الأب البولسي جورج

فاخوري ، وكان بداية عصر جديد في ترجمات الإنجيل إلى العربية أسلوبا وتبويبا وإخراجا.

ـ عام ١٩٦٩ : ترجمه ببيروت الأب صبحي حموي والأب يوسف قوشاقجي وهذّب عباراته الأستاذ بطرس البستاني ، وأصدرته المطبعة الكاثوليكية.

ـ عام ١٩٧٣ : طبع في بيروت وقد وضعه في القاهرة جون طومسون وبطرس عبد الملك ، وهو تنقيح لترجمة بيروت الإنجيلية (١٨٦٥) ، صدر في نشرات مصوّرة جُمِعت في كتاب واحد وقام بتنقيحها جبرائيل جبور.

ـ عام ١٩٧٨ : ترجمه جمعية الكتاب المقدّس ببيروت ، صاغ أسلوبه الشاعر يوسف الخال. وهو أوّل ترجمة عربية وضعتها لجنة من علماء لاهوتيين تنتمي إلى مختلف الطوائف النصرانية من إنجيلية وكاثوليكية وأورثوذكسية.

ـ عام ١٩٨٢ : ترجمه ببيروت الخوري الماروني يوسف عون ، ونقله عن الترجمة السريانية المعروفة بالفشيطتو.

ـ عام ١٩٨٢ : ترجمة تفسيرية لكتاب الحياة ، عمل عليه جورج حصني وسعيد باز.

ـ عام ١٩٨٧-١٩٩٢ : ترجمه بالكسليك ، لبنان ، الآباء يوحنا قمير وبطرس القزي ويوحنا خوند وروفائيل مطر ، وفي الحواشي شروح إضافية ، وقد صدر بطبعة فاخرة.

ـ عام ١٩٩٣ : ترجمه صبحي مَلك التي سماها الإنجيل الشريف ، وقد وضعه خصيصا للتنصير في شمال إفريقيا.

رابعا : الأناجيل الأربعة:

ـ عام ١٩٣٥ : ترجم بالقاهرة تحت إشراف الكلية الإكليركية للأقباط الأورثوذكس.

ـ عام ١٩٧٨ : ترجمته بالقاهرة لجنة أورثوذكسية مؤلفة من الأنبا غريغوريوس والأستاذ زكي شنودة ومراد كامل وباهور لبيب وحلمي مراد ، وصدرت عن دار المعارف.

ـ عام ١٩٩١ : ترجمه بالقدس أبو الطيّب القدسي وأسماه «الإنجيل: الترجمة القدسيّة للأناجيل السنيّة»[١].

العقائد:

سبق وأن أشرنا إلى أنّ اليهودية والنّصرانية كانتا ديانتا توحيد ، لاعتبارهما تنتميان في أصولهما إلى الخط العام للنبوّة ، وقد دعتا إلى عبادة الله وحده والخضوع لنواميسه والعمل بشريعته ، التي جاء بها الأنبياء جميعا. إلاّ أنّه ولأسباب تاريخية وأخرى ترتبط بالمؤسّس الفعلي للنصرانية ما بعد المسيح ، تمّ الانسلاخ من تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ والاستعاضة عنها بتعاليم جديدة[٢] ، كوّنت دينا جديدا ليس له علاقة بالوحي الإلهي ، ويناقض كلية مبادئ التوحيد جوهر الإيمان الحق.

ـ التثليث La Trinité: وهو جوهر معتقد النصارى في الألوهية ، فطبيعة الله

---

(١) المرشد إلى الكتاب المقدّس: ٧٩ وما بعدها (بتصرّف).

(١) للتوسّع انظر بحثنا: ابن تيمية ورحمت الله الهندي ومنهجهما في دراسة العقائد النصرانية من خلال كتابيهما « الجواب الصحيح » و « إظهار الحق ». نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية.

هي عبارة عن ثلاثة أقانيم: الآب الابن الرّوح القدس. فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن ، وإلى الابن ينتمي الفداء ، وإلى الرّوح القدس ينتمي التطهير. غير أنّ الأقانيم الثلاثة تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء. وبالرّغم من اتّفاق النّصارى على هذه العقيدة إلاّ أنّهم اختلفوا حول مفهومها:

أ ـ الأورثوذكس: يقولون بالتجسّد ، فالله عندهم واحد ولكنّه يمرّ بثلاثة أطوار: قبل نزوله الأرض يسمّى الآب ، وبعد خروجه من بطن أمّه يسمّى الابن ، وبعد صلبه يسمّى روح القدس.

ب ـ الكاثوليك: يقولون بالتعدّد ، فالله عندهم غير الابن والابن غير روح القدس ، ولكنّها وحدة في تثليث وتثليث في وحدة.

ـ الصلب La Crucifixion : يعتقد النصارى أنّ المسيح قد صُلب فداء للخليقة ، وتكفيرا عن خطيئة أبيها آدم الذي ورّثها أبناؤه من بعده.

ـ الدينونة Le Jugement dernier : يعتقدون أنّ المسيح «الله الابن» ، يحاسب النّاس على خطاياهم لاعتباره يجمع بين خاصّيتين اللاّهوتية والنّاسوتية ، وبذلك فهو قادر على محاسبة النّاس.

ـ التّعميد Le Baptême: وهو الانغماس في الماء أو رشّ الشّخص باسم الآب والابن والرّوح القدس ، تعبيرا عن تطهير النّفس من الخطايا والذنوب.

ـ الاعتراف Le Confession: بوح الإنسان بـ ما يقترفه من ذنوب إلى رجل الدّين ، فذلك يسقط عنه العقوبة ، ويطهّره من الذنوب.

ـ العشاء الربّاني Le Sainte Cène: يشترك اليهود والنصارى في نفس تقاليد

ومراسم تناول وجبة عيد الفصح برغم اختلاف دواعي الاحتفال. وكانت تستهل هذا العشاء بصلاة افتتاحية، بركة الكأس الأولى من بين أربعة كؤوس خمر تمرّر على المائدة أثناء الاحتفال، ثم يأخذ كل فرد قليلا من العشب ويغمسه في ماء مالحة[١]. بعد ذلك يأخذ ربّ العائلة أحد أرغفة الفطير الثلاثة فيكسره ويضع قطعة منه جانبا، ثم تخبر قصّة الفصح كردّ على سؤال يطرحه الأصغر سنا بين أفراد العائلة، ويرنّم الحاضرون المزمورين ١١٣ و١١٤، وبعدها تملأ الكأس الثانية[٢] ويشرب منها الجميع. وكان الجميع يشغلون أيديهم قبل العشاء (ويرى النصارى أنّه من المرجّح أن يسوع غسل أرجل تلاميذه في هذه الفترة) [٣]، وتتلى صلاة الشكر ويكسر الخبز، ثمّ توزّع أعشاب مرّة بعد غمسها بالصلصة (هنا أعطى المسيح اللّقمة ليهوذا كما حكى إنجيل يوحنا ذلك)[٤]. بعد ذلك يصل الاحتفال ذروته عند البدء بأكل الحمل المشوي، محور عشاء الفصح.

ويرى النصارى أنّ بعد العشاء أسّس المسيح «العشاء الرباني»، فكسّر الخبز الذي سبق ووضع جانبا، ثمّ مرّر كأس الخمر الثالثة «كأس البركة». وكان الاحتفال بالفصح ينتهي عادة بترنيم المزامير ١١٥ ـ ١١٨ والمزمور ١٣٦، والتي تدعى «هلّل» أو «هللويا»، ثم يشرب كأس الخمر الأخير؛ لذلك يعظّم النصارى هذه المناسبة، فليس ما يعبّر عن أهمية العشاء الرباني عندهم أكثر من

(١) متى: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) لوقا: ١٧ ـ ٢٢.

(٣) يوحنا: ١٣ ـ ٤/ ١٢.

(٤) يوحنا: ١٣ ـ ٢٦.

وجوده في قلب عشاء الفصح. فالمسيح عندهم كحمل الفصح المذبوح لأجل خلاص شعبه ، والخمر يشير إلى موته وإلى العهد الجديد الذي نتج عن هذا «الموت» (وهذا مخالف لمعتقد المسلمين في المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام) بمصالحة الإنسان مع الله ؛ لذلك أرادوا للعشاء الرباني أن يبقى تذكارا حتى موعد رجوع المسيح ثانية[١].

ـ الاستحالة: يعتقد النصارى أنّ من أكل الخبز وشرب الخمر في يوم الفصح استحال فيه ، وأصبح كأنّه أدخل في جوفه لحم المسيح ودمه ، وأنّه بذلك امتزج بتعاليم المسيح.

الأعياد والمناسبات النصرانية:

يشترك اليهود والنصارى في كثير من الأعياد والاحتفالات الدينية ، إلاّ أنّ مقاصد الاحتفال وطريقته ومغزاه تختلف كلية في بعض الأحيان. ومن تلك الأعياد:

ـ مقدّمات عيد الميلاد (Avent): وتمتدّ على أربعة أسابيع تسبق عيد الميلاد النصراني وتهيئ له.

ـ عيد ميلاد المسيح (Noël): يحتفل فيه بذكرى ولادة المسيح ـ عليه السلام ـ في يوم ٢٥ من شهر ديسمبر من كل سنة بحسب التقويم النصارى.

ـ عيد الظهور (Epiphanie): ويعرف كذلك بعيد الغطاس ، وهو عيد يحتفل به أوّل يوم أحد من شهر يناير لإحياء ذكرى ظهور المسيح وتوجّهه إلى نهر الأردن

(١) انظر: المرشد إلى الكتاب المقدّس، ص ٤٩٢ وما بعدها.

حيث تمّ تعميده على يد يوحنا المعمدان.

ـ الصوم الكبير وأسابيع الآلام (Carême et Passion): تشترك في هذه الشعيرة كلّ الطوائف النصرانية ، وتمتدّ فترة الصيام ٤٦ يوما تنتهي بعيد الفصح.

ـ عيد الفصح (Pâques): وقد اشتهر بين النصارى بعيد القيامة ، حدّده مجمع نيقية Nicée سنة ٣٢٥ للميلاد ، ويحتفل به يوم الأحد الذي يلي تمام بدر الربيع من كل سنة لتخليد ذكرى قيامة المسيح. وهو غير عيد الفصح اليهودي (Pâque) ، الذي يخلّدون فيه ذكرى خروج العبرانيين من مصر ، وملكهم حريتهم وإعلان الخلاص.

ـ عيد الصعود (Ascension) : ويعرف بعيد خميس الصعود ، ويحتفل فيه بذكرى صعود المسيح إلى السماء بعد أربعين يوما من عيد الفصح.

ـ عيد العنصرة (Pentecôte) : عيد نصراني يحتفل به الأحد السابع ما بعد عيد الفصح تخليدا لنزول الروح القدس على الرسل. وهو بخلاف الذي عند اليهود الذي يحتفلون به الأسبوع السابع بعد ثاني أيام الفصح تخليدا لذكرى ألواح الشريعة التي أُلقيت إلى موسى ـ عليه السلام ـ كما يعرف عندهم بعيد الحصاد.

المجامع النصرانية:

وبمرور الزّمن تبيّن للنصارى أنّه لا بدّ من سلطة عليا يُرجع إليها عند تقرير جملة من القضايا المصيرية ، خاصّة وأنّ الأناجيل المتداولة هي محلّ خلاف ولا تفي بالغرض المطلوب ، هذا إلى جانب ظهور توجّهات جديدة داخل الكنيسة وبين رجال الدّين ، تريد التخفيف عن منتسبيها ورفع الحرج عنهم خاصّة في ما

يتعلّق بتحديد الكتب الشرعية وغفران السيّئة، وعصمة البابا... ؛ لذلك تمّ إقرار مبدأ عقد المجامع بنوعيها المحلي والمسكوني. وبذلك فهي مجالس شورية تنظر في جملة قضايا تاريخية بحاجة إلى الحسم، وأخرى طارئة. وقد عقد أوّل مجمع بأورشليم (القدس)، أي بعد المسيح باثنين وعشرين سنة، قرّروا فيه عدم التمسّك بمسألة الختان وأغلب شرائع التوراة، وأسفار العهد القديم، إلاّ الزنا، وأكل المخنوق، وأكل الدم وأكل ذبائح الأوثان.

ويعترف الكاثوليك بعشرين مجمعا مسكونيا، عقدت في أزمنة مختلفة، وهي: نيقية Nicée ٣٢٥ ـ القسطنطينية الأوّل Constantinople ٣٨١ ـ أفسس Ephèse ٤٣١ ـ خلقيدونية ٤٥١ ـ القسطنطينية الثّاني ٥٥٣ ـ القسطنطينية الثّالث ٦٨٠ ـ نيقية الثّاني ٧٨٧ ـ القسطنطينية الرّابع ٨٦٩ ـ لاتيران الأوّل ١١٢٣ ـ لاتيران الثّاني ١١٣٩ ـ لاتيران الثّالث ١١٧٩ ـ لاتيران الرّابع ١٢١٥ ـ ليون الأوّل Lyon I ١٢٤٣ ـ ليون الثّاني ١٢٧٤ ـ فيينا ١٣١١ ـ كونستانس ١٤١٤ ـ بازل ١٤٣١، لاتيران الخامس ١٥٢٢ ـ ترنت Trente ١٥٤٥ ـ الفاتيكان Vatican ١٨٦٩. ولا يعترف الأورثوذكس إلاّ بقرارات المجامع السبعة الأولى. وقد اجتمع المجمع الأخير عام ١٩٦٢ بالفاتيكان[١]. ومن بعض قراراتها:

ـ مجمع نيقية ٣٢٥: قرّروا فيه أنّ المسيح إله. وهو ردّ على دعوة الوحدانية التي تزعّمها آريوس. ويعتبر هذا المجمع أهمّ المجامع المسكونية، لاعتبار القرارات الهامّة التي أصدرها، وقد حضره من الآباء ٢٠٤٨، إلاّ أنّ شدّة الخلاف حول أصل القضية دعت الإمبراطور قسطنطين إلى رفع جلساته، ثمّ أعيد عقده

(١) الموسوعة العربية الميسّرة: ص ١٦٢٥.

بحضور ٣٨٠ فقط من مؤيّدي رأي بولس ، وفي نفس المجمع تمّ تحديد الكتب المقدّسة المعترف بها الآن ، وأتلف عدد كبير يتعارض مع قرارت المجمع.

ـ مجمع القسطنطينية الأوّل سنة ٣٨١: قرّروا فيه أنّ روح القدس إله.

ـ مجمع أفسس الأوّل سنة ٤٣١: قرّروا فيه أنّ للمسيح طبيعتين: لاهوتية وناسوتية.

ـ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١: قرّروا فيه أنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين.

ـ مجمع روما سنة ٨٦٩: قرّروا فيه أنّ الرّوح القدس من الآب والابن. في حين قرّر مجمع القسطنطينية الرّابع سنة ٨٦٩ أنّ الرّوح القدس من الآب فقط. وبسبب هذين المجمعين الأخيرين تمّ انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية.

ـ مجمع روما سنة ١٨٦٩: أثبتوا فيه عصمة البابا.

ـ مجمع جاكرتا الإقليمي سنة ١٩٦٧: وقّعت فيه كلّ الطوائف ميثاقا لمواجهة المسلمين بكلمة واحدة في الاجتماعات والمحافل الدّولية.

الفرق النصرانية:

كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين ، ثمّ حدث الاختلاف في تلاميذهم ، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾[1]. وعليه فقد انحل الاختلاف بين النصارى إلى ثلاثة مذاهب: الملكانية (وتسمى الجاثُليقية) واليعقوبية والنسطورية ، وانشعبت من هذه الفرق عدّة فرق ذكرها الشهرستاني ، ومنها الأليانة والبليارسية والمقدانوسية والسبالية

(١) سورة النساء : ١٧١.

والبوطينوسية والبولية ، إلى فرق أخرى ، منها فرقة كانت في العرب تسمى الرّكوسية ، ورد ذكرها في الحديث: « أنّ النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم: إنّك رَكُوسي ». قال أهل اللّغة:هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئة. وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية (البروتستان) أتباع «لوثر». وأشهر الفرق اليوم هي الملكانية (كاثوليك) ، واليعقوبية (أورثوذكس) ، والاعتراضية (بروتستان)[١].

الملكانية:

من الفرق النصرانية القديمة التي أيّد أنصارها قرارات قسطنطين في مجمع نيقية الأوّل عام ٣٢٥ للميلاد ، ويرجعها بعض الباحثين إلى المجموعة التي أيّدت قرارات مجمع خلقدونية عام ٤٥١م ، ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية القائلة بأنّ للمسيح طبيعة واحدة. وكِلا القولين مؤداه أن هذه الفرقة تابعت القول الذي نصره الملوك فنسبوا إلى ذلك. فالكلمة وهي أقنوم العلم اتّحدت بجسد المسيح وتلبّست بناسوته ومازجته ممازجة الخمر للّبن أو الماء للّبن. فيرون أن الجوهر غير الأقانيم كما في الموصوف والصفة مصرّحين بالتثليث قائلين بأن كلاً من الأب والابن وروح القدس إله ؛ ولذلك فإنّ المسيح قديم أزلي من قديم أزلي ، وأن

---

(١) محمّد الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج٨/ م١٦، ص١٠٦. وحول تكاثر وتشقّق الجماعات النصرانية انظر نقولا زيادة: المسيحية والعرب، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، طبعة ١/ ٢٠٠٠، ص ١٣٥ وما بعدها. وقد أشار إلى ذلك بقوله: «الخلافات العقائدية والانشقاقات التي كانت تعصف بالكنيسة لم تكن تنتهي عند قرار مجمع أو اتفاق يوقّعه أساقفة في مجلس إقليمي. ذلك أنّ كل واحد من أصحاب الآراء كان يرى أنّه هو وحده على حق وأنّ الآخرين على خطأ. وإذا أصدر مجلس أو مجمع قرارا بأنّ الفئة الفلانية هي من أهل البدع أصبح أعضاؤها في نظر الخصوم لا تجوز معاشرتهم. فضلا عن ذلك فقد كان القوم يلجؤون إلى قتال أحيانا، وهذا كان يزيد الطين بِلّة...ومع أنّ قانون الإيمان النيقاوي ثبت نهائيا في سنة ٣٨١ فقد ظلّ البعض يعتبر بعض ما فيه بقية بدعة وضلالة ؛ لذلك فإن الخلافات استمرّت على ما كانت عليه.

مريم ولدت إلهاً أزلياً ، فيطلقون الأبوة والبنوة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة. وبالنتيجة فإنّ القتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت معاً. وقد انتشرت طائفتهم في سوريا ومصر والأردن وفلسطين ويتكلم معظمهم العربية.

النسطورية:

فرقة نشأت في عهد المأمون العباسي ، ينسبون إلى نسطور الحكيم بطريرك القسطنطينية. وذكر الشهرستاني أنه تصرف في الأناجيل بحكم رأيه وقال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة هي: الوجود والعلم والحياة ، وإن هذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو ، وأن الكلمة اتحدت بالجسد لا على سبيل الامتزاج كما قالت الملكانية ، ولا على طريق الظهور كما قالت اليعقوبية ، لكن كإشراقة الشمس في كوة على بلورة ، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. وقالوا : إن مريم لم تلد إلهاً وإنما ولدت إنساناً ، وأن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله ، واللاهوت والناسوت عندهم جوهران أقنومان وإنما اتحدا في المشيئة. ويخالفون في القتل والصلب مذهب الملكانية واليعقوبية جميعاً ، فيرون أنّ القتل والصلب وقعا على المسيح من جهة ناسوته ، لا من جهة لاهوته ، لأن الإله لا تحله الآلام. وعندما اعترض نسطور الحكيم على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله ، وقد كان بطريركاً بالقسطنطينية ، اجتمع مجمع البطاركة وردّوا قوله ولعنوه ، وقرروا أن مريم ولدت إلهاً هو يسوع المسيح. وقد انتشرت هذه الفرقة بين نصارى المشرق خاصّة العراق وفارس.

اليعقوبية:

يرى ابن العميد في تاريخه أنهم أتباع ديسقرس بطريرك الأسكندرية ، وإنما

سموا بذلك ؛ لأن اسمه كان يعقوب. وينسبهم غيره إلى يعقوب البرادعي تلميذ سويسرس بطريرك أنطاكية وكان راهباً بالقسطنطينية ، فكان يطوف في البلاد ويدعو إلى مذهب ديسقرس. ويتلخّص مذهبهم في القول بأن المسيح هو الله ، وقالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا : إن الكلمة انقلبت لحماً ودماً ، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده ، بل هو هو. فهم يقولون باتحاد الله بالإنسان في طبيعة واحدة هي المسيح ، فالله باعتقادهم هو المسيح ، الذي صلب وقتل ، وبقي العالم ثلاثة أيام بلا مدبر. ومنهم من يقول ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة ، بل صار هو هو كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان وظهر الشيطان بصورة حيوان. ويرى أغلبهم أن المسيح جوهر واحد من جوهرين. وقد عاش اليعاقبة في مصر والسودان والنوبة والحبشة.

الكاثوليكية:

فرقة ظهرت نتيجة لخلاف النصارى في طبيعة الروح القدس. ففي حين قرّر مجمع روما سنة ٨٦٩ أنّ روح القدس منبثقا من الآب والابن ، ذهب مجمع القسطنطينية الرّابع سنة ٨٦٩ إلى أنّ روح القدس من الآب فقط. وبذلك انقسمت الكنيسة إلى كنيسة غربية وكنيسة شرقية. ومن عقائدهم:

ـ مريم العذراء: بريئة من الشهوة ومن الخطيئة الأصلية وأي خطيئة أخرى. وقد أعلن مجمع الثلاثين ١٥٤٥ ــ ١٥٦٣ براءتها الكاملة ، وطهارتها التامة؛ ووضَعَها فوق كل القديسين ، وكرّس حقها في نوع من التعبّد الخاص. وقد

أُدخلت عقيدة الحبل بلا دنَس ، التي تبرئ مريم من الخطيئة الأصلية في العام ١٨٥٤.

ـ الملائكة : خُلقوا قبل البشر ، وهم كائنات روحانية ، لهم مراتب وتصنيفات أهمّها: السيرافيون ثم القروبيون ، ثم العروش.

ـ الأسرار الإلهية: مبدأ محوري في النصرانية الكاثوليكية ؛ لذلك يلتجئ رجال الدين إلى ما هو سرّ ، وكامن مقدّس ، وتقديمه كمعتقدات فوق العقل وخارجه[1]. قد يقال أحياناً : إنها ليست ضده ولا نقيضاً له؛ هي فقط من نطاق خاص أو لها منطق خاص بها قد لا يفهمه البعض. وتُقِر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، منذ القرن الثاني عشر للميلاد ومع مجمع الثلاثين سبعة أسرارٍ كنَسية هي: المعمودية ، التثبيت ، القربان المقدّس ، التوبة ، المسحة الأخيرة ، الكهنوت ، الزيجة.

أ ـ المعمودية: هي السر الكنَسي الذي يعيد بالماء والكلام الحياة التي أماتتها الخطيئة. فتُزيل الذنوب والعقوبات التي تترتب عنها. وهي واحدةٌ لا تتكرر ،

(١) ومن ذلك قانون الأمانة الذي يجب أن يقبله النصراني من دون نقاش أو إعمال للعقل. ونَصُّه : « أومن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضاً سيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن المسجود له، وممجد ناطق في الأنبياء، كنيسة واحدة جامعة رسولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وابن جاء لقيامة الموتى، وحياة الدهر العتيد كونه آمين". أحمد تقي الدين ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: ٣/ ٢٢٨.

ويجب أن تتمّ قبل أي سر آخر. ويُصرَف ماؤها على الأرض الزراعية النظيفة. ويقوم بطقوسها أُسقف أو أي كاهنٍ مجاز.

ب ـ التثبيت: يُقصد به تعزيز الحياة الروحية في المعمَّد، وأن يُقَوي النفس على إتمام ما بدأ به السر الأول، وأن يَستنزل مواهب الروح القدُس على ذلك المعمّد. ويتم التثبيت للطفل بعد بلوغ العاشرة، في حفلة خاصة على يد أُسقف المدينة. فيَدهن الجبهة بدهن الميرون (مزيج من البلسم وزيت الزيتون سبقت مباركته في يوم الخميس السابق لعيد الفصح) ويرسم صليباً عليها قائلاً: « أَسِمُك بوسم الصليب، وأُثبّتك بميرون الخلاص باسم الأب والابن والروح القدس »، ثم يضربه على وجهه صفعةً لطيفة خفيفة، تذكيراً بما قد يعترض المثبَّت من أجل محبة المسيح، ثم يمنح الأسقف تبريكاً للعموم.

جـ ـ القربان: هو سرّ أسرار أو سرّ الافخارستيا. يحتوي جوهريا وفعلياً روح المسيح وألوهيته داخل الخبز والخمر، وبه يُدخِل المسيح ذاته إلى جسد المتناوِل تحت أعراض الخبز والخمر. والقربان يغذي الروح كما أن الخبز العادي يغذي الجسد. وواجبٌ على الكاثوليكي تناول القربان على الأقل مرة في السنة في موسم عيد الفصح أو إذا كان في خطر الموت. وأنّ ذلك مشروط بالتوبة والصوم عن الطعام والكحول ـ قبل ثلاث ساعات ـ إلا في حالة المرض.

د ـ التوبة: هو سرّ اعتراف الخاطئ أمام الكاهن وفي خلوة. فيُحظى المعترف بالغفران والحلة من مرتكباته تلك، بعد أن يفي بالمفروض عليه من الكاهن بشكل تعويضٍ من مثل الصدقات والإماتات الجسدية والأصوام. تعطي الكنيسة الكاثوليكية أهمية كبيرة لسر التوبة، فهو والمعمودية يعتبران الطريقين

الوحيدين للخلاص. ويرون أنّ المسيح هو الذي أعطى لتلاميذه سلطة الحل ، وممّا ينسب له قوله لبطرس: « ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وما تحله يكون محلولاً » ، وكذلك: « من غفرتم خطاياهم غُفرت ».

هـ ـ المسحة الأخيرة: سُميت بذلك لأنها الأخيرة التي ينالها المتدّين. تعطى للمحتضر أو عند خطر الموت ، تعزية للنفس وتعزيزاً للبدن. وصفتها أن المعني بذلك يكون في غرفة نظيفة وعلى سرير مغطى بخوان أبيض ، وبالقرب من طاولة عليها عدة أشياء ، يعترف أمام الكاهن الذي يزوِّده بعدئذ بالزاد الروحاني «القربان» ، ويَمسح بزيت الزيتون (زيت خالص ، بلا بلسم ولا خمر ، مبارك من الأسقف في يوم الخميس المقدس) مناطق حواسه الخمس مع تلاوة تعاويذ خاصة ، ثم يمنحه غفراناً بابوياً كاملاً.

و ـ الكهنوت: سر به تمنح السلطة الكهنوتية إلى من يستحق ذلك ممّن توفّرت فيه شروط معيّنة كي يقوم بخدمةٍ روحية للكنيسة. ويستمر ذلك النقل للسلطة إلى حين عودة المسيح في آخر الزمان. وتتمّ الرَّسامة بوضع اليد على رأس المرسوم مع تلاوة مخصّصة ، وشرط ذلك أن يكون مولوداً من زواج كاثوليكي ، غير مرتبط بزواج ، راشداً ، حائزاً على الثقافة المطلوبة ، ناذراً النفس للتَبتُّل والفقر والطاعة على مدى العمر.

ز ـ الزيجة: سرّ يربط بين معمدين بالغين لمدى الحياة بزواج شرعي ، وينالان به نعمة مزاولة الواجبات العائلية ؛ لذلك فإنّ الكنيسة الكاثوليكية لا تقرّ الطلاق ولا تمضيه . ويتم الزواج بحضور الكاهن في احتفال يسمى «الإكليل» ، ويخضع لجملة شعائر ، ثمّ يبارك الزواج.

الأورثوذكسية:

ترى الكنيسة الأورثوذكسية أنها المحافظة الأمينة على اللاهوت منذ قرون طويلة ، فهي واحدة غير منقسمة ، ولم تضف أو تحذف أي معتقد ، متمسكة بالتعاليم الصافية القديمة التي ورثتها عن الحواريين والآباء الأول. كما تشكو من ظلم الغرب الكاثوليكي لها ، ومن جهله بتعاليمها ، ونفوره أو كرهه لها. ولربّما كان ذلك بسبب رفض الإضافة أو الإلغاء داخل المعتقد العام ، فهي لا تقر بتعديل العقيدة المركزية «الثالوث المقدس» ، من قبل الغرب الكاثوليكي. كما لا تؤمن الأرثوذكسية بعقيدة الحبل بلا دنس التي أدخلتها الكاثوليكية حديثا ، مخالفة بذلك العقيدة التي تحدَّدت بموجب المجامع المسكونية. ولا تعترف بأسسٍ دينية أو بنصوصٍ مقدسة تثبت الإيمان بالمَطْهر (وحتى بالجحيم). كما لا تعترف بسلطة البابا وعصمته ، إذ العصمة للكنيسة كلها. وممّا تختلف فيه الكنيستان: شكل إشارة الصليب ، فهو عند الأورثوذكس بثلاثة أصابع ومن اليمين إلى الشمال ، وسر الاعتراف والمعمودية ، والزواج إذ يسمح أحياناً بالطلاق ، وفي الصوم والأعياد وبعض الاحتفالات الدينية ، وكذلك في الأزياء والرتب الكهنوتية والمناصب ، وتنظيم الرهبنات والأديرة. أما بنية الكنيسة أو تقسيماتها ، وخدمها ، فهي عند الأرثوذكسية تخلو من المقاعد ومن الآلات الموسيقية.

البروتستانتية:

هي حركة تصحيح وإصلاح ديني ، ولكنها بنظر كنيسة روما وفي أعين الكاثوليكية التاريخية حركة رفض وتمرد ، لذلك يشعر البروتستانتي الاحتجاجي بأنّه منبوذ في بلده ، وأنّ فرنسا مثلا ـ وهي الأكثر وفاء للكنيسة البابوية ـ

اضطهدت وطردت أفضل أبنائها بسبب معتقدهم. فكانت الهيمنة وبعض المسائل الأخلاقية المحيطة بسمعة رجال الكهنوت والبابوات، إلى جانب الامتيازات والثروات المشبوهة... سببا في إظهار الخلاف الذي يجد جذوره في رفض قطاع كبير من اللاّهوتيين لجملة عقائد أملتها الكنيسة وأضفت عليها صبغة القداسة. وليست الحركة البروتستانتية واحدة، بل هي متعدّدة، منها: الكنائس الويسلية، نسبة إلى Wesley (ت ١٧٩١)، والمنتشرة في إنجلترا والمنتقلة إلى أميركا في ١٧٨٤، والمعروفة باسم الكنيسة الحرة، إلى جانب الكنيسة الفالدوية أو الفودوازية Vaudoise في مدينة ليون Lyon الفرنسية، نسبة إلى بيار فالدو Pierre Valdo، بقضاء «فُود Vaud»، والكنيسة الفرنسية المصلّحة (المستصلحة) التي تجمع في أحضانها منذ ١٩٣٨ الكنائس الكالفينية والإسكوتلندية، والكنيسة الحرة. وكذلك الكنيسة اللوثرية، والكنيسة الإنجليكانية التي تعود إلى القرن السادس عشر، مع الملك هنري الثامن الذي أعلن عام ١٥٣٤، إبطال سلطة أسقف روما في إنجلترا، معتبرا أنّ الملك وحده بعد المسيح رئيس الكنيسة.

ومنها الكنيسة المعمدانية التي لا ترى وجوب تعميد المولد، وتدعو أتباعها إلى إعادة تعميد الراشدين، عن طريق التغطيس لا السكب، ولا تقيم فرقاً بين راعي الكنيسة والمؤمن، وتجعل الكنيسة السبتية Adventiste، يوم السبت يوم الراحة الأسبوعي، إذ إن الله بحسب معتقدها قدّس اليوم السابع من الأسبوع وليس يوم الأحد. تنظر المسيح الذي تتوقع مجيئه الثاني من خلال إشارات تسقطها على الوقائع، كما ترفض تعميد الصغار، وتكرّس العبادة لله وحده، ولا تقرّ إلاّ

بسلطة الكتاب المقدس دون غيره. وقد ولدت هذه الكنيسة في أميركا ومعترف بها منذ عام ١٨٦٠ ، ومركزها العالمي في واشنطن. وفي عام ١٨٢٩ نشأت في دبلين ومن داخل الكنيسة الإنجليكانية ، الكنيسة الدربية Darbyste أو كنيسة الأخوة ، نسبة لدربي Darby. وتنصب جهودهم على قراءة الأسفار المقدسة ، والنبوءات التوراتية حول نهاية العالم. وتنتسب للتيار الاحتجاجي كنيسة الكويكرز Quakers ، أو الجمعية المسيحية للأصدقاء ، لمؤسسها جورج فوكس Fox الذي نال لقب كويكر ، والذي يعني المرتجف. يرفضون كل قَسَم ، ولا يحيون أحداً ، ويتصفون بالزهد ، ويشجبون الغناء والرقص ، والألعاب والتدخين ، ويرفضون حمل السلاح ، ويتصفون بحسن الأخلاق ومحمودية السيرة. ومن خُلقهم الاعتناء بالمحرومين وبكل عرق أو لون ؛ لذلك تميّزوا بنظرتهم الخاصّة إلى الهنود الحمر ، السكان الأصليين ، وإلى السود[1].

المارونية:

يعتبر دير مار مارون أكبر مدرسة قامت بمنطقة أفامية ، ترتادها المارونية التي استقرّت بسهول حمص وحماة ، ثمّ عرفت انتشارا في مرتفعات لبنان ، وامتدادا من كورش ومنبج شمالا حتى الجبال جنوبا ، ومن شواطئ المتوسّط وجبال الأمانوس غربا حتى دمش والبادية شرقا. وقد جمعت بينهم اللّغة السريانية ثمّ تبنيهم ما بعد عام ٤٥١ للعقيدة الخلقيدونية القائلة بالطبيعتين ، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع استفحال الخلاف بينهم.

---

(١) انظر : سلوى بالحاج صالح العايب: المسيحية العربية وتطوّراتها، دار الطليعة، بيروت، طبعة ٢ / ١٩٩٨، ص١٦٥ وما بعدها.

وقد ظلّ الكرسي البطريركي الأنطاكي شاغرا لمدّة طويلة بعد الفتح الإسلامي لاعتبار العداء المستحكم بين المسلمين والروم، خاصّة وأنّ الكرسي يجب أن يشغله يوناني؛ لذلك عندما عيّن القصر ما بين ٦٤٥ و٧٠٢ بطاركة اسميين لأنطاكية لم يدخلوا المدينة أو البلاد قط. وأمام وجود مشكلة شرعية وقانونية تتمثّل في وجوب انتخاب البطريرك على يد أساقفة البطريركية ومطارنتها بالأكثرية، بادر الموارنة سنة ٦٨٥ وانتخبوا «مار يوحنا مارون» أحد رهبان مار مارون أوّل بطريرك ماروني، وعندها ظهر للمارونية كنيسة مستقلّة لها بطريرك[1].

والسؤال الملحّ الذي بقي عالقا، هو: هل يمكن أن يحدث أي تقارب بين هذه الاتّجاهات الدينية النصرانية؟. لقد سعى البابا السابق «يوحنا بولس الثاني Jean Paul II» إلى تحقيق ذلك بكلّ قوّة. فقد تقرّب أكثر من الكنيسة البروتستانتية اللّوثرية، في حين أنّ العلاقة مع الكنيسة الأورثوذكسية تسوء يوما بعد يوم، خاصة في روسيا. فتجربة أربعين سنة باتت على حافة الانهيار، وهو ما أعطى صورة سيئة عن النصرانية.

أزمة الكنيسة المعاصرة:

تمتدّ أزمة الكنيسة على قرون عديدة، فهي ليست وليدة صراع حادث بينها وبين «الهراطقة» كما تسمّيهم. وبذلك يتّضح أنّ الجدل بين «الإيمان الكنسي» و«التيار التنويري العلمي» يرتبط بأزمة فلسفية في بنية العقيدة، استحال معها تحديد ملامح هوية الخطاب المعرفي الديني النصراني، ممّا ولّد بينهما أزمة ثقة

(١) انظر نقولا زيادة: المسيحية والعرب، ص ٢٠٢ وما بعدها (بتصرّف).

وأجّج نار الصراع ، الذي انتهى بنشأة العلمانية كفكرة بديلة تفرّق بين الانتماء للدّين وتوظيفة في الحياة ، منادية بأحقية الإنسان في التديّن بما أراد ، وفي الوقت ذاته داعية لوضع حدّ لتدخّل الدين في السلطة السياسية الزمنية. وقد احتدم هذا الصراع في أواخر القرون الوسطى وبداية عصر النّهضة ، بسبب الاكتشافات العلمية الجديدة برغم تواضعها ، ووصل التناقض ذروته عندما حرّمت الكنيسة الكاثوليكية أيّ أفكار تتعلّق ببنية الكون تعارض الفكر الآرسطي (٣٨٤ – ٣٢٢ ق م) القائم على فرضية أنّ الكون ثابت ، والأرض تشكّل مركزه ، وتدور حولها الشمس وبقية الكواكب والنجوم ، مشكلة ثماني طبقات. وقد وصل الأمر حدّ التحريم ووصم من يقترف إثم ذلك بالهرطقة والكفر ، ومن ثمّ الحكم بقتله حرقا أوشنقا. ممّا أجبر بعض العلماء كالفلكي ورجل الدّين البولندي الأصل وزعيم الانقلاب المعرفي «نيكولا كوبارنيك NICOLAS COPERNIC ١٤٧٣ ـ ١٥٤٣» ، وكذا الفيزيائي الفلكي والكاتب الإيطالي الأصل «قاليلي قاليليو GALILEE GALILEO١٥٦٤ ـ ١٦٤٢» ، على طباعة كتبهم سرّا وتحت أسماء مستعارة ، خاصّة «كوبرنيك» لحساسية موقعه الديني والسياسي ، لاعتبار أنّ رجال الدّين من الطبقة المقرّبة سياسيا ، وإليها يرجع أمر تزكية السلطان ، وقد أحرق حيًّا الفيلسوف المتديّن الإيطالي الأصل «برينو جيوردانو BRUNO GIORDANO ١٥٤٨ ـ ١٦٠٠» لرفضه فكرة أنّ الأرض تشكّل مركز الكون.

وفي مقابل هذا المنع القاطع ، والجبر المطلق بتبني مقولات الكنيسة ، كان العلماء في العالم الإسلامي ، يتمتّعون بحرية مُطلقة في دراستهم لبنية الكون ، فهم

ينطلقون من قناعة الكشف عن سنن الله في الكون والتعرّف على قوانينه المخفية ، وليس في نيّتهم تحدّي الله في مُلكه ، كالخوارزمي وابن الهيثم ، وعمر الخيّام ...ممّا دلّ على أنّه لا توجد أزمة أو قطيعة معرفية في بنية الخطاب الإسلامي ؛ لذلك فإنّ المقارنة بين الواقع الإسلامي وبين الحالة الغربية مقارنة مغلوطة ، لعدم تشابه الحالتين وتمتّع كلّ منهما بخصائص مميّزة. فإن كانت الكنيسة قد حجرت على العقل أن يتحرّك ، فإنّ القرآن قد وجّه النّاس إلى تنشيط الذاكرة وتفعيل العقل وجعل ذلك عبادة ، وقد تفطّن إلى ذلك اللاّهوتي الإيطالي « توماس الأكويني THOMAS D'AQUIN ١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ » الذي يعتبر أنّ السعي لفهم قوانين الطبيعة هو سعي لفهم أعمال الله ، ومن ثم الاقتراب منه ، في حين يرى «لوي باستار LOUIS PASTEUR ١٨٢٢ ـ ١٨٩٥ » أنّ قليلا من العلم يبعدك عن الله ، لكن كثيره يقرّبك منه. فهل بالفعل يوجد صراع بين الإيمان والعلم؟.

إنّه من الأجدر أن نعترف بأنّ لكلّ من الإيمان والعلم ميدانه الخاص ، إلاّ أنّهما لا يتصادمان ولا يتناقضان ، بل يكمّل كلّ منهما الآخر ، وإن لوحظ وجه للتناقض الظاهري بينهما ، فإنّ ذلك راجع إلى حرفية التفسير وغلبة نزعة القراءة الذاتية. إلاّ أنّ المسلّم به والثّابت قطعا ، أنّ الإيمان قديم قدم الإنسان نفسه ، ولقد حاول الإنسان منذ القديم الإجابة عن سبب وجوده: المبدأ والغاية ، وكذا الموت والمصير ، فرجع إلى الإيمان ؛ لذلك فقد تعدّدت الآراء والاتّجاهات الدينية والفلسفية الباحثة في مسألة الإيمان ، والمستنجد أغلبها بالعلم ومقولاته ، برغم تهافت الكثير منها ولربّما كان إمتدادا لتوهّمات غير مؤسّسة.

فقد كان العقل قديما يتعامل مع الوجود على أساس الخوارق وليس السنن

والقوانين ، ولكن مجيء الإسلام فتح العهد الجديد واعتمد نموذج القانون السنة ، بل إنّ ختم النبوّة ومولد الإسلام هو في ذاته احتفال بمولد العقل الاستدلالي[١] ، الذي وجّه الإنسان بقوّة إلى القطع مع الخرافة والوهم ، والتعويل على النّص الدّيني الصادق ، المتحالف مع ثوابت العلم الصحيح. وهو ما عبّر عنه محمّد إقبال بقوله : «ينبغي أن نفهم القيمة الثقافية لإحدى الفكر الإسلامية العظيمة ، وأعني بها فكرة ختم النبوّة...إنّ نبي الإسلام محمّدا ﷺ يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها...ومولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي...العقل الاستدلالي الذي يجعل الإنسان سيّدا لبيئته وهو أمر كسبي ، فإذا حصّلناه مرّة واحدة وجب أن نثبت دعائمه ونشدّ من أزره ، وذلك بكبت أساليب المعرفة التي لا تعتمد عليه ، إنّ النبوّة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوّة نفسها ، وهو أمر ينطوي عليه إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وإن الإنسان لكي يحصّل كمال معرفته لنفسه ، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو...ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام وإصراره على النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية ، كلّ ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوّة »[٢].

---

(١) خالص جلبي وهاني رزق: الإيمان والتقدّم العلمي، دار الفكر، دمشق، طبعة ١/ ٢٠٠٠، ص٨٧ وما بعدها.

(٢) تجديد الفكر الديني، ترجمة: عباس محمود، لجنة التأليف والنشر والترجمة، ص ١٤٤.

إنّه لا يمكن بحال فهم أزمة الكنيسة المعاصرة بدون الرجوع إلى تلك الأسباب التاريخية البعيدة نسبيا ، فهي التي شكلت ولفترة بعيدة وعي المنتمين للدّين النصراني ، بل لا يمكن فهم نتائج البحوث الميدانية التي تجرى بين الحين والآخر إلاّ بوضع تلك المعطيات في الاعتبار ، ذلك أنّ التحوّل الفكري غالبا تسبقه حالة من التفكّر والمراجعة النقدية ، وهو ما حصل بالفعل في الوسط الديني الغربي. فقد أجرت مؤسّسة «CSA» الفرنسية استطلاعا للرأي نشر في صحيفة العالم «Le Monde» ومجلّة الحياة «La Vie» بتاريخ ٢١ مارس ٢٠٠٣ ، بيّن أنّ نسبة ٥٨٪ من الفرنسيين يعتبرون أنّ الله موجود «حتما» أو «على الأرجح» ، وقد حصل استطلاع للرأي سابق سنة ١٩٩٤ على ٦١٪ من التصديق على نفس السؤال. كما أعلن ٦٢٪ من المستجوبين انتمائهم للديانة النصرانية مقابل ٦٧٪ سنة ١٩٩٤ ، بينما انتقل عدد الذين صرّحوا أنّهم مسلمين من ٢٪ إلى ٦٪ ، أمّا نسبة المنتمين للبوذية فهي أقل من ١٪.

اضمحل الالتزام الديني وسط شريحة المؤمنين ، فقد أعلن ١٢٪ من المستجوبين حضورهم الطقوس الدينية مرّة أو عدّة مرّات في الأسبوع (مقابل ١٤٪ سنة ١٩٩٤) ، و٢٤٪ أعلنوا حضورهم من حين لآخر خلال المناسبات الدينية مقابل ٢٣٪ سنة ١٩٩٤. ولقد أعلن ٤٨٪ من المستجوبين عدم حضورهم بتاتا لأي طقس ديني. ويبدو أنّ المسلمين أكثر التزاما من المسيحيين ، حيث صرّح ٢٧ منهم شهودهم للشعائر الدينية ولو مرّة في الأسبوع مقابل ١١٪ لدى المسيحيين.

إنّ المؤشّرات الإيمانية في انخفاض ، فنسبة الذين يعلنون التزامهم بالصلاة

«يوميا» أو «غالبا» تدنّت من ٢٨٪ إلى ٢٥٪ ، كما يعتقد ٤٦٪ أن دعاءهم يستجاب مقابل ٥٤٪ سنة ١٩٩٤ ، ويعتقد ٣٨٪ أنّ الإيمان يلعب دورا كبيرا في حياتهم مقابل ٤٢٪ سابقا. ولقد تدنّت نسبة الأشخاص الذين يؤمنون بالمعتقدات الرئيسية للديانة النصرانية ، ويعتقد ٥٥٪ «تماما» أو «نوعا ما» أنّ المسيح هو ابن الرب (مقابل ٥٦٪ سابقا) ، و٤٧٪ يؤمنون ببعثه مقابل ٥١٪ ، في حين حافظ الذين يؤمنون بيوم القيامة على نسبة ٣٩٪.

وبصفة ملحوظة فقد فاقت نسبة الذين أعلنوا موافقتهم على مقترح «الآن سوف أجدّد إيماني» الضعف ، حيث انتقلت هذه النسبة من ١٣٪ سنة ١٩٩٤ إلى ٣٢٪ سنة ٢٠٠٣. ويضع الفرنسيون الديانة النصرانية على رأس الديانات التي تثير «اهتمامهم الروحي» أمام الإسلام ٢٢٪ والبوذية ٢١٪ واليهودية ١٦٪ والهندوسية ١٦٪. ويوضّح التحقيق من جهة أخرى انهيار المعتقدات الموازية خلال هذا العقد الأخير خاصّة بين الشباب. فيفنّد ٣٧٪ من المستجوبين علم التنجيم مقابل ٦٠٪ سابقا ، ويؤمن ٢٣٪ بتكهّنات العرّافين مقابل ٤٦٪ ، ويؤمن ٢٢٪ بالتواصل مع الأموات مقابل ٣٧٪ ، كما يؤمن ٢١٪ بالسحر مقابل ٤١٪ سابقا. وعلى العكس فقد ارتفعت نسبة الذين يعلنون أنهم عقلانيون من ٢٢٪ إلى ٥٢٪. ومن ٢٢٪ إلى ٦٧٪ لدى الشباب. ولقد عقّب عالم الاجتماع « Yves LAMBERT» على هذه النتائج في صحيفة «Le Monde» مضيفا أنّ ٤٢٪ من بين أولئك الذين يؤمنون بوجود الله يصرّحون أنّهم «عقلانيون». وهو تشتّت بين قيمة الوعي وحيرة الانتماء[1].

(١) Voir; Anne Sophie LAMINE : Notes de l'exposé du 11/07/2002, séminaire du Conseil Européen de la Fatwa, Tableau.

وقد طرحت مجلّة «التاريخ L HISTOIRE» الفرنسية سؤال مهمّا طالما كرّر نفسه ، وهو: ماذا يعني نصراني؟. ثمّ أجابت: أن تكون نصرانيا يعني أن تلتزم كلّ ما أقرّته الشريعة كحقيقة إيمانية ، والتي تجد نصها في أمانة مجمع نيقية ٣٢٥ للميلاد ، والذي يُتلى بحذافره في كلّ قدّاس. وكذلك الأخذ بوصايا الكنيسة التي تحدّد المقدّس وتنظّم الشعائر: حضور قدّاس الأحد الذي يفصل بين المؤمنين وغيرهم ، الاعتراف بالخطأ ولو مرّة في السنة[١]. وتحت عنوان آخر «النصارى لا يذهبون إلى القدّاس» ، طرحت المجلّة سؤال: فرنسا البنت البِكر للكنيسة ، هل أنت وفية لوعود تعميدك؟.

وهو يطرح سؤاله بكلّ احتفالية خلال زيارته الأولى إلى باريس سنة ١٩٨٠ ، لاحظ البابا يوحنا بولس الثاني الرجة واستنطق الوعي. وفي زيارته الثانية إلى «قول السادس عشر Gaules seize» في سبتمبر ١٩٩٦ بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة عشرة لتعميد «كلوفيس Clovis» بقي البابا يبحث عن إجابة لسؤاله الأصلي. فرجال الدين والعلمانيون أهدوه وجها مشرقا لإيمان حي ، ثمار ألفيتين من التقليد النصراني. ولكن في ما يتعلّق بالعقيدة أو الالتزامات الأخلاقية ، فإنّ حماس الجموع لم يستطع تعمية حقيقة الكثلكة الفرنسية المتأثّرة بالمجتمع المحيط[٢]. ثمّ قدّمت المجلّة استبيانا كانت نتائجه كالتالي:

أ ـ كيف تتصوّرون الوجود الإلهي؟: عدد الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون بقي تقريبا متساويا بين مختلف الاستبيانات. والنساء أكثر يقينا ٣٤٪ مقابل ٢٣٪

---

(١) L'HISTOIRE – N°199 – MAI 1996-22.

(٢) L'HISTOIRE – N°199 – MAI 1996-24.

للرجال، وكذلك الذين تجاوزوا ٦٥ سنة نسبتهم ٣٧٪ مقابل ١٩٪ الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٤ سنة. ومن الكاثوليك من لا يؤمن بالدينونة.

الجواب	لا إجابة	النفي	أكيد	نسبي	غير نسبي
النسبة	٨٪	١٣٪	٢٩٪	٣١٪	١٩٪

ب ـ المؤمنون بالتقليد: يؤمن يعني قبل كل شيء عقيدة آبائه، والتقليد يطغى على القناعة. ولكن أن يعلن المرء أنه غير مؤمن فهو قليل، برغم أنّ نسبة غير المؤمنين زادت من ١٤٪ إلى ١٦٪ بين ١٩٨٦ و١٩٩٤.

الجواب	لا إجابة	لا يؤمن	مقتنع	تقليدي	مؤمن متشكّك	مرتاب
النسبة	٢٪	١٦٪	٢٣٪	٣٢٪	١٤٪	١٣٪

جـ ـ ماذا يوجد بعد الموت؟ شك كبير حول مصير الإنسانية بعد الموت، فقط نصف المؤمنين على قناعة يقدّر أنّه توجد حياة أخرى في الآخرة. ٤٠٪ من الرجال يرون أنّه لا يوجد شيء مقابل ٢٧٪ عند النساء.

الجواب	لا شيء	حياة في الآخرة	تناسخ	يوجد شيء لا أعرفه	لا إجابة
النسبة	٣٣٪	٢٠٪	٦٪	٣٦٪	٥٪

د ـ هل قرأتم كتاب التعليم الديني الجديد «Le nouveau catéchisme»؟: ليس للكاثوليك أي اهتمام بتحيين أو مراجعة محتوى الإيمان، فقط ٢٦٪ من المتدينين قرأوا كتاب التعاليم أو أُطلِعوا على محتواه.

الجواب	لا يعرفه	قرأه كله أو جزء منه	اطّلع على محتواه	سمع عنه
النسبة	٥٠٪	٣٪	٥٪	٤٢٪

وقد عبّرت «دنيال هرفيي لجِر Danièle Hervier-Léger» عن تلك الحيرة بقولها: «أكثر فأكثر فإنّ الفرنسيين يؤكّدون أنّهم يعتقدون ولكن من غير أن يعرفوا في ماذا يعتقدون»[١]. وهو انعكاس لواقع الكنيسة التي دبّت في جهازها الديني عوامل الشيخوخة، فحُرِمت من التجدّد والتواصل الشبابي[٢]. خاصّة إذا علمنا

(١) مديرة مركز الدراسات الدينية المختصة بالمركز الوطني للدراسات الاجتماعية، وأستاذة بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس. وقد أجريت معها مقابلة في مجلة العقيدة « TEO » الفرنسية، مايو ٢٠٠٢، ص٤.

(٢) للكنيسة موقف غير واضح تجاه المرأة، ويقع التستّر على ذلك بموقف حضارة الغرب عامّة من المرأة، والتي تعلن المساواة والتكافؤ في الحقوق نظريا، إلاّ أنّه عمليا ما زالت المرأة في الأصول الحضارية للغرب النصراني محلّ تساؤل وريبة، خاصّة إذا علمنا أنّ اليونان ما زالت تؤوي إلى حدّ الآن آخر مكان في أوروبا لا يعترف بقوانين المساواة، ويحرم على الإناث ــ سواء من الإنسان أو الحيوان- منذ ألف عام دخوله بموجب قرار كنسي، وهو المظهر العملي للتعاليم الإنجيلية. وتقول وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير لها نشرته الخميس ٩ ـ ٣ ـ ٢٠٠٦: « إن منطقة جبل أثوس (شمال شرق اليونان) لم تطأها قدم أي نوع من الإناث منذ عام ١٠٤٥ ميلاديا بموجب قرار أصدرته إدارة تلك المنطقة ذات الحكم الديني، والتي تضم نحو ٢٠ ديرا، يقضي بمنع دخول كافة أنواع الإناث كي لا يدنس الجبل». وتنص القوانين المحلية بهذه المنطقة على تجريم من يدخل جبل أثوس من الإناث بالسجن مدة تتراوح بين شهرين إلى عام. ويعتبر جبل أثوس، المعروف أيضا بـ«الجبل المقدس»، أحد أقدس الأماكن بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس في اليونان.

ولم تكلل جهود البرلمان الأوروبي في عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ الرامية إلى رفع هذا الحظر بالنجاح. كما لم تجرؤ الحكومات اليونانية المتعاقبة على طرح القضية بقوة مع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية التي تعتبر جزءًا من الدولة، وتؤيد أيضا هذا الحظر. وتقول «آنا كاراماناو» نائبة يونانية سابقة بالبرلمان الأوروبي (حزب باسوك الاجتماعي): «إنه أمر مخز، هذا الحظر دليل على عدم المساواة في المجتمع اليوناني، وإذا تم رفعه فسيحدث تأثيرا قويًّا للغاية»، وشددت على أن «جبل أثوس يتلقى ملايين الدولارات كإعانات من الاتحاد الأوروبي تساهم فيها النساء من دافعات الضرائب بالاتحاد». وبدورها، قالت «سولا باناريتو» عضو بحزب ائتلاف اليسار في اليونان: «نحترم المعتقدات الدينية للرهبان والسمة المقدسة للمكان، ولكن هذا المكان مدرج لدى الأمم المتحدة بأنه أحد أماكن التراث لما يحويه من غابات وشواطئ رائعة ومبانٍ مميزة، كما أنه من أجمل البقاع في اليونان، ويمتد نحو ٣٣٦ كم من جزيرة هالكيديكي». =

أنّ في سنة ٢٠٠٢ قرابة ٨٠٪ من مجموع ١٩ ألف كاهن قد تجاوزوا عتبة الستين سنة ، ممّا يعني أنّ العدد سيتقلّص إلى ١٢ ألف خلال عشرة سنوات ، و٦ آلاف خلال عشرين سنة ، وأنّ سبب ذلك كما يؤكّد الأب «رفائيل بويس Raphaël Buyse» منسّق قسم الدّعوة بمدينة «ليل Lille» الفرنسية ، راجع إلى العزوبية الإجبارية وليس إلى الظروف المادية ، ممّا يشجّع على عزوف الشباب. كلّ ذلك أجبر الكنيسة الفرنسية على الاستنجاد بقساوسة أجانب يقدّر عددهم بين ٧٠٠ و٨٠٠ قس عدد كبير منهم أفارقة ، يشتغلون قرابة ٦٠ ساعة أسبوعيا ويتقاضون الأجر الأدنى[١].

كما نشرت نفس المجلّة استبيانات حديثة تتعلّق بالتديّن والموقف من الكنيسة ، تناول المواضيع التالية:

أ ـ المعتقدات من غير دين[٢]:

ملحد مقتنع	يؤمن بالله	يؤمن بالروح أو بقوّة حية	يؤمن بحياة أخرى
٣٠٪	٢٣٪	٢٧٪	٢٧٪

= وتساءلت: «على أي أساس ننكر مثلا حق عالمة أنثى في إجراء بحث علمي في جبل أثوس؟».
وقالت الناشطة في مجال الدفاع عن حقوق المرأة «سيسي فوفو»: «إن المنع يعتبر إهانة للنساء، ولكن هذا أمر هامشي في كفاحنا ضد الجنسانية (التمييز على أساس الذكورة والأنوثة) في حياتنا اليومية، وفي الأسرة ومكان العمل». وفي المقابل، يقول الراهب «نيكوديموس»: «إن جبل أثوس له تقليد يرجع إلى ١٢٠٠ عام بناء على مرسوم صادر من الإمبراطورية البيزنطية»، وأردف: «إذا تم السماح للنساء بالزيارة فستبدأ العائلات في المجيء وسيكون من الصعب السيطرة على المكان، من الممكن أن تؤسس النساء مكانا مماثلا لهن إذا كن يرغبن في ذلك».

(١) TEO : Numéro spècial, Mai 2002 – 3, P26.

(٢) Les Valeurs des Français : ARMAND COLIN 2000.

يؤمن بالتناسخ	يؤمن الخطيئة	يؤمن بالجنة	يؤمن بالنار
٪٢٣	٪١٥	٪١٢	٪٧

ب ـ الشريعة تستجيب لأسئلة الفرنسيين حول:

الموضوع	نعم	لا
العائلة	٪٦٢	٪٣١
الحب	٪٢٩	٪٦٤
استعمال الواقي	٪٢٥	٪٦٩

جـ ـ تطوّر الرّهبنة على فترات متقاربة[1]:

الرتبة	١٩٩٢	١٩٩٦	٢٠٠٠
كاهن أبرشية	٢٤٠١٥	٢١٥٠٨	١٨٨٧٢
طالب مدرسة دينية	١١٦١	١١٠٣	٩٧٦
عدد الشماسة الدائمين	٧٨٠	١١٤٦	١٥٨٢

*****

(١) CONFERENCE DES EVEQUES DE France 2002.

الإسلام

التعريف:

عرّف ابن منظور الإسلام انطلاقا من دلالته اللّغوية وما دلّ عليه جذع الكلمة ، وذلك للعلاقة المتينة بين الدلالة اللّغوية والدلالة المصطلحية في الفكر الإسلامي. وهي ميزة لا تتوفّر إلاّ في اللّغة العربية وخاصّة إن تعلّق الأمر بالفكر الإسلامي ، وهو ما نلحظه بشكل جلي في هذا المصطلح موضوع البحث. إذ إن الباحث لا يكاد يفرّق بين الدلالتين ، فيخال نفسه قد خرج من الدلالة اللّغوية إلى المعنى الاصطلاحي لشدّة تطابق المضمونين. ففي لسان العرب: «الإسلام والاستسلام : الانقياد . والإسلام في الشريعة : إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النّبي » . وقال ثعلب : «الإسلام باللّسان والإيمان بالقلب» ، وقال ابن بشّار: «يقال : فلان مسلمٌ ، وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله ، والثّاني هو المخلص لله العبادة ، من قولهم : سلّم الشيء لفلان أي خلصه ، وسلم له الشيء أي خلص له ، وروي عن النبي ﷺ أنّه قال : «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[(١)] ، ثمّ صار اسما للدّين الذي جاء به سيّدنا محمّد ﷺ ودعا إليه ، فإن رافقه اعتقاد في الجنان وعمل بالأركان فهو الإيمان[(٢)]. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية[(٣)]: « هو الاسم الذي يطلقه المسلمون في كلّ قطر على

---

(١) فتح الباري ـ طبعة رئاسة إدارة البحوث العلمية ١ / ٥٣ ، كتاب الإيمان ، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ـ حديث (١٠) .

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٣/ ٢٠٨٠.

(٣) ٣/ ٣٤١.

عقيدتهم ، ومعنى هذه الكلمة الخضوع أو الاستسلام لله». عرّفه القاموس الإسلامي[١]: « وعنى الفقهاء واللّغويون بتوضيح معنى كلمة «إسلام» في ضوء الاشتقاقات اللّغوية والمبادئ التي بشّر بها الإسلام كدين وعقيدة. أمّا اللغة فكلمة إسلام مشتقّة من السّلم والسلام والسلامة ، وتعني الخلوص من الشوائب الظاهرة والباطنة ، كما تعني الصّلح والأمان والاستسلام والإذعان والطّاعة ، وقد جاءت هذه المعاني في آيات متفرّقة من القرآن الكريم. أمّا شرعا فأجمع المفسّرون على أنّ معنى كلمة الإسلام هو: الإيمان والانقياد إلى الله بالقلب وبالظاهر ، أي التّسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، فهو لهذا أعمّ من الإيمان الذي هو التّصديق بالقلب ، فليس كلّ إسلام إيمانا» .

أمّا ما أوردته المعاجم الأجنبية من تعريفات ففي أغلبه نظر. فلا تُعتبر تعريفات علمية يعتدّ بها. ويرجع ذلك أساسا إلى أنّ أغلب الذين وضعوها ليست لهم أصلا أيّة خلفية دينية أو حضارية إسلامية تؤهّلهم لمثل هذا العمل. ومن تلك التعريفات السطحية : « الإسلام ، الحضارة الإسلامية: مجموعة الدّول الإسلامية »[٢]. و« الإسلام : دين نادى به النبي محمّد كلّ المسلمين ، كلّ العالم الإسلامي »[٣]. و« الإسلام : الدّين الإسلامي »[٤]. ومنها « الإسلام: دين وحضارة المسلمين ، العالم الإسلامي ، أسّس في القرن السّابع للميلاد ، في الحجاز من طرف محمّد ، وقد استلهم من اليهودية والنصرانية. والإسلام دين توحيد

(١) أحمد عطيّة الله: القاموس الإسلامي ، مكتبة النّهضة المصرية ، طبعة ١ / ١٩٦٩ ، ١ / ١٠٢ .

(٢) المورد: قاموس إنجليزي ـ عربي ـ ٤٨٣ .

(٣) Oxford : P 459.

(٤) قاموس إلياس العصري: إنجليزي ـ عربي ـ ص ٣٨٩.

صارم ، العبادة فيه بسيطة : التزام عقائد الإيمان ، خمس صلوات يومية ، تسبق بوضوء مطهّر ، حجّ البيت مرّة واحدة في العمر ، الزكاة ، الحرب المقدّسة ضدّ الخائنين الذين يهدّدون أرضا إسلامية ، لا يوجد رهبانا ، الإمام: قائد الصلاة في المسجد ليس له شخصية كهنوتية »[١].

ويرى يوسف القرضاوي[٢] : « أنّ الإسلام الذي نؤمن به ، وندعوا إليه ، ونرى أنّه سبيل النجاة في الدّنيا والآخرة ، فهو الدّين الذي أنزل الله به آخر كتبه «القرآن» وبعث به خاتم رسله محمّد ﷺ من عقائد ، وعبادات ، وأخلاق ، وآداب ، ومعاملات ، إذا أحسن النّاس فهمها والعمل بها ، زكا الفرد ، واستقرّت الأسرة ، وتماسك المجتمع ، وصلحت الدّولة ، واستقام أمر الحياة بقدر استقامتهم على أمر الله ، وإذا أساؤوا فهمه أو العمل به ، اختلّت حياتهم الفردية والجماعية ، بقدر بعدهم عنه ».

وبرغم تقارب تعريفات المسلمين ، نؤكّد على أنّ الإسلام في عقيدتنا ليس اسما لدين بدع ، كان سيّدنا محمّد ﷺ أوّل من تقدّم به ، حتّى يصحّ وصفه ﷺ بمؤسّس الإسلام ، بل يصرّح القرآن بشكلٍ قاطع أنّ الله تعالى لم يُرسل إلى البشريّة منذ آدم ـ عليه السّلام ـ إلاّ دينا واحدا وهو الإسلام؛ أي استسلام الإنسان لحكم الله. وكلّ الأنبياء الذين بعثهم الله في أقطار مختلفة من الأرض ، وفي شعوب مختلفة في العالم ، لم يكونوا بناة لأديانهم حتّى نعبّر عن دين من تلك الأديان بالدّين النّوحي ، أو بالدّين الإبراهيمي ، أو بالدّين الموسوي ، أو بالدّين

---

(١) Petit Larousse : P 566.

(٢) الإسلام والعلمانية وجه لوجه ، دار الصحوة للنّشر والتّوزيع ، القاهرة ، طبعة ١ / ١٩٨٧ ، ص ٣١.

المسيحي ، بل كلّ نبيّ جاء من عند الله تعالى دعا إلى نفس الدّين الواحد الذي دعا إليه من سبقه من الأنبياء[١] ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[٢].

الإسلام والإيمان عند المفسّرين:

عرّف بعض المفسّرين كلّ من الإسلام والإيمان بتعريف واحد ، وذهب آخرون إلى أنّ لكلّ من الإسلام والإيمان دلالة مستقلّة عن الثانية ، وهو ما نفهمه من ظاهر حديث النبي ﷺ ، الذي عرّف فيه الإيمان والإسلام والإحسان. فإن كان ولابدّ من عرض آراء المفسّرين في العلاقة بين الاصطلاحين ، فإن ذلك يتطلّب إبداء ملاحظتين منهجيّتين:

الأولى: أنّ النّاس صاروا في مسمّى الإسلام على ثلاث أقوال:

ـ طائفة جعلت الإسلام هو الكلمة.

ـ طائفة أجابوا بما أجاب به النبيّ ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان ، حيث فسّر الإسلام بالأعمال الظّاهرة والإيمان بالأصول الخمسة.

ـ طائفة جعلوا الإسلام مرادفا للإيمان ، وجعلوا معنى قول الرّسول ﷺ: « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله...»[٣] ، شعائر الإسلام.

الثّانية: لقد سبق وأن أشرت إلى التداخل الواضح بين الاشتقاق اللّغوي

---

(١) أبو الأعلى المودودي: إلى أيّ شيء يدعو الإسلام ، مكتبة الرّشد للنّشر والتّوزيع ، الرياض، طبعة ١٩٨٣.

(٢) سورة غافر : ٧٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ١ / ١ / ١٥٧.

والتّعريف الاصطلاحي لكلمة إسلام ، وقد ذهب الآمدي[١] إلى أنّ علماء الإسلام يعتبرون المعاني الشرعية متفرّعة من المعاني اللّغوية وثيقة الصّلة بها. وجمع الفخر الرّازي جملة المذاهب في ذلك ، فقال: « وأمّا الإسلام ففي معناه في أصل اللّغة ثلاثة أوجه :

الوجه الأوّل: أنّه عبارة عن الدخول في الإسلام ، أي في الانقياد والمتابعة ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾[٢] ، أي لمن صار منقادا لكم وتابعا لكم .

الوجه الثّاني: من أسلم دخل في السّلم ، كقولهم: أسنى ، وأقحط ، وأصل السّلم السّلامة.

الوجه الثّالث: قال ابن الأنباري: المسلم معناه المخلص لله عبادته ، من قولهم: سلم الشيء لفلان ، خلصه له ، فالإسلام معناه : إخلاص الدّين والعقيدة لله تعالى[٣].

ويرى الآمدي: أنّ الدّين هو الإسلام ، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٤] ، والإسلام هو الإيمان ، فيكون الإيمان في الشّرع هو فعل العبادات. ودليل كون الإيمان هو الإسلام ، أنّه لو كان الإيمان غير الإسلام لما كان مقبولا من صاحبه ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٥] ،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ، دار الكتب العلمية، بيروت ، طبعة ١٤٠٣/١٩٨٣ / ٤٨.

(٢) سورة النساء : ٩٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ٣ / ٣٤٨.

(٤) سورة آل عمران : ١٩.

(٥) سورة آل عمران : ٨٥.

وأيضا فإنّه استثنى المسلمين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] ، والأصل أن يكون المستثنَى من جنس المستثنِي.

فالمؤمن والمسلم واحد عند أهل السنّة ، فكيف يفهم ذلك من هذا؟. نقول بين العام والخاص فرق ، فالإيمان لا يحصل إلاّ بالقلب وقد يحصل باللّسان ، والإسلام أعمّ ، لكن العامّ في صورة الخاصّ متعدّ مع الخاص ، ولا يكون أمرا آخر غيره ، فالعام والخاص مختلفان في العموم متّحدان في الوجود ، فكذلك المؤمن والمسلم ، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، والدلالة على أنّ المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة ، والحقّ أنّ المسلم أعمّ من المؤمن وإطلاق العامّ على الخاصّ لا مانع منه ، فإذا سُمِّيَ المؤمن مسلما لا يدلّ على اتّحاد مفهومهما ، فكأنّه تعالى قال : أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعمّ منهم إلاّ بيتا من المسلمين ، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين...[2].

ويرى الإمام الطحاوي[3]: « أنّ حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الإسلام من الإيمان ، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرّسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم ، كشيء واحد ، كذلك الإسلام

---

(١) سورة الذاريات : ٣٦.

(٢) فخر الدّين الرّازي: التفسير الكبير ١٤ / ٢٨ / ١٢١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٢.

والإيمان ، لا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقّق إيمانه ، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصحّ إسلامه». ويعتبر ابن كثير أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام ، كما هو حسب رأيه مذهب أهل السنّة والجماعة ، ويدلّل على ذلك بحديث جبريل ـ عليه الصّلاة والسّلام ، حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان. فترقّى من الأعمّ إلى الأخصّ ثم للأخصّ منه.

ويذكر أنّ رسول الله ﷺ أعطى رجالا ولم يعط رجلا منهم ، فقال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه : يارسول الله أعطيت فلانا وفلانا ، ولم تعط فلانا شيئا وهو مؤمن ، فقال النّبي ﷺ: « أو مسلم؟ » ثمّ قال ﷺ: « **إنّي أعطي رجالاً وأدع من هو أحبّ إليّ منهم فلم أعطه شيئا مخافة أن يكبّوا في النّار على وجوههم** »[(١)] ، وبذلك فرّق النّبي ﷺ بين المؤمن والمسلم ، فدلّ على أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام...[(٢)]. ويذهب سعيد حوّى[(٣)] إلى أنّ الإيمان شيء والإسلام شيء آخر ، وإن كان بينهما ارتباط في الواقع والحقيقة ، وآية الحجرات: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾[(٤)] ، أشارت إلى هذا التمايز بين الإسلام والإيمان ، وبيّنت في الوقت نفسه أنّ الطّريق إلى الإيمان القلبي هو عمل الجوارح: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

---

(١) صحيح البخاري ، عالم الكتب ، بيروت ، طبعة ٤ / ١٩٨٥ تاب الجمعة ، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد ص ٤٤ ، حديث (٤٦) .

(٢) تفسير ابن كثير ، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت ، طبعة ١٩٨٦، ٤ / ٢١٩.

(٣) الأساس في التّفسير ٩ / ٥٤٣٨.

(٤) سورة الحجرات : ١٤.

وهو ما يتّفق فيه مع ابن عاشور ، الذي يرى أنّ قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ هو تعليم للأعراب بالفرق بين الإيمان والإسلام ، فإنّ الإسلام مقرّه اللّسان والأعمال البدنية ، وهي قواعد الإسلام الأربعة: الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحجّ الكعبة ، الواردة في حديث عمر عند سؤال جبريل النّبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والسّاعة...لذلك كذّب الله الأعراب في قولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ، ليعلموا أنّهم لم يخف باطنهم على الله ، وأنّه لا يعتدّ بالإسلام إلاّ إذا قارنه الإيمان ، فلا يغني أحدهما بدون الآخر ، فالإيمان بدون إسلام عناد ، والإسلام بدون إيمان نفاق ، ويجمعهما طاعة الله ورسوله ﷺ [1].

ويذهب سيّد قطب[2] إلى أنّ الآية فيها مقصد تعليمي ، فقد أراد الله تعالى أن يعلمهم ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول. وأنّهم دخلوا في الإسلام استسلاما ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان ، فدلّ بهذا على أنّ حقيقة الإيمان لم تستقر في قلوبهم ، ولم تشربها أرواحهم. ويرى القرطبي[3] أنّ الآية خاصّة لبعض الأعراب لا جميعهم ؛ لأنّ منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى ، ومعنى ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسّبي ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنّهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب ، وأمّا الإسلام ما أتى به النّبي ﷺ في الظّاهر ، وذلك يحقن الدّم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٦٤.

(٢) في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ـ طبعة ١٥ / ١٩٩٦، ٦ / ٢٦ / ٣٣٤٩.

(٣) أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٨ / ١٦ / ٢٢٧.

ويعتبر برهان الدين البقاعي[١] أنّ الآية نزلت في قوم شهدوا شهادة الحقّ ، وهم لا يعلمون ما شهدوا به ، غير أنّ أنفسهم ليست تنازعهم إلى التكذيب ﴿ ءَامَنَّا ﴾ أي بجميع ما جئت به ، فامتثلنا ما أمرنا به في هذه السّورة ولنا النّسب الخالص ، فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر. ولمّا كان الإيمان التّصديق بالقلب فلا اطّلاع عليه لآدمي إلاّ بإطلاعه سبحانه ، فكانوا كاذبين في دعواه ، ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي لم تصدّق قلوبكم لأنّكم لو آمنتم لم تمنّوا بإيمانكم ؛ لأنّ الإيمان التّصديق بجميع ما لله من الكمال ، الذي منه أنّه لولا مَنّه بالهداية لم يحصل الإيمان ، فمدار التصديق الصحيح هو اعتقاد قلب وخلوص نيّة وطمأنينة ، وهذا مخالف لحال الأعراب الذين واجهتهم الآية بكلّ وضوح ففرّقت بين الإسلام والإيمان ﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ ، أي استسلمنا خوف القتل والسّبي أو للطمع في الصدقة ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنّهم أسلموا في ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم[٢] ، وبقي الأمر مشروطا بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ فأخبر أنّ حقيقة الإيمان التّصديق بالقلب ، وأنّ الإقرار باللّسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيمانا دون التّصديق بالقلب والإخلاص[٣] ، فحصل بذلك استثناء فرّق بين الإسلام والإيمان وجعل أحدهما أعمّ من الآخر.

وقد توسع القاسمي في تفسير آية الحجرات ، وختمها بثلاث تنبيهات:

---

(١) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور ، دار الكتب العلمية بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٥ ، ٧ / ٢٣٨.

(٢) محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فَنَّيْ الرواية والدراية من علم التّفسير ، دار الفكر ، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٢ ، ٥ / ٩٦ .

(٣) أبو محمّد الحسين بن مسعود البغوي : تفسير البغوي « معالم التنزيل » ، دار طيبة للنّشر والتّوزيع ، الرياض ، طبعة ٤ / ١٩٩٧، ٧ / ٣٥٠ .

الأوّل: استدلّ بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عموم وخصوص مطلق ؛ لأنّ الإسلام الانقياد للعمل ظاهرا ، والإيمان تصديق القلب كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ . وهذا الاستدلال في غاية الضّعف ؛ لأنّ ترادفهما شرعا لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللّغوي في بعض المواضع ، وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جليّة ، كما هنا ، وإلاّ فآية ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [1] ، أكبر مناد على اتّحادهما ، ومن اللّطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، والإيمان والإسلام وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلق الشّرع إلاّ على القول والعمل ، وهو مذهب الإمام ابن حزم.

الثّاني: في الآية ردّ على الكرامية في قولهم : إنّ الإيمان هو الإقرار باللّسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر.

الثّالث: قيل : مقتضى الظّاهر أن يقول: قل : لا تقولوا آمنّا ولكن قولوا : أسلمنا ، أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم ، فدلّ عنه إلى هذا النّظم احترازا من النّهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعا ، وقيل : إنّه من الاحتباك ، وأصله: لم تؤمنوا فلا تقولوا : آمنّا ، ولكن أسلمتم ، فقولوا : أسلمنا ، فحذف من كلّ منهما نظير ما أثبت في الآخر ، والأوّل أبلغ ؛ لأنّهم ادّعوا الإيمان فنفي عنهم ، ثمّ استدرك عليهم فقال: دعوا ادّعاء الإيمان ، وادّعوا الإسلام ، فإنّه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه ، فنفى الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الاتّصاف به ، وهو أبلغ ممّا ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة[2].

---

(١) آل عمران : ١٩.

(٢) محمّد جمال الدّين القاسمي: تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة ١/ ١٩٩٧، ٨/ ٥٤١.

ويرى الماوردي[١] أنّ في الآية ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّهم أقرّوا ولم يعملوا، فالإسلام قول والإيمان عمل.

الثّاني: أنّهم أرادوا أن يتسمّوا باسم الهجرة، فأعلمهم أنّ اسمهم أعراب.

الثّالث: أنّهم منّوا على رسول الله بإسلامهم فقالوا: أسلمنا، لم نقاتلك، فقال الله تعالى لنبيّه: قل لهم: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا خوف السّيف؛ لأنّهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، فلم يكونوا مؤمنين، وتركوا القتال فصاروا مستسلمين لا مسلمين، فيكون مأخوذا من الاستسلام لا من الإسلام.

ويكون الإسلام والإيمان في حكم الدّين على هذا التأويل واحدا وهو مذهب الفقهاء؛ لأنّ كلّ واحد منهما تصديق وعمل، وإنّما يختلفان من وجهين:

أحدهما: من أصل الاسمين؛ لأنّ الإيمان مشتقّ من الأمن، والإسلام مشتقّ من السّلم.

الثّاني: أنّ الإسلام علم لدين محمّد ﷺ والإيمان لجميع الأديان؛ ولذلك امتنع اليهود والنصارى أن يتسمّوا بالمسلمين، ولم يمتنعوا أن يتسمّوا بالمؤمنين.

وذهب إليه الشنقيطي[٢]، إلى أنّه جلّ وعلا ذكر في هذه الآية الكريمة أنّ هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا: آمنّا، وأنّ الله جلّ وعلا أمر نبيّه أن يقول لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، وهذا يدلّ على نفي الإيمان

---

(١) أبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب الماوردي البصري: النكت والعيون تفسير الماوردي، مؤسّسة الكتب الثقافية، بيروت ٥ / ٣٣٧.

(٢) محمّد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة ١/ ١٩٩٦، ٥/ ١٧١.

عنهم وثبوت الإسلام لهم ، وذلك يستلزم أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام ؛ لأنّ نفي الأخصّ لا يستلزم نفي الأعمّ.

كما أنّ مسمّى الإيمان الشرعي الصحيح ، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللّسان بالإقرار ، والجوارح بالعمل ، فمؤداهما واحد كما يدلّ له قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [١].

وإذا كان ذلك كذلك فإنّه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة ؛ لأنّ الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام ؛ ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما أنّ الإيمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسمّاه الشرعي الصحيح ؛ والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللّغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب ، وإنّما ساغ إطلاق الحقيقة اللّغوية هنا على الإسلام مع أنّ الحقيقة الشرعية مقدّمة على اللّغوية على الصحيح ؛ لأنّ الشّرع الكريم جاء باعتبار الظّاهر ، وأن توكل السرائر إلى الله.

ويعتبر الزمخشري[٢] أنّ الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النّفس ، والإسلام: الدّخول في السّلم ، والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ، فما يكون من الإقرار باللّسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللّسان فهو إيمان ، وأنّ ذلك لم يحصل للأعراب وإلاّ لما منّوا على الرّسول ﷺ بترك المقاتلة[٣].

---

(١) سورة الذاريات : ٣٥ ، ٣٦.

(٢) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٧ ، ٤ / ٣٧٩.

(٣) أبو الفضل شهاب الدّين السيّد محمود الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٤ ، ١٣ / ٢٦ / ٣١٨.

فإنّنا لن نسلّم بأنّ الله أوحى بدين اسمه اليهودية وبدين اسمه النصرانية ، وإنّما سبحانه وتعالى أرسل رسله بالهدى ودين الحق ليخرجوا النّاس من الظلمات إلى النور ، موكب واحد من النبوّة مشترك وإن امتدّت أزمانه وتباعدت جغرافيته ، إذ العبرة بجوهر الخطاب ومقاصده مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (١).

فالدّين واحد في مصدره وجوهره ومقصده ، ولا شيء من ذلك يمكن أن يتجزّأ ، ومن وقع في شيء من ذلك فقد ابتدع دينا من عنده غير الإسلام ، ويتحمّل تبعات ما ابتدع من المفاصلة والمفارقة العقدية لقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٢). أمّا ما عدى ذلك من الديانات فهي لا تتعدى أن تكون فلسفات وضعية ذات طابع ديني تعيش حيرة البحث عن العقيدة الإلهية ، ولن يشفع لها قِدمها في أن تتحوّل إلى دين يتعبّد به الله ، أو أن تكون من الدّين المرضي عنده ، إلاّ أنّها تعتبر ممّا صنعه البشر وتديّن به النّاس.

الخلق والتطور: رؤيتان متناقضتان :

أ ـ الخلق والتكريم:

وبناء على ذلك التصوّر الإسلامي لطبيعة الدين الحق المرضي ، تنبني الحقائق العقدية في أصولها وفروعها. فالإنسان في أصل خلقه وتكريمه وقيمته ومهمّته غير التصوّر المادي القائم على قانون التطوّر ، والذي يجعل من حياة الإنسان تجربة

(١) سورة النساء : ١٦٣.

(٢) سورة الكافرون : ٦.

وجودية تنتهي بنهايته ، إذ الموت في التصوّر المادي هو الفناء والنهاية الحتمية ، وعلى شاكلته ينتهي العالم. إذ تقوم التصوّرات الإسلامية على قاعدة أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسانَ بيده في السّماء خلقا مباشرا ، ونفخ فيه من روحه ، وعلّمه الأسماء كلّها ، وأسجد له ملائكته تكريما وتشريفا ، وحرّم دمه وماله وعرضه إلاّ بالحق ، وأرسل إليه الرّسل ، وأنزل عليه الكتب ، فهيّأه بذلك للكمال وأعدّه لسعادة الحال والمآل ، وأخبر عن خلقه وتكوينه وكرامته ومآله وخالقه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه. وقد وردت في ذلك آي القرآن الكريم محكمة واضحة فلم تترك للعقل البشري في ذلك أيّ مجال للتأويل والشك ، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (٢) ، وقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٤) ، وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (٥).

وقال الرّسول ﷺ : « **خُلِقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم ممّا وُصف لكم** »(٦) ، أي خلق من طين ، وقال ﷺ : « **إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم**

---

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢.

(٢) سورة البقرة : ٣١.

(٣) سورة السجدة : ٧.

(٤) سورة الأعراف : ١٨٩.

(٥) سورة الرّحمن : الآيات ١ ـ ٤.

(٦) الألباني: الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، بيروت ، رقم (٣٢٣٨) .

الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسّهل والحزْن وبين ذلك ، والخبيث والطيّب وبين ذلك»[١] ، وقال ﷺ : « خيرُ يوم طلعت فيه الشّمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنّة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم السّاعة إلاّ يوم الجمعة»[٢] . ومن آدم وحوّاء وبطريق التناسل والخلق التدريجي خلق الله ذريّتهما في كمالهم وجمالهم ، واستخلفهم في الأرض ، وسخّر لهم كلّ ما فيها ، لعبادته سبحانه وحده .

وبيّن القرآن ذلك: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[٤] ، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٦] . فالإنسان في التصوّر الإسلامي خلقه الله سبحانه وتعالى بيده لغاية عظيمة ترتقي بالإنسان إلى مراتب التكريم وتستهدف درجات الكمال ، فخصّه بصفات هي لله عزّ وجل على وجه الكمال ، وهي للإنسان حتّى يقوم بمهمّة الاستخلاف ، وقد نفخ الله فيه من روحه وهيّأه بأن أودع فيه أمانة العقل والإدراك وطوّع له الكون تسخيرا[٧] .

وبخلاف ذلك فإنّ التصوّر الفلسفي المادي للإنسان من حيث خلقه وقيمته

---

(١) الألباني: الجامع الصغير، رقم (١٧٥٩) .

(٢) الألباني: الجامع الصغير، رقم (٣٣٣٣) .

(٣) سورة الإنسان : ٢ .

(٤) سورة البقرة : ٣٠ .

(٥) سورة الحجرات : ١٣ .

(٦) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٧) انظر: عبد المجيد عمر النجّار: الشهود الحضاري .

ومهمّته يفهم في إطار نظرية النشوء والارتقاء القائمة في جوهرها على نظرية التطوّر التي أسّسها عالم الحيونات البريطاني شارلز داروين Charles Darwin ، ووضع قواعدها النظرية في كتابه الشهير «أصل الأنواع» . وينحصر جوهر هذه النظرية في أنّ الإنسان متحوّل من القرد إلى القرد الواسطة إلى ما هو عليه الآن ، وذلك وفق المبادئ التالية:

ـ الانتخاب الطبيعي .

ـ البقاء للأصلح .

ـ النشوء والارتقاء .

ـ المطابقة .

ـ عامل الوراثة .

وبعيدًا عن الخوض في جوهر هذه المقولات ، فهي من حيث ارتباطها بموضوعها هي في الجملة نظريات صحيحة معلومة بالحسّ ، وهي سنن الله تعالى في الخلق والتّكوين لكثير من المخلوقات[1] ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2] ، وعن النّبي ﷺ أنّه قال: « **وإنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة ، ثمّ يكون علقة مثل ذلك ، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك ، ثمّ يأتي**

(١) انظر : أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن ص ١٥.

(٢) سورة المؤمنون : ١٣ ، ١٤.

إليه الملك فينفخ فيه الرّوح ، ثمّ يؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد » [1]. وبالجملة فسنن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتة لا تنكر ، وكذلك انتقال الصفات والبقاء للأصلح ، إلاّ أنّ هذه السنن خاضعة لإرادته سبحانه وتعالى ومشيئة يخرقها بالمعجزات متى شاء وهو على ذلك قادر.

نقد النظرية الداروينية:

لقد واجهت هذه النظرية عدّة اعتراضات جوهرية هزّت أسسها النظرية وأبطلت جملة مقولاتها الأساسية ، وذلك انطلاقا من المقولات الداروينية ذاتها ، أي أن النقد انطلق من جوهر النظرية وأسسها ولم يكن من خارجها ، لاعتبارها قامت منذ نشأتها على فرضيات غير مؤسّسة واجتهاد بشري غايته نفي عقيدة الخلق الإلهي للإنسان. وهذا جزء من الصراع الذي دارت رحاه في الغرب بين الكنيسة والدّين. فمنذ قضية « قاليلي Galilée » في ١٦٣٣ فإنّ العلاقة بين الطرفين لم تتوقّف عن الانهيار ، لتصل في آخر القرن التاسع عشر عنفا غير مسبوق النظير؛ قدح واتّهام متبادل. ففي كلّ سنة يتّهم دعاة كنيسة العذراء بباريس العلم الإلحادي « Science athé » ويعتبرونه متناقضا وقائم على مقدّمات مغلوطة؛ لذلك يقول أحدهم أنّ : « العالم جاء من عند الله ، جاء كما قال الوحي ، وأتحدى العلم أن يجد بين المكوّنات المشاهدة وقول الله أي تناقض حقيقي » . وبالمقابل واجه العلماء المؤسّسة الكاثوليكية ، ففي سنة ١٨٩٠ كتب أرنست رينان « Ernest Renan» في مجلّة « مستقبل العلم » أنّ المهمّة المعاصرة لن تنتهي إلاّ إذا انهار كلّ اعتقاد في الغيب تحت أي شكل كان. وفي ١٨٩٥ نظم « جون جوراس Jean

(١) أخرجه الشيخان.

Jaurès وفرديناد بويسون Ferdinand Buisson وإميل زولا Emile Zola » مأدبة كبيرة على شرف مارسلان برتِلو Marcelin Berthelot ، تحت موضوع « تحية للعلم مصدر تنشيط العقل ». وفي ١٨٨٠ أعلنت صحيفة « الحضارة La Civilisation » أن قانون « كاميل سي Camille Sée » حول تعليم البنات سيقلّص من تأثير المرأة بالنصرانية ، وتعطيها تربية داروينية وعلمية[١]. ومن النّقد الذي وُجِّه للنظرية:

١ ـ إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء مطّردة في كلّ شيء فعن أيّ شيء ترقّت الأنعام والبهائم.

٢ – لِمَ بقيَ القِردُ الأوّل وانقرض الحيوان الواسطة.

٣ – مخالفة أصحاب المذهب لمبادئهم الأساسية:

أ ـ قبول عملية النّظر والقياس والاستدلال.

ب ـ لم يشاهدوا الخلية الأولى التي نزلت من كوكب ما.

جـ ـ لم يشاهدوا المؤثّرات الطبيعية التي غيّرت نمط عيش الحيوان الأوّل.

د ـ لم يشاهدوا الحيوان الواسطة.

وبمناسبة مئوية كتاب داروين « أصل الأجناس» نُشِرت طبعة خاصّة من هذا المؤلّف ، واستدعي لتحرير المقدّمة « و. تومسون W. Thompson » مدير معهد الدراسات البيولوجية التابع للكومنويلث بمدينة أوتاوا الكندية ، ولقد قال فيها بالخصوص: « كما نعلم فقد اختلفت آراء البيولوجيين ، ليس فقط حول أسباب الارتقاء ، ولكن أيضا حول سياق هذا الارتقاء. ويرجع وجود هذه الاختلافات إلى أنّ البراهين غير مقنعة تماما ولا تُفضي إلى استنتاج مؤكّد. من الطبيعي إذن إن

(١) L'HISTOIRE, N° 199, MAI 1996, P50.

تثير انتباه القرّاء ، غير الحاصلين على تكوين علمي إلى الاختلافات حول موضوع الارتقاء» .

إنّ النشوئيين يؤكّدون بأنّ نظرية الارتقاء حاليا واقعة مسلّم بها ، وهم يعتقدون بأنّ النشوئية «ظاهرة واقعية» و«مسلّمة» و«حقيقة» ، وكلّها أوصاف تربطها المعاجم بكلمة واقعة. ومثال ذلك أنّ الاتّجاه الفكري القديم في الغرب كان يعتقد أنّ الأرض مسطّحة ، لكن منذ ذلك الحين تبيّن أنّ لها شكل كروي ، وهذه واقعة ، وكانوا يعتقدون أنّها محور الكون الذي تَدور حوله السماء ، والآن تبيّن أنّها تدور حول نفسها وتخطّ مدارا حول الشمس ، وهذه أيضا واقعة. كما يمكن أن نستشهد بالعديد من المفاهيم الأخرى التي كانت بالأمس مجرّد أطروحات قابلة للجدل ، بينما هي الآن قائمة بالبراهين ، وتعتبر من الوقائع الثابتة ومن المسلّمات ومن الحقائق. فهب صحيح أنّ استقراء البراهين التي قدّمت لصالح الارتقاء تمكّن من إقامة قاعدة صلبة يُستند عليها؟. لنلاحظ باهتمام أنّ جوانب عديدة من أطروحة الارتقاء كانت موضوع اختلافات عميقة حتى بين أبرز العلماء المناصرين للارتقاء ، وذلك منذ صدور كتاب شارل داروين « أصل الأجناس » ، وأنّ الاختلاف الآن أشدّ ما يكون ، وذلك ما تفصح عنه أقوال النشوئيين أنفسهم.

لخّصت المجلّة العلمية « ديسكافر Discover » الوضعية كالتالي: « لا تتعرّض نظرية التطوّر للطعن من طرف الأصوليين المسيحيين فقط ، بل هي أيضا موضع شكوك علماء مشهورين. ويزداد الاختلاف بين علماء الإحاثة ، أخصائيي المتحجّرات » . وكتب « فرانسيس هيتشينغ Francis Hitching » من مناصري

نظرية التطوّر ومؤلّف كتاب « رقبة الزرافة » قائلا: « رغم أنّ الوسط العلمي يُقرّ بأنّ نظرية داروين هي المبدأ الموحّد لعلم الأحياء فإنّه من المدهش أن نلاحظ أنّه بعد قرن من الزمان على ظهورها ، فإنّ هذه النظرية لا زالت تواجه العديد من العقبات». وعقب محاضرة مهمّة في مدينة شيكاغو الأمريكية جمعت ما يقرب من مائة وخمسون أخصائي في نظرية التطوّر ، صدر بيان يستنتج ما يلي: « إنّ نظرية التطوّر تشهد حاليا أكبر وأعمق تغيُّر خلال الخمسين سنة الماضية...إنّ النسق المضبوط للارتقاء هو حاليا موضع جدل حاد بين علماء الأحياء...ليس هناك حل واضح لنزع الخلاف » . وصرّح « نايلز إيلدريدج Niles Eldredge » من علماء الإحاثة المناصرين لنظرية الارتقاء ، أنّ: « الشبهة التي تسلّلت إلى الحقائق الأكيدة بل الوافية التي ميّزت علم الأحياء التطوري خلال العشرين سنة الماضية أجَّجَت العواطف » ، وقد تحدّث عن « انعدام اتّفاق تام حتى بين أطراف كل فريق معارض » ، وأضاف: « إنّ الوضعية الحالية متشابكة للغاية...ولدينا شعور في بعض الأحيان بأنّ هناك آراء مختلفة حول كلّ موضوع متعلّق بنظرية التطوّر ، بقدر ما هنالك من علماء الأحياء » .

ويقول بهذا الصدد « كريستوفر بوكر Christopher Booker » محرّر بالتايمز اللّندنية وأحد المقرّين بنظرية التطوّر: « إنّها كانت نظرية بسيطة ومغرية لدرجة تثير الدهشة ، لكن كما أدرك ذلك إلى حدّ ما داروين نفسه ، أنّ مشكلة هذه النظرية الوحيدة هي أنّها تحتوي على أخطاء جسيمة » . وفيما يخصّ كتاب أصل الجناس فقد لاحظ أنّ : « من فداحة هذا الهراء أنّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا اشتهر ؛ لأنّه كان من الفروض أن يشرح أصل الأجناس ، لكنّه في الحقيقة لم يُوفِ

بذلك أبدا » . وأضاف: « بعد قرن على وفاة داروين ليس لدينا أي فكرة قابلة للبرهان أو حتى محتملة للكيفية الحقيقية التي حدث بها الارتقاء ، ممّا أثار خلال السنوات الأخيرة ، سلسلة هائلة من النزاعات حول هذه المسألة...فهناك شبه حالة حرب معلنة بين النشوئيين أنفسهم ، كل فرقة نشوئية توصي بتعديلات جديدة » ، وختم قائلا: « أمّا من جهة معرفة كيف ولماذا حدث فعلا الارتقاء ، فليست لدينا أدنى فكرة على ذلك ، ومن المحتمل أن لن نعرف أبدا ».

ويشاطر هيتشينغ هذا الرأي حيث يقول: « لقد اندلعت نزاعات بخصوص نظرية التطوّر...ولقد تحصّن المتخصّصون على مستوى عال وراء رأي مؤيّد وآخر معارض ، كما أوسع شتما بعضهم بعضا ». ويتعلّق الأمر في نظره بنزاع أكاديمي على نطاق واسع ، « فرَضِياً ، واحدة من تلك النزاعات التي تنشب في بعض الأحيان عندما تنهار إحدى النظريات فجأة تحت ثقل براهين متناقضة ، ثم تستبدل بنظرية جديدة ». ولقد لاحظت المجلّة العلمية البريطانية « نيو ساينتيست New Scientist » ، أن عددا متزايدا من العلماء وخصوصا من النشوئيين يؤكدون أن نظرية التطوّر لداروين ليست نظرية علمية بمعنى الكلمة...خاصّة وأنّ عددا من هؤلاء علماء لهم وزنهم[١]. ومن المستغرب حقيقة أن يحاول بعض أنصار هذه النظرية فرضها على العقول بقوّة القانون ، كما هو الحال ببعض المدارس الأمريكية ، كما سعت إلى ذلك الرابطة العلمية الأمريكية ، وهو ما عارضته بقوّة المؤسّسات الدينية الأمريكية. وقد حصل « وارن إِشْباش Warren Eschbach» أستاذ العقائد اللّوثرية في «بنسلفانيا Pennsylvanie» على دعم عشرة آلاف راع

(١) La Vie : Comment est-elle apparue ?, Evolution ou création ?. Imprimé par Wachtturm-Gesellschaft, Selters/Taunus, R.F.A. P 14.

بروتستانتي بقصد التصدّي لهذه النظرية ، وتحالف معهم الكاثوليك المنتصرين برأي البابا «بِنْوَا السادس عشر Benoît XVI» ، الذي يعتبر أنّ النظرية الداروينية لا تتلاءم والتعاليم الكاثوليكية[١] .

حاجة الإنسان إلى الدين:

تعني العقيدة في مطلقها التصديق بالشّيء والجزم به دون شكّ أو ريبة[٢] ، وهي مجموعة من قضايا الحقّ البدهيّة المسلّمة بالعقل والسّمع والفطرة ، والتي يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويثني عليها صدره جازما بصحّتها ، قاطعا بوجودها وثبوتها ، ولا يرى خلافها أنّه يصحّ أو يكون أبدا[٣] ، فهي الإيمان الثابت الذي يكيّف شخصيته الدينية ويوجّه حياته ويحكم سلوكه. وبما أنّ الأمر كذلك فهل يمكن الحديث فعلا عن انتفاء العقيدة حتّى عند الملاحدة؟ ، وهل يمكن الحديث عن قطيعة معرفيّة بين مكوّنات الفكر النّظري المادي عند الملاحدة وبين العقيدة كإيمان بحقائق الغيب؟.

إنّ الحديث عن انفصال بين البشريّة والدّين في مرحلة تاريخيّة ما دعوى باطلة لا يسندها دليل ، بل يعارضها صريح النقل ، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [٤] ، وهو دلالة على تواصل سلسلة الرّسل والأنبياء وأنّهم يدعون النّاس إلى توحيد الله وإخلاص عبادته والامتثال لشرعه مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

(١) (Voir : metro, mardi 21 Fevrier 2006, P 6 (www.metrofrance.com/monde).

(٢) انظر: السيّد سابق: العقائد الإسلاميّة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، هامش ص ٨.

(٣) انظر : أبو بكر جابر الجزائري: مصدر سابق ص ٢١ وما بعدها.

(٤) سورة فاطر : ٢٤.

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (١) ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢).

ويدلّ صحيح العقل على خلاف ذلك نسبة للبحوث العلمية والتّاريخية التي أثبتت أنّ نزعة التديّن في الإنسان أصيلة ، وأنّه كما قال « بازماك » (٣): « قد وجدت في التّاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر ولكن لم توجد مدن بلا معابد » . إنّ الشعور بالحاجة إلى العقيدة يستوي فيه الإنسان البدائي الذي تفاعل مع حقائق الوجود حسب طاقته الذّهنية وقدرته على الإدراك ، بخلاف الرّأي الذي ذهب إليه بعض علماء تاريخ الأديان من أنّ الإنسان نتيجة للظروف الصّعبة التي مرّ بها وكان يعيش تفاصيلها ، وما تخلّل ذلك من أصناف الخوف ، فالمرض يداهمه والفقر يؤزّه ، والرّعد يزلزل كيانه والبرق يخطف بصره ، وتحت تأثير ذلك اضطرّ للإيمان بقوّة غيبيّة ذات قدرة قاهرة لا تعجز سمّاها « إلها » ، يفزع إليه ويتقرّب بالعبادات. وبذلك يكون الإنسان هو الذي خلق الإله على تلك الهيئة وحدّد صفته وقدرته وفعله.... ويستوي في الحاجة إلى العقيدة العامّة والعلماء. من اعترف منهم بحقيقة الدّين وسلطانه على النّاس أو من ادّعى أن العلم قد أغنى عن العقيدة والدّين.

---

(١) سورة النّساء : ١٦٣.

(٢) سورة غافر : ٧٨.

(٣) مؤرّخ إغريقي .

إنّ التقدّم العلمي والتطوّر التقني مهما بلغا من مراتب التفوّق وخوارق الاكتشافات ، فإنّ جهدهما لم يتجاوز في الحقيقة إطار الكشف عن سنن الله في الكون والحياة والخلق ، والتعرّف على الأسرار التي أودعها الله في الأنفس والآفاق. وأنّ ذلك الجهد الكشفي شراكة بين المؤمن والكافر من تعرّف على أسبابه أخذ به ، وأنّ ادّعاء استغناء الإنسان عن الله وعن كلّ ما هوّ غيب لاعتباره مسك بعلوم الطبيعة وأسرار الكون ادّعاء باطل ، إذ إنّ أقصى ما يجيب عليه العلم هو سؤال كيف؟ وليس سؤال لماذا؟ ، إذ الإنسان ما زال يخاف ممّا حوله ويجهد نفسه لتوفير وسائل التأمين والحماية والضمان في الحياة. فالفارق جدّ كبير بين غاية العلم عند المؤمن الذي يسعى بذلك إلى تزكية النّفس وعبادة الله وبين غاية العلم والتعلّم عند غير المؤمن الذي يطمح للرّفاه فحسب ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، وهي في الحقيقة صورة جديدة للتناقض التاريخي بين العقل الإحيائي والعقل التجريدي. وبرغم التقدّم العلمي الهائل الذي من المفترض أن يحفز العلماء إلى التعرّف عن الله والإيمان به : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [2] ، فإنّ الاستكبار والتعنّت والجدال بغير الحقّ والغرور الذي أصاب عددا من العلماء ممّن تقدّمت بحوثهم الماديّة أشواطا منعهم من الإقرار بوجود الله والتّسليم له بالألوهيّة والربوبيّة ، برغم الدّافع الدّاخلي والنّداء الخفي الذي ما فتئ يوقظ فيه نداء الفطرة وداعي الإيمان.

لقد صاح كثير من العقلاء وممّن سلكوا طرائق في البحث جدّ موضوعية

(١) سورة الأنعام : ١٦٢.

(٢) سورة فاطر : ٢٨.

مطالبين بالرّجوع إلى الدّين والإيمان ، فأسلم الكثير منهم ، وحتّى من بقي على دينه فإنّه غير بعيد من الحقّ بقطعه مع دعوى اللاّدينية[1] ، كما يستوي في ذلك كبار الملاحدة والباحثين أصحاب الفكر الحر ، ممّن أدّت بهم دراساتهم العلمية إلى الوقوف على نفس النتائج تقريبا ، إلاّ أنّهم وبدافع موقفهم الفكري من الدين والغيب ، اتّجهوا نحو تأسيس دين جديد تحالف في وضعه علماء النّفس وعلماء الاجتماع ، مستهدفين وضع دين اصطناعي يهذّب الأخلاق ويراقب السلوك ، ويضمن سلامة المجمع وقد اصطلح على تسميته «القانون» ، يقنّن حركة النّاس فرادى وجماعات.

إنّ حاجة الإنسان للدّين نابعة من حاجته إلى قوانين ضابطة منظّمة تعدّل من غرائزه وتنظّم سلوكه وتوازن بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه والآخر الذي يقابله ، وفي ذلك تحقيق لسعادتَيْ الدّنيا والآخرة ، وأنّه كلّما سعت البشريّة لابتغاء ذلك كلّه في قوانين وضعية أو نحل أو مسالك بشريّة اجتهاديّة لم تزدد بذلك إلاّ شقاء وتعبا وابتعادا عن الحقّ وتنكّبا للصّواب.

لذلك يسعى الإنسان دائما إلى معرفة الله والتقرّب إليه ، فهو بفطرته ضعيف ، فيطلب عونه وتوفيقه ورعايته وحفظه ، فليزم نفسه ضروب الطّاعات والعبادات. كما أنّ طبيعة الإنسان نزّاعة إلى طلب الكمال والرقيّ في مدارج السموّ ، وأنّ ذلك لا يتمّ له إلاّ بتشريع ديني إلهي يلائم فطرته ويرشّد مسيرته ، فهو في حاجة إلى ذلك أكثر من حاجته إلى العناصر الحياتيّة الأوّلية ، وفي ذلك تحطيم لدعوى إمكانيّة استقلال العقل بالهداية والتّقدير والاستغناء عن الوحي الإلهي ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ

(١) Voir : Science & Vie, Août 2005, P 48.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) ، وأنّ مردّ ذلك إلى أمرين:

أ ـ أن العقل لا يهدي إلى المعرفة المطلقة إلاّ في ضوء الشّرع ونور وحيه ، لاعتباره آلة إدراك فقط ، فهو عاجز عن تجاوز حدود معيّنة.

ب ـ لذلك فإمكانية الاكتفاء بالمعرفة العقلية والاستغناء عن الوحي الإلهي دعوى باطلة ، وذلك للاعتبارات التّالية:

أوّلا: أنّ مختلف معارف الإنسان تجد أصولها وصورها الأولى في الوحي.

ثانيا: أنّ العلم المادي المجرّد لم يتجاوز في نفعه للإنسان الجانب المادي ، من حيث الرّفاه والكماليات ، ولم يخدم الرّوح الإنسانية وهو الأكثر أهميّة. والسّبب في ذلك قطيعته مع الدّين. والدّين الذي نقصده هو الدّين الذي شرعه الله وصحّت نسبته إليه تعالى(٢)؛ لأنّ كثيرا من الانحراف الذي عرفته العلوم المادية إنّما كان سببه ردّة فعل عنيفة ضدّ الكنيسة والجهاز الدّيني المسيطر ، الذي قطع بين العقل وإمكانيّة التّفكير الحرّ والمنطقي ؛ لذلك فإنّ المثال الذي يضرب دائما عن التقدّم العلمي المادي يقترن بالضّرورة بتمرّد أوروبا على الكنيسة والكفر بالله والتنكّر للدّين الذي كبّلها لقرون طويلة.

منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة:

لتعلّق العقيدة بحقائق الغيب فإنّه لا يمكن التعرّف عليها بمجرّد إعمال العقل فقط ، إذ هو عاجز على إدراك حقائق الغيب اعتمادا على وسائله الخاصّة من النّظر

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٦.

(٢) أبو بكر جابر الجزائري : مصدر سابق: ص ٣١ (بتصرّف).

والملاحظة والقياس، لتجاوز ذلك نطاق تحرّكه، فلو رام استكشاف أسرار الاعتقاد والتعرّف على ما وراء الطبيعة بوسائطه المعرفيّة تلك، لانتهى به الأمر إلى الكفر والجحود؛ لأنّ كثيرا من الحقائق القطعيّة لا سبيل للإيمان والتّصديق بها إلاّ الخبر الصّادق. إذا فلا بدّ من أخذ تلك الحقائق الثّابتة بالوحي دون غيره، في حين يمكن للعقل إدراك مسائلها واستيعابها؛ لأنّ هناك فرق بين إمكانيّة إدراك الشّيء والقدرة على معرفته ابتداء.

وقد حوى القرآن الكريم أسس المنهج السّديد، الذي يرشد النّاس إلى التعرّف على حقائق العقيدة بلا تعقيد أو وبعيدا عن الرّموز، وإنّما يدرك ذلك السّامع والقارئ من ذوي الفطر السّليمة، من العامّة والخاصّة، من دون اقتصار على متخصّص أو عالم متفقّه، وهي حكمة بالغة، لاعتبار أنّ القرآن الكريم جاء مخاطبا النّاس كافّة، مهما تفاوتت درجاتهم العلميّة أو تباينت مشاربهم المعرفيّة ودرجات تحصيلهم، فقد يسّره الله للذكر، وهذا وجه آخر من الإعجاز القرآني يضاف للوجوه الإعجازيّة الأخرى. فكثيرا ما يعدّد أهل التخصّص أوجه الإعجاز ويأتون على مجملها أحيانا ولكن يقع التغاضي غالبا على هذه الصّورة الإعجازيّة، فالإنسان يمرّ بآيات كثيرة تلفت انتباهه إلى الحياة والموت، أو الخلق والإنشاء، أو الإنبات والإخراج، وغير ذلك من أصناف الكمال الربّاني، وكثيرة هي الآيات التي تقرع الآذان دعوة لاستعمال العقل، وتوظيف هذه الأداة التي جعلت مناطا للتكليف وسببا لتحمّل المسؤولية، ويشنّع على المفرّطين في ذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1]. كما تأتي آيات أخرى حاسمة في مسائل الاعتقاد، لا تترك للعقل مجالا للمناقشة

(١) سورة محمّد: ٢٤.

أو التّقدير الذّاتي لتلك الحقائق ، مثل قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (١) .

لذلك تنوّعت الآيات القرآنيّة في عرض حقائق العقيدة الإسلاميّة ، مكوّنة بذلك منهجا متكاملا ، يجمع بين التقريرات النصيّة وبين دعوة العقل لتوظيف مبادئه ، وهي ميزة خصّ بها الدّين الإسلامي ، الذي رفع مكانة العقل وامتدح أهله ، بل وذمّ مغفليه ومحقّريه ، من الذين يتّبعون الموروث الباطل ويرهِبونَ العقل ويحجرون عليه حريّة النّظر والتّصديق بما هو حقائق فطريّة «**ما من مولود إلاّ ويولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**» ، وقد صنّف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ كتابا قيّما سمّاه «درء تعارض النّقل والعقل» ، ردّ فيه على فرية دعاة مصادمة نصوص الوحي للعقل الإنساني ، وحجرها عليه حريّة النّظر والتدبّر والفهم ، وسنحاول بحول الله تعالى في المعالم التّالية تبيين المنهج القرآني الذي رفع العقل وأعظم من شأن أهله.

أولا : الجمع بين العقل والنّقل(•): بتخصيص النّقل في توضيح مسائل العقيدة لارتباطها بالغيب ، إذ لا مجال لمعرفتها إلاّ الوحي ، ولا مجال للتّسليم بها إلاّ التصديق المطلق. وقد امتدح الله هذا الصنف من النّاس ، ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) سورة الحديد : ٥٧.

(•) لتوسّع : انظر عرض خضر سوندك في كتابه « مدخل جديد إلى عقيدة التّوحيد » ، المنهج القرآني في غرس العقيدة الإسلاميّة، على النّحو التّالي: ١ ـ أسلوب الإشهاد والمفاصلة ، ٢ ـ أسلوب التّهديد ، ٣ ـ إحاطة الله بالغيوب والأسرار ، ٤ ـ أسلوب شهادة الفطرة ، ٥ ـ أسلوب عرض آيات الله في الحياة. مكتبة المنار، طبعة ١/ ١٩٨٩، ص ٥٧ وما بعدها .

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)، ويبرز دور العقل في إدراك مسائل العقيدة واستيعابها. ففي الآية السابقة تعريف رائع جدا للمؤمنين، في نسق توحيدي يربط بين الكتاب المعني بالتعظيم الذي جعل هدى للمتّقين، ممّن توفّرت فيهم صفات معيّنة أعلاها وأبرزها ورأس أمرها الإيمان بالغيب، والذي يطلق عليه علماء العقيدة بالسمعيات، أي الذي مدار التصديق فيه قائم بالأساس على السماع، من دون إلغاء أو تنكّر للعقل، وخير دليل على ذلك لسان الكافرين الذي أبدى حسرتهم وندمهم على الماضي، ولكن ذلك بعد فوات الأوان ودخولهم النّار ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٢). فبصدّهم عن ذكر الله وتعطيلهم آلة التعقّل يكونوا قد وقعوا في ما نُهوا عنه من الجحود والإلحاد.

ثانيا: الجمع بين مخاطبة العقل وإثارة الوجدان: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣). ففي الآية لفت لانتباه النّاس إلى أهمية اللّيل كما نبّههم إلى أهمية النهار، الذي يشتاق إليه الإنسان بعد ليل طويل. فالقرآن الكريم يوقظهم هموم الإلف والعادة، ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة، وذلك حين يخيّل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا.

---

(١) سورة البقرة: ١ ـ ٥.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) سورة القصص: ٧٢.

فالنّاس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار ، ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف. فكيف بالناس لو ظلّ النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء ، وإن الحياة كلها معرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار[١].

ثالثا : التّركيز على أصل الإيمان: وهو الإيمان بالله تعالى خالقا ، وربّا وهاديا ، والذي يستتبعه بالضّرورة التّسليم ببقيّة مسائل الإيمان ، فإذا صلح إيمان الفرد صلح بقيّة عمله ، فالإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، مصداقا لحديث المصطفى ﷺ : « **قل آمنت بالله ثمّ استقم**»[٢].

رابعا : التّوجيه إلى الكون ، وعرض آيات الله في الحياة : وهو كتاب الله المنظور ، ففيه آيات الآفاق كثيرة ، من بديع صنع الله ، حيث تتجلّى قدرته وحكمته. وقد استفاد من ذلك كثير من علماء العقيدة عند وضعهم للبراهين الكونيّة على وجود الله. فَوِفق ذلك أسّس ابن رشد قواعده الاستدلالية في كتابه « مناهج الأدلّة في الكشف على قواعد أهل الملّة » ، وكذلك في كتابه الفريد « فصل المقال فيما بين الحكمة والشّريعة من الاتّصال» ، الذي أفرد فيه مبحثا سمّاه « الطريقة الشّرعية التي دعا الشارع منها جميع النّاس على اختلاف فطرهم إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه » ، خصّصه للتّفصيل في نوعين من الأدلّة ، بعد طرحه للسّؤال التّالي: ما هي الطريق الشّرعية التي نبّه الكتاب العزيز عليها واعتمدها الصحابة رضوان الله عليهم؟ ، قلنا: الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكلّ من بابها إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر في

---

(١) سيّد قطب: في ظلال القرآن ، ٥/ ٢٧٠٨ (بتصرف).

(٢) النّووي: الأربعون حديثا نوويّة.

جنسين ، أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ، ولنسمّ هذه دليل العناية. والطّريق الثّانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، مثل اختراع الحياة في الجماد ، والإدراكات الحسيّة والعقل ، ولنسمّ هذه دليل الاختراع »[١]. وأصله قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[٢].

خامسا : استخدام القياس العقلي الملزم ، وأسلوب شهادة الفطرة: وهي طريقة في الإقناع بالغة الأهميّة ، تنطلق ممّا يعرفه الإنسان للتّدليل على أمر غائب ممكن الوقوع ، ومثاله ما صرّح به القرآن الكريم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٣]. قال الخطابي: « فَوُجِدوا بلا خالق ، وذلك ما لا يجوز أن يكون ؛ لأنّ تعلّق الخلق بالخالق من ضرورة الأَمرِ ، فلابدّ له من خالق ، فإذا قد أنكروا الإله الخالق ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم ، أفهم الخالقون لأنفسهم وذلك في الفساد أكثر ، وفي الباطل أشدّ ؛ لأنّ ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفا بالقدرة وكيف يخلق؟ وكيف يتأتّى منه الفعل؟ ، وإذا بطل الوجهان معا قامت الحجّة عليهم بأنّ لهم خالقا ، فليؤمنوا به... ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ ، وذلك شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه ، فهم منقطعون والحجّة قائمة عليهم » .

---

(١) محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن رشد الأندلسي: فصل المقال ص ٦٠.

(٢) سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) سورة الطور: ٣٥ ، ٣٦.

سادسا : المقارنة بين إحاطة الله بالغيوب والأسرار ، وقصور المعرفة الإنسانية: لمّا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق المبدع المدبّر لهذا الكون ، فلا بدّ أن يكون محيطا بكلّ خفاياه ودقائقه ، إنّها إحاطة عن علم وخبرة ؛ لأنّ الوجود كلّه صادر عن إرادته ومستسلم لنظامه وسننه ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ، إنّها صورة لعلم الله الشّامل المحيط ، الذي لا يندّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، ولا في الأرض ولا في السماء...

سابعا : التّأكيد على أنّ الإيمان لا يكتمل ولا يثبت إلاّ إذا اقترن بالعمل: فالعقيدة في منهج القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة ليست مجرّد مَعَارف نظريّة جامدة ، ولكنّها ترتبط بالمشاعر والسّلوك ؛ لذلك نستفيد من أمر نزول القرآن الكريم منجّما حكمة بالغة ، وهي تيسير العمل به للنّاس ، فكان النّاس يأخذون ذلك مباشرة عن رسول الله ﷺ ، ويطبّقونه عمليّا على أرض الواقع ، فلا تنزل آية أخرى أو جزء من القرآن إلاّ وقد فُهِمَ الذي أُنزِل سابقا ، وهو ما عبّر عنه أحد الصّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بقوله: « كان رسول الله ﷺ يفرغُنا ثمّ يُملؤُنا » ، فالإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل. وبهذا المقياس يتفاضل النّاس في ما بينهم ، وهو كثرة العمل الصّالح ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [1] ، وهكذا يرتقي الإنسان في مدارج السّالكين ، حتّى يفتح الله عليه فتوحا ربانية ، ويرفعه مراتب عُلْوِيَّة ، حتّى ينال درجة الإحسان فيعبد الله كأنّه يراه ، فإن لم يكن يراه فهو يراه ، مصداقا لحديث الرّسول ﷺ : « **... الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه فإن**

(١) سورة الحجرات : ١٣.

لم تكن تراه فهو يراك »[١].

ثامنا : أسلوب الإشهاد والمفاصلة: وفي هذا الأسلوب توجّه للنّفس البشرية خاصّة ، التي أُخِذ منها ميثاقا غليضا ، تحفظه وتلتزمه ، فيستثير في داخلها العهد مع الله عزّ وجل ، ويتجلّى ذلك في أخطر قضيّة إيمانية وهي المتعلّقة بالولاء والتّسليم المطلق لله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٢] .

الوجود في القرآن الكريم:

ينقسم العالم في تكوينه إلى عالم مشاهَد مادي محسوس ، وعالم غيبي لا نراه يطلق عليه فكريا عالم ما وراء الطبيعة أو الماورائي. فنتعرّف على الأوّل من خلال حواسّنا المناسبة المهيّأة لذلك. أي أنّ كلّ الأشياء التي اتّصلت بها حواسّنا هي في عرفنا أشياء مادّية ؛ لأنّنا شهدناها شهودا حسّيا ، ولا يشكّ بوجودها إلاّ فاقد الحسّ. والعالم الغيبي الماورائي ، وبالرّغم من توفّر كلّ مقوّمات الحياة والحركة فيه ، فإنّ حواسّنا البشريّة التّقليدية لا تدركه ، لاعتباره يتوفّر على أنواع من المعارف لها خصائص أرقى ، تتطلّب نوعا من الإدراكات أرقى وأقرب إلى خصائص ذلك الواقع ؛ لذلك كلّما تقدّم الإنسان في بحثه العلمي ، كلّما تعرّف على خصائص ذلك العالم ، وكشف عن الكثير من أستار أسراره. فالعالم مشحون بأسرار كثيرة أودعها الله سبحانه وتعالى فيه ، فهي موجودة حقّا ، ونؤمن بوجودها ، وإن كانت غائبة عنّا محجوبة لا نراها ؛ لذلك نسمّيها حال سِترها

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) سورة الأنعام : ١٤ ، ١٥.

أمورا غيبيّة ، ينكشف البعض منها كلّما تمكّن الإنسان من معرفة سنن الكون وقوانين المادّة ، لذلك نسميها « الغيب العلمي » ، الذي يستدعي شروطا معيّنة للتعرّف على ماهيّته ، لينتفع الإنسان بذلك فيما يصلح حاله ومآله.

وبناء على ذلك كانت الإجابة القرآنيّة حاسمة قاطعة لمّا وجّه المشركون السّؤال للرّسول ﷺ عن طبيعة الرّوح ، فجاء قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] ، فالرّوح حقيقة كائنة لا يناقش ثبوتها عاقل ، سارية في أجسامنا ، لا نسمعها ولا نراها ولا نتذوّق طعمها أو نشمّ رائحتها ، ولا تخضع لقوانين الحواسّ والتّعامل المادّي المجرّد ، أو لمقاييس أخرى ألِفَها الإنسان ، وبرغم ذلك فهي شهادة حياتنا ودليل وجودنا ، كالذي يجمع بين قطعتين من الحديد ، لهما نفس الخصائص من الوزن والقيمة واللّون والطّبيعة الظّاهرة للعيّان ، ولكن تستبطن أحدهما قوّة مغناطيسيّة جاذبة ، تجرّ القطعة الأخرى إليها وتلتصق بها ، فلو أرنا تجريد القطعة الأولى من خصائصها فلن نقدر على ذلك ؛ لأنّ الطّبيعة الذّاتية لها هي المغناطيس الذي لا نراه ولن نعثر عليه لو فتّشنا عنه ، ولكن نشاهد آثاره وندرك فعله في واقع الأشياء.

وكثيرة هي الأمور التي كانت من الغيبيّات التي يجهلها السّابقون ، ثمّ انكشفت للمتأخّرين عن طريق البحث العلمي ، وهي التي وجّهنا الله سبحانه وتعالى لمعرفتها حتّى يستقيم أمر حياتنا ، بتعرّفنا على قوانين المادّة وسنن الكون وأسرار الوجود ، بل هي التي وردت في إطار مدح أهل العلم وأولي النّهى ، من الذين يحرّكون عقولهم للإنتاج المثمر ، ويستنفرونها لتأدية وظيفتها في الحياة كما أراد الله تعالى ذلك ، كما ورد ذمّ للذين عطّلوا قيمة العقل ، وكبّلوه بحواجب

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥.

كثيرة تعيق حركته وتمنعه من تأدية دوره ، وهو ما أشارت إليه آي الذِّكر الحكيم في أكثر من موضع ، مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [١] ، وكذلك : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [٤].

لذلك يتعرّف الإنسان بالبحث العلمي على طبيعة الحياة في كواكب أخرى ، فتنكشف له أسرارها التي كانت غيبا ، فتصبح من الأمور المادية المشاهدة لنا ، وكذلك الأمر بالنّسبة لقضايا تكوّن السّحب ونزول الأمطار ، وتخلّق الجنين في بطن أمّه ، كذا إمكانيّة التّلقيح خارج الرّحم ، والتعرّف على الخصائص الوراثيّة وقضيّة الاستنساخ ، وما إلى ذلك من صور التقدّم العلمي المذهل لمن لا يعرف حقيقته. وأنّ كلّ ذلك واجب ديني عبادي قبل أن يكون صنعة ينتفع بها ماديا على مستوى الأفراد والجماعات. إلاّ أنّ ذلك التقدّم العلمي والكشف المستمرّ لأستار الحقائق الكّونية ، لا يعدّ انتهاكا لعالم الغيب الذي استأثر الله به لنفسه ، أو تحد للذّات العليّة في علمه وملكوته ، فالذي تعرّف عليه الإنسان هو ما تتمّ به حياته ، إذ لو قصّر في طلبه لتعطّلت حياته وأخلّ برسالة وجوده.

وبحسب الاصطلاح القرآني فإنّ العالم ينقسم قسمين: عالم الغيب وعالم

---

(١) سورة الحج : ٤٦.

(١) سورة الفرقان : ٤٤.

(٢) سورة يونس : ١٠١.

(٤) سورة سبأ : ٤٦.

الشّهادة. وقد وردت الكثير من النّصوص القرآنيّة التي تشير إلى هذه الحقيقة، وتكشف عن تفاصيلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ (٢).

والغيب هو كلّ أمر غاب عنّا لا ندركه بحواسنا على ما جرت عليه العادة، والذي يقابله الشّهادة أي كلّ ما نتمكّن من معرفته بحسب الطّرق الحسيّة المعهودة عندنا. وللإيمان بالغيب مكانة عظمى في العقيدة الإسلاميّة؛ لذلك نجد أنّ ذكره في القرآن الكريم يرد دائما قبل ذكر الشّهادة، بل وجعل الله الإيمان بذلك مدحا لأصحابه، ونعتا لهم بمحاسن الصّفات، والحكمة من ذلك أنّ الأمور التي يمكن أن ندركها شهادةً محدودة يسيرة، بخلاف الغائبة عنّا فهي لا تتناهى سعة ومدى، وأن لا طريق إلى القطع بحقيقتها إلاّ الخبر الصّادق، وأنّ الأمور التي هي من الغيب الآني والتي من الممكن أن ندركها ونكشِفَ عنها، إنّما هي طريق للإيمان بالغيب الذي جعل من صفة المؤمنين كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الحشر: ٢٢.

(٢) سورة الرّعد: ٨ ـ ١٠.

(٣) سورة البقرة: ٣.

(٤) سورة الملك: ١٢.

وبحسب الآيات القرآنيّة فإنّ الغيب ينقسم إلى قسمين: قسم استأثر الله به لنفسه ، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١] ، وحجبه حتّى عن رسله ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٣] ، وقسم قد يطلع الله عليه بعض رسله ، لقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [٤] .

نظرية المعرفة الإسلامية:

تحدّد تلك المنطلقات مستقبل المعرفة الإسلامية. فالحديث عن نظريّة المعرفة في الإسلام ، ليس توصيفا لصور الإدراك المادي أو عرضا لمختلف النظريّات الفلسفيّة التي تناولت المبحث بصور شتّى ، وإنّما تعتبر نظريّة المعرفة الإسلاميّة جوهر الدّين الإسلامي ، وسبيل التعرّف على حقائق التّوحيد. ولقد أدرك علماء

(١) سورة الأنعام : ٥٩ ، ٦٠.

(٢) سورة آل عمران : ١٧٩.

(٣) سورة الأنعام : ٥٠.

(٤) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧.

الإسلام أهميّة ذلك ، فاهتمّوا ببيان العلم وفضله ، وبيان حدوده ومناهجه ، وحرصوا على تحديد مفهومه ، وضبط مساره ورسم إطاره ، وبيان حدّه ، وقد كان حرصهم ذلك ناتجا عن إدراكهم لأهميّة العلم وعظم شأنه ، حتّى قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ فيه: « إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذوا دينكم » ، وقال ابن القيّم: « والإيمان واليقين يُورثان صحّة المعرفة وصحّة الإرادة ، وهما يورثان الإيمان ويمدانه » ، ومن هنا يتبيّن لنا أنّ انحراف أكثر النّاس عن الإيمان كان لانحرافهم عن صحّة المعرفة وصحّة الإرادة ، ولا يتمّ إيمان إلاّ بتلقّي المعرفة من مشكاة النبوّة ، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق ، فيكون علمه مقتبَسا من مشكاة الوحي ، وإرادته لله والدّار الآخرة.

وبمراجعتنا لكتب التّراث الإسلامي نجد اهتماما كبيرا من قبل العلماء لتحديد مصطلح العلم والمعرفة ، فهم يقولون: بأنّ شرط كون الشّيء حقًّا أو صدقا ، هو أن يكون هذا الشّيء الذي نقوله أو نعتقده مطابقا للواقع ، وفي هذا السياق يقول الإمام ابن القيّم: « العلم نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النّفس ، والعمل نقل صورة علميّة من النّفس وإثباتها في الخارج ، فإن كان الثّابت في النّفس مطابقا للحقيقة في نفسها فهو علم صحيح »[1] ، وهذه القاعدة والتي هي من أهمّ قواعد مفهوم العلم تنبني عليها قواعد أخرى في قضيّة المنهج ، وقد أكّد القرآن الكريم على ذلك تأكيدا بيّنا في قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[2] ، فقد أوضحت

(١) ابن قيّم الجوزيّة: الفوائد، دار النّفائس ، طبعة ٢/ ١٩٨٢ ، ص ١١٠ ، ١١١.

(٢) سورة الأحزاب : ٤.

الآية أنّ الكلام لا يكون حقّا إلاّ إذا كان مطابقا للواقع.

ويُؤصّل الإمام الشّاطبي مفهوم التطابق على أنّه الحدّ اللاّزم للعلم، وذلك بقوله: « إنّ العلم المطلوب إنّما يراد بالفرض، لتقع الأعمال في الوجود على وفقه من غير تخلّف، كانت الأعمال قلبيّة أو لسانيّة أو من أعمال الجوارح، فإن جرت على المعتاد على وفقه من غير تخلّف، فهو حقيقة العلم بالنّسبة إليه، وإلاّ لم يكن بالنّسبة إليه علما لتخلّفه، وذلك فاسد لأنّه من انقلاب العلم جهلاً، ومثاله في علم الشّريعة الذي نحن في تأصيل أصوله، أنّه قد تبيّن في أصول الدّين امتناع التخلّف في خبر الله تعالى، وخبر رسول الله ﷺ، وثبت في الأصول الفقهيّة امتناع التّكليف بما لا يطاق، والحق به امتناع التّكليف بما فيه حرج خارج عن المعتاد، فإذن كلّ أصل شرعي تخلّف عن جريانه على هذه المجاري فلم يطّرد، ولا استقام بحسبها في العادة فليس بأصل يعتمد عليه، ولا قاعدة يستند إليها »[1]، فهو يؤصّل للمطابقة في الأشياء المحسوسة والأمور المعنويّة والقوليّة.

فالواقع هو ما كان موجودا بالفعل سواء في الواقع الحسّي الذي نستطيع إثبات وجوده بالحسّ، أو ما كان في الواقع الغيبي، إذ الغيب جزء من الواقع، وطريقنا إلى إثباته هو التأكّد من صحّة نقله إلينا، وفي ذلك يقول ابن تيمية: « إنّ ما هوّ ثابت في نفس الأمر بالسّمع أو بغيره هو ثابت، سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته، أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره، إذ عدم العلم ليس علما بالعدم، وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها »[2]؛ لذلك فالواقع يشمل ما نعلمه وما لا نعلمه؛ لأنّ عدم علمنا بالشّيء، لا يعني عدم وجود الشّيء المجهول لدينا، فالأمور الغيبيّة هي واقع ليس من حيث إنّنا شاهدناها أو لمسناها، أو سمعناها أو

(١) الشّاطبي: الموافقات في أصول الشّريعة، دار الباز، مكّة المكرّمة ص ٩٩.

(٢) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥، ١ / ٨٢.

شممناها ، ولكن لأنّنا أوّلا: لا نملك أن ننفي وجودها ، وثانيا: إنّنا علمناها بالخبر الذي تأكّدنا يقينا بصحّته وسلامة نقله ، فكلّ شيء يتثبّت من وجوده بحسبه ، فالمشاهد بالمشاهدة ، والمسموع بالسّمع ، وما يأتينا عن طريق الخبر بالتثبّت من صحّة طريقة النّقل وسلامة السّند والمتن.

وسائط الإدراك ومحدودية العقل:

إنّ الذي يقرأ كتاب الله الكريم بتمعّن ، في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من العلم ، يجد نفسه أمام حشدٍ من الآيات البيّنات ممتدّة وفق أبعاد أربعة توازي المسألة العلميّة في اتّجاهاتها كافّة ، يتناول أوّلها مسائل تتعلّق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه ، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظريّة المعرفة ، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلميّة المختلفة ، ويعرض ثالثها لمجموعة من السّنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة ، وخاصّة الطّبيعة والجغرافيا وعلم الحياة ، فيما يسمّى بالعلوم المحضة أو الصِّرفة ، ويدعو رابعها لاستخدام هذه السّنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث ، من أجل ترقية الحياة وتنميّتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم ، فيما يعرف بالعلوم التّطبيقية ، وما من شكٍّ أنّ هناك ارتباطا وثيقا ومحكما بين هذه الأبعاد ، يقود أحدهما إلى الآخر[1].

ففي داخل الإنسان قوّة إدراكيّة كبيرة ، ولكن مدركاتها لا تنبع من داخلها وإنّما تأتيها من العالم الخارجي عنها ، ولهذه القوّة الإدراكيّة في الإنسان منافذ تطلّ منها على العالم الخارجي ألا وهي الحواسّ الخمس ، فبمقدار ما تنقل هذه

(١) عماد الدّين خليل: مدخل إلى إسلاميّة المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطّبعة الأولى ١٩٩١ ، ص ٢٧.

الحواسّ من حقائق للقوّة الإدراكيّة تستطيع أن تتخيّل وتدرك ، وتحلّل وتركّب ، وتستنتج القواعد العامّة ، وتقيس الأشباه والنّظائر على بعضها ، ولا تستطيع شيئا غير ذلك ولا أكثر من ذلك[١] ، فالعقل والحواس جميعا مسؤولة ، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمّل تبعة البحث والتّمحيص والاستقراء والاختيار ، ومن ثم تتوالى الآيات ، تؤكّد على أنّ السّمع والبصر والفؤاد جميعا هي التي تعطي الحياة الإنسانيّة قيمتها وتفرّدها ، وأنّ الإنسان بتحريكه هذه القوى أو الطّاقات ، بفتح هذه النّوافذ على مصراعيها ، باستغلال قدراته العجيبة حتّى النّهاية ، سيصل إلى قمّة تفوّقه العلمي والدّيني على السّواء ، كما ثمّة ما يقرب الخمسين آية في القرآن الكريم تحثّ على تحريك العقل ، المفتاح الذي منحه الله لبني آدم كي يفتحوا به أبواب الملكوت ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخّر لهم ما في السّماوات والأرض ، وآيات أخرى دعت الإنسان إلى التفكّر العميق المتبصّر المسؤول بكلّ ما يحيط به من ظواهر وشواهد وموجودات وأشياء[٢].

إلاّ أنّ المعرفة العقليّة الحسيّة برغم نتائجها المقدّرة ، وما لها من أثر في حياة الإنسان فإنّها تبقى دائما نسبيّة ، لخضوعها لحدَّيْ الزّمان والمكان وارتهانها للمحسوس ، فهي معرفة محدودة على قول الإمام الشّافعي: « إنّ للعقل حدّا ينتهي إليه كما أنّ للبصر حدّا ينتهي إليه » ، وقال الإمام الغزالي : « ولا تستبعد أيّها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل » ، وبناء على ذلك يمكن أن نخلص إلى الحقائق التّالية :

---

(١) عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلاميّة وأسسها ص ١٥.

(٢) عماد الدّين خليل: مدخل إلى إسلاميّة المعرفة ص ٣٣.

ـ إنّ حواسنا التي هي طرق العلم لدينا محدودة لا تتناول كلّ شيء موجود.

ـ إنّ قدرة التخيّل فينا محدودة في حدود ما يردنا عن طريق الحواس.

ـ إنّ عقولنا محدودة لا تستطيع أن تدرك جميع الحقائق الكائنة إدراكا واضحا وإن اضطرّت إلى التّسليم بها عقلا[١].

ـ إنّ المعرفة العقليّة النسبية تحيلنا على المعرفة المُطْلقة ، وهي رافد من روافد التّسليم بالمعرفة الحقيقية التي تصدر عن الخبر الشّرعي ؛ لذلك فالعقل أداة للتّصديق والتّأكيد والاستيعاب في آن ، وأنّه لا معنى لمقولة تنافر النصّ والعقل ، إذ الوحي كاشف لحقائق الاعتقاد والعقل مدرك لذلك.

ومن تلك المنطلقات الفكرية يتبيّن لنا أن الإيمان بالله تعالى هو محور المعرفة الإسلامية ، إذ في ضوئه تبنى كلّ معارف الإنسان وتصوّراته لعالم الأشياء ، وفق نسق فلسفي مركّب ، ينبني هويته على الكليات ، ومنها يؤسّس للقضايا الفرعية الجزئية ، والتي تعرف تحت مصطلح « الفكر الإسلامي » ، الذي هو حركة العقل المنطلقة من النصوص والمتفاعلة مع الواقع ، في مزاوجة معرفية تجمع بين الفهم والتنزيل المنضبطين بنصوص الوحي الخالد ، كأداة معيارية إسلامية متميّزة.

ب ـ أركان الإيمان:

أولا : الإيمان بالله:

إنّ معرفة الله تعالى هي أسمى المعارف وأجلّها ، وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحيّة كلّها[٢] ، وعليه تنبني معارفنا وتُؤسّس أفكارنا ، فهو أساس

(١) عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميداني: العقيدة الإسلاميّة وأسسها ص ٢٢.

(٢) سيّد سابق: العقائد الإسلاميّة : ص ١٩.

التّصديق بالرّسالة والإيمان بالنبوّة، ومعرفة عالم الغيب: من ملائكة وجنّ، وعالم البرزخ، واليوم الآخر والجنّة والنّار، والثواب والعقاب، أي كلّ ما له صلة بحياة الإنسان الدنيويّة والأخرويّة. وبرغم استقرار هذا الأمر عقيدة عند النّاس، إلاّ أنّه قد طرحت عند أهل العلم أسئلة كثيرة حول طريقة إثبات الوجود الإلهي والاستدلال عليه، فهل الإيمان بالله فطرة في الإنسان جبل عليها، فلا اجتهاد له في ذلك، فيتساوى النّاس في ذلك، ويتشابهون؟، أم هو عمل كسبي حصّله بسعيه وبحثه؟، فيقدّر على أساس ذلك اختلاف النّاس وتفاوت درجات إيمانهم، بل فيهم من هو مؤمن تقيّ، وآخر كافر عاص، قصّر في التعرّف على الله تعالى، بتعطيل وسائل المعرفة عنده. فإذا كان الأمر كذلك فما هي طرق التعرّف على الله تعالى؟.

تراوحت المسألة بين مقولتي الفطرة والكسب، ولكنّهما لم يتنافرا، فقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد الرّأيين معا، منها آيات تفيد فطريّة التعرّف على الله ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾(٢)، وقال الرّسول ﷺ: « **كلّ مولود يولَدُ على الفطرة فأبواهُ يهوّدانهِ أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ، كما تنتِجُ البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** »(٣).

---

(١) سورة الرّوم: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز.

فأثبت الحديث بذلك فطريّة العاطفة الدينيّة بإثبات فطريّة التّوحيد ، والجهد الكسبي هو عمل تزول به الغشاوة الحادثة الطّارئة على الفطرة الإنسانيّة ، مصداقا لما يرويه الرّسول ﷺ عن ربّه : « **إنّي خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهُم وأنَّهُم أتَتْهُمُ الشياطينُ فأجالتهُم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتهُم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانا** »[١].

وكثيرة هي الشواهد التي تفيد بأنّ الإيمان فطري في الإنسان ، وأنّه ركّب فيه الاستعداد الكافي للإقرار بذلك ، بعكس النظريّات الماديّة الإلحاديّة التي ترى أنّ التديّن هو عمل تجريبي تطوّري ، يتبع أطوار نموّ الإنسان ويتأسّس من خلال مراحله المختلفة ؛ لذلك فهو عندهم جزء من التّجربة الثقافيّة العامّة وليس شيئا مقدّسا ، يرتبط مباشرة بالذّات العليّة ، ممّا أنتج عندهم فهما منحرفا للدّين ، تنقصه الموضوعية ، ولا يصلح تفسيرا لحقيقة الدّين والإيمان وما يرتبط بذلك من التزام تربوي وسلوك أخلاقي. إلاّ أنّ أدلّة فطريّة الإيمان كثيرة تتعرّف عليها النّفس السويّة ، فإنّنا نجدها بيّنة بالتّحليل في الذّات النّفسية للإنسان ، وفي الذّات الاجتماعيّة له عبر تاريخها الطّويل ، كما نلقي نصوص الوحي تؤيّد ما يصل إليه العقل بهذا التّحليل[٢].

والمستقصي لأدلّة فطرية الإيمان ، لا يقف عليها حصرا وعدا ، لكثرة محاورها المتعلّقة بها والدّالة على أصالة ورسوخ الإيمان بالله في النفس البشرية. إذ القارئ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجنّة والنّار ، باب الصّفات يعرف بها أهل الجنّة وأهل النّار.

(٢) عبد المجيد عمر النجّار: الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٣٤، كما يمكن مراجعة الشواهد السّابقة في نفس الصفحات الموالية.

لكتاب الله المتدبّر لمعانيه ، والناظر في ملكوت السماوات والأرض ، والمطّلع على حقائق التاريخ البشري بتفاصيلة الدقيقة ، تنقدح له من الأدّلة الشيء الكثير. فمنها الشّاهد النّفسي ، الذي يحيل على حقيقة شعورية مفادها: أنّ أي إنسان إلاّ ويجد في نفسه لحظات الصفاء الرّوحي شوقا إلى ذات عليّة قويّة يطلب عندها الحماية والأمن ، يتصوّر فيها أوصاف القوّة المطلقة والقدرة الخارقة ، التي تنفي عنها أسباب النّقص والعجز ، وكلّ شبه لحال الإنسان. ومن الممكن أن يعاند الإنسان ويستكبر ، ويأخذه العجب بنفسه فيشتدّ طغيانه ويظهر فساده ، إلاّ أنّه في لحظة ضعفٍ وعجز تعييه الحيلة ، فلا يجد ملجأ من الله إلاّ إليه. وحينذاك لا يملك لنفسه إلاّ الفزع إلى الله يطلب منه النجاة ، كحال فرعون الذي استكبر في الأرض بغير الحق وادّعى الألوهيّة ، إلاّ أنّه عندما قصر به الطريق وانتفت بذلك أسباب العون والمدد إلاّ ما قدّره الله تعالى أعلن إيمانه وتوبته: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[1].

كما تحيلنا وقائع الاجتماع البشري على حقيقة ثابتة مفادها أنّه من الممكن أن نجد أمما وشعوبا من غير علوم وفنون ، ولكن لم تحدّثنا الدراسات والبحوث الاجتماعية أن أحدا منها ليس له دين يتديّن به أو عقيدة يلتزمها في حياته ، وحتّى الذين انحرفوا عن طبيعة الفطرة الإيمانيّة واتّخذوا مع الله أندادا ، فإنّهم دائما يجعلون مع هذه الآلهة إله هو الأكبر بينما الأخرى وسائط مؤدّية إليه. وقبل ذلك وبعد نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة شاهدة ومؤكّدة على فطريّة الإيمان بالله تعالى ، والتي هي قاسم مشترك بين جميع البشر: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ

(١) سورة يونس : ٩٠.

فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (٢) ، وأنّ ما يطرأ على النّفس البشرية من غشاوات إنّما هي من كسبه قابلة للإزالة .

فيخبرنا القرآن الكريم أنّ الأصل في الإيمان هو سلامته من الانحراف وخلوصه من الشوائب ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (٣) ، إلاّ أنّ ذلك لا ينفي مسؤولية الإنسان عن انحرافه وما كسبت يداه. فهو عمل كسبي داخل في مقدوره ، كلّما زاد إيغالا في المعصية وارتكاب الذنوب كلّما ابتعد عن الصلاح وتنكّب الصواب ، وتلك هي حواجب الفطرة الإيمانيّة وإن تنوّعت وتعدّدت ، إلاّ أنّ فعلها واحد وهو الانحراف بالفطرة عن حالتها الطبيعيّة؛ من سلامة الإيمان وصفاء الاعتقاد. فمنها أهواء النفوس التي يتعوّدها الإنسان فيركن إليها ، وقد وصف القرآن الكريم حال هذا الصّنف من النّاس: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (٤) ، وهو ما جاء في حديث النبي ﷺ : « **إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت ، فذلك الرّان الذي ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه** » (٥) : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٦) .

ومنها الاستكبار والعلو في الأرض بغير الحق. فقد يكون الإنسان متّصفا

---

(١) سورة الرّوم : ٣٠.

(٢) سورة الأعراف : ١٧٢.

(٣) سورة الزّمر : ١١.

(٤) سورة مريم : ٥٩.

(٥) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الزّهد ، باب ذكر الذّنوب.

(٦) سورة المطفّفين : ١٤.

بصفات خيّرة مفطور عليها كالعلم والذّكاء ، وقد يكتسب أخرى كالجاه والمال والتمكّن بالسّلطان ، فتُدخل على نفسه العُجب فيورثه ذلك الاستعلاء والشّعور بالقوّة ممّا يؤدّي به إلى البطر والرياء ، وعدم الاستفادة من تلك النّعم التي أغدقها الله تعالى عليه ، وينسحب ذلك على الفرد كما الجماعة ، مثل قوم عاد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [١]. كما يؤدّي التّقليد إلى نفس العواقب ، فَبِه تتكوّن حواجب الفطرة بالتّدريج عبر الزّمن ، وتنتشر بين النّاس بالمحاكاة والتّقليد ، حتّى يتوارثوا ذلك بينهم ويتناقله جيلٌ عن الذي سبقه ، فيتطبّع الأبناء بما وجدوا عليه الآباء ، فيكون ذلك عاملا في نسج الغشاوة على القلوب ، ويكون الانحراف في التصوّر والسّلوك. وهي الصوّر التي حدّثنا عنها القرآن الكريم ، بل إنّ كثيرا من صور الانحراف لم تكن مقصودة في ذاتها ، كأن يعتقد الصّلاح في بشرٍ ما فيتوارث النّاس ذلك ، ممّا ينتهي إلى وثنيّة وشرك ونحت للأصنام ، ثمّ اتّخاذها آلهة من دون الله: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [٢].

إنّ الإنسان مطلوب منه في التّكليف الإنساني أن يكون على وعي معرفي إيماني بالله تعالى وجودا وصفات. لتكون فطرته الإيمانيّة دائما على نقائها وحالها الطبيعي الذي خلقت عليه ، لا تصيبه الغشاوة والحواجب التي تتراكم على القلب مكوّنة رانا يحجبه عن معرفة الحقّ والتّفريق بينه وبين الباطل ، وكلّ صور الضّلال

(١) سورة فصّلت : ١٥.

(٢) سورة الصافات : ٦٩، ٧٠.

والانحراف ، ثمّ ينتهي إلى التّعليل الجبري اعتذارا على ما يرتكب من ذنوب وما انتهى إليه من انحراف على مستوى العقيدة والسّلوك معا. فالتّكليف بالإيمان بالله هو تكليف بالمحافظة على الإيمان الفطري ، وليس بحثا في صدق الإيمان من عدمه ، كما انتهت إلى ذلك بقية الفلسفات ، التي جعلت من ركن الإيمان بالله موضوعا للنّقاش والتّداول[١].

أدلة وجود الله :

يمكن أن نقسّم ذلك إلى دليلين اثنين ، يتعلّق الأوّل بالعقل ويتّصل الثاني بالأسماء والصفات. وهي أدلّة يستمدّها الإنسان من القرآن الكريم ، كما يمكن أن يستمدّها من خلال مشاهداته الهادفة وملاحظاته الموجّهة ، إذ العقل شراكة بين النّاس ، إن أعملوه وفق شروط النّظر الصحيح أفاد نتائج صحيحة ، يجمع الجميع حول صحّتها ويسلّم بنتائجها. وهي نعمة منّ الله بها على من لم يسلّم ابتداء بصحّة النصّ ، فاتّسع له المجال لإعمال عقله والاهتداء به إلى الحق.

أ ـ دليل العقل:

لقد سبق وأن ذكرنا أنّ معرفة الله تعالى هي أسمى المعارف وأجلّها ، وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحيّة كلّها[٢] ، فالإيمان بوجود الله تعالى هو أساس العقيدة . فكلّ مسائلها إنّما هي فروع من هذا الإيمان بما في ذلك الإيمان بصفاته تعالى . فما نشاهده من حقائق الكّون إنّما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى ، ألا وهي ذات الله ﷻ ، ومن المحال أن تدرك ماهية الحقائق المتفرّعة

(١) انظر عبد المجيد عمر النجّار: الإيمان ص ٤٥ وما بعدها (بتصرّف).

(٢) سيّد سابق: العقائد الإسلاميّة ص ١٩.

الصّغرى قبل أن تدرك منبعها وأصلها الأوّل ، فكان لا بدّ إذا ، للتعرّف على الكّون من معرفة خالقه أوّلا[١].

ويعبّر عن مسلك العقل بدليل الأنفس والآفاق ، والذي يوجّه فيه القرآن الكريم العقول إلى النّظر في آفاق الكون بعناصره المختلفة ، والانتقال منها إلى ما وراء علّة وجودها ، كما وجّه فيها الأنظار أيضا إلى ذات النّفس الإنسانيّة لتحصيل ذلك الإيمان ، بقوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[٢]. وهو مسلك سهل وسليم في آن واحد للبحث عن الإيمان بالله والتّصديق به ، فباحترام العقل وقبول أحكامه التي يصدرها على الأشياء ؛ نفيا وإثباتا ، هو دلالة على قدرته النّافذة في تحقيق الإيمان بالله؛ بوجوده ومعرفته وطاعته والتقرّب إليه والأخذ بهدايته والسير في طريق أوليائه[٣].

وقد وردت آيات قرآنيّة كثيرة تمدح العقل ، وتوجّه النّاس إلى ضرورة احترامه وتوظيفه ، وقد جعله الله تعالى مناطا للتّكليف وسببا لتحمّل المسؤوليّة ، فورد ذكر مادّة العقل أو أحد مشتقّاته في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرّة ، بين مدح أهله ، وذمّ الغافلين الذين يعطّلونه بسبب من الأسباب. وألّف شيخ الإسلام ابن تيميّة كتابا ضخما سمّاه « درء تعارض النّقل والعقل » ، ردّ فيه على من زعم أنّ بين العقل والوحي صراع ، وأنّهما لا يلتقيان ، مخالف بذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[٤] ،

---

(١) محمّد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكّونية، دار الفكر ، دمشق ، طبعة ٩/ ٢٠٠١ ص ٧٧.

(٢) سورة الذاريات : ٢١.

(٣) أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن، دار الطباعة الحديثة، المغرب ص ٣٣.

(٤) سورة البقرة : ١٦٤.

فاضحا الغافلين : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [١] ، ولكن : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ [٢] .

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة توجّه الإنسان إلى ضرورة التفكّر في خلق الله ، والتأمّل في ملكوته وبديع صنعه ، والتعرّف على الأسرار الكونيّة ، ومحاولة فهم قوانينها ، والنّظر في الدقّة المتناهية وسلامة النّظام الكوني ، ومدى تلبية ذلك لحاجيّات الإنسان وتيسير حياته ، ومقارنة ذلك بجهد الإنسان ، وأقصى درجات علمه وتمكّنه من السيطرة على الكون. لذلك نجد آيات كثيرة تتحدّث عن رفع السماوات بلا عمد نراها ، وبسط الأرض وتسخير ما فيها للإنسان ، وخلق الإبل ، وتعاقب اللّيل والنّهار ، وفضل الشّمس والقمر على الإنسان ، وتسخير الرياح وتسيير السحاب ، وإنبات النّبات ، ونصب الجبال الضّخمة ، ودورها في تثبيت الأرض والحفاظ على توازنها. ومن تلك التّوجيهات القرآنيّة قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [٤] .

ففي القرآن الكريم حديث عن أعجوبة خلق الإنسان من لا شيء ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [٥] وتكوينه في بطن أمّه وولادته ، ثمّ نموّه وبلوغه درجة القوّة ، وقدرته على تحصيل العلم وإنجاز العمل ، وتصرّفه في مكوّنات الطبيعة

---

(١) سورة الحج : ٤٦.

(٢) سورة الفرقان : ٤٤.

(٣) سورة يونس : ١٠١.

(٤) سورة سبأ : ٤٦.

(٥) سورة الذاريات : ٢١.

وتطويعها لحاجيّاته. أليس كلّ ذلك بنعمة العقل؛ أن يتعرّف على تلك الأسرار الإلهيّة، ويبلغ تلك الدّرجات السامية؟، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)، ويقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (٢)، وفي المقابل ذمّ القرآن الكريم الذين يعطّلون عقولهم، فشدّد عليهم النّكير بسبب إعراضهم وتكذيبهم: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٣)، وحتّى لا يرهق العقل بالعمل في مجال غير مجاله، وجّهت أحاديث نبويّة كثيرة إلى ضرورة النّظر في ملكوت الله والتفكّر في خلقه، وعدم الخوض في ذات الله. ومن ذلك قول الرّسول ﷺ: « **تفكّروا في خلق الله ولا تفكّروا في الله فإنّكم لن تقدِروا قَدرَهُ** »(٤).

فإيمان المؤمن بربّه وخالقه، يقوم على الدّليل القاطع والحجّة النّاصعة، والبراهين المبثوثة المشاهدة في أرجاء الكون الواسع، المدعّمة بوحي من الله إلينا بواسطة الرّسل الصّادقين(٥)؛ لذلك فإنّ العلم الصّحيح يؤدّي بالضّرورة إلى الإيمان بالله والتّصديق به، لا إلى الكفر والإلحاد كما يزعمون؛ لذلك كانت الهداية العقليّة أحد طريقَيْ الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه وتعالى. فأفرد أبو بكر جابر الجزائري مبحثا خاصّا من كتابه أورد فيه جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى والهادية إلى معرفته ﷻ. وهو بذلك لم يخرج عن الإطار

(١) سورة الزّمر: ٩.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

(٣) سورة يس: ٤٦.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٥) عبد المجيد عزيز الزنداني: توحيد الخالق، دار السلام، القاهرة، طبعة ٤/ ١٩٩٨ ص ٥.

العام الذي تحرّك فيه المنشغلون بالدّراسات العقائديّة ، مستفيدا من دراسات القدامى والمحدَثِين ، ومن تلك المبادئ التي استدلّ بها: قانون العلّة وقانون الوجوب[١] وقانون الحدوث وقانون النّظام وقانون العناية بالإنسان[٢]. كما تناول هذه القضيّة بالتّفصيل محمّد سعيد رمضان البوطي ، من خلال منهج خاص سمّاه: منهج التدرّج من الأعلى ، ومنهج الصعود من الأدنى[٣].

ب ـ دليل الأسماء والصفات:

إذا كان الإيمان بالله تعالى هو التصديق الجازم بوجوده ، واطمئنان القلب إلى ذلك اطمئنانا تُرى آثاره في سلوك الإنسان ، والتزامه بأوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وهو أساس العقيدة الإسلامية وجوهرها ، فهو الأصل وكلّ أركان العقيدة مضافة إليه وتابعة له ، فإنّ ذلك الإيمان يتضمّن الإيمان بوجوده ، الذي دلّت عليه مسالك الفِطرة والعقل والشّرع والحس . وأنّ من شروط صحّة الإيمان بالله تعالى توحيده التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة شرك أو شكّ أو تردّد. وأنّ التوحيد المُطلَق لا يكون إلاّ بخلوص أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، من أيّ دَخَن أو لوثة اعتقاد.

فالإيمان بصفات الله تعالى ركن من أركان العقيدة الإسلامية ؛ لذا فإنّ الإيمان بالله لا يكون إيمانا إلاّ إذا استجمع الإيمان بوجوده والإيمان بصفاته معا ، وأمّا إذا

---

(١) انظر محمّد عبده: رسالة التّوحيد ، تحقيق : محمّد عمارة ، دار الشّروق ، طبعة ١/ ١٩٩٤ ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن ص ٤٨ وما بعدها.

(٣) محمّد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيّات الكونية ص ٧٨ وما بعدها.

تخلّف الإيمان بالصّفات فإنّ الإيمان بالله ينتقض من أصله ، فلم يعد يغني شيئا كما لا يغني إيمان أهل الجاهلية الذين يؤمنون بوجود الله ولكنّهم يجعلون معه آلهة أخرى تقرّبهم بزعمهم إليه زلفى ، وكما لا يغني إيمان النصارى ، إذ حرّفوا التّوحيد إلى تثليث ، فكلّ ذلك إيمان محبط بسبب إخلاله بصفة التّوحيد[1].

فشهاده أن «لا إله إلاّ الله» نفي لجميع ما يُعبد من دون الله ، وإثبات العبادة له وحده دون شريك. فكان من شروطها كما فسّر ذلك أهل العقيدة: العلم المنافي للجهل ، واليقين المنافي للشك ، والإخلاص المنافي للشرك ، والصدق المنافي للكذب ، والمحبّة المنافية للبغض ، والانقياد المنافي للترك ، والقبول المنافي للرد ، والكفر بما يعبد من دون الله. وقد جمعت في قول النّاظم:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأشياء قد ألها

وقال ابن رجب : « الإله هو الذي يطاع ولا يُعصى هيبةً له وإجلالا ، ومحبة وخوفا ورجاء ، وتوكّلا عليه ، وسؤالا منه ، ودعاء له ، ولا يصلح هذا كلّه إلاّ لله عزّ وجل ، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإله ، كان ذلك قدحا في إخلاصه في قوله: « لا إله إلاّ الله » ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك » .

١ـ توحيد الربوبية:

هو الاعتقاد الجازم بأنّ الله وحده ربُّ كلّ شيء ومليكه ، لا شريك له ، هو الخالق وحده ، وهو مدبّر العالم والمتصرّف فيه ، وأنّه خالق العباد ورازقهم

(١) عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص ١٠٩ (بتصرّف).

ومحييهم ومميتهم ، والإيمان بقضاء الله وقدره وبوحدانيته في ذاته ، فهو توحيد الله تعالى بأفعاله[١] . والإيمان بربوبيته تعالى واجب بنصوص الآيات القرآنية ، لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[٥] . وهذا التوحيد قد فُطِرت القلوب على الإقرار به كما قالت رسل ربّ العالمين : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٦] ، وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٧] . ولم يخالف في هذا النوع من التوحيد كفار قريش وكثير من أصحاب الملل مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٨] . وأمر الله سبحانه وتعالى شامل الأمر التكويني والتشريعي ، فكما أنّه مدبّر الكون القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادات وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته ، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعا في العبادات أو حاكما في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان .

---

(١) عبد الله الأثيري: الوجيز في عقيدة السلف الصّالح ، (د ت) ، ص ٣٦.

(٢) سورة الفاتحة : ١.

(٣) سورة الأعراف : ٥٤.

(٤) سورة البقرة : ٢٩.

(٥) سورة الذاريات : ٥٨.

(٦) سورة إبراهيم : ١٠.

(٧) سورة النمل : ١٤.

(٨) سورة لقمان : ٢٥.

ويمكن أن ندلّل على ذلك من خلال النّظر في آيات الكون ، الذي نلحظ وحدة نظامه من أبعد كوكب فيه عنا إلى أصغر ذرة من ذرّاته ، ونلاحظ تسياره المحكم البديع دون خلل أو اضطراب أو فساد في أرضه وسمائه ، في حركة نجومه وكواكبه ، في وحدة نظام مجرّاته ، في كلّ جامد أو متحرّك ، في كلّ نام أو ذي حياة ، في ترابط بعضه ببعضه ترابطا تاما ، مع أنّ كلّ جزء فيه يعمل في نطاقه ومجاله ، دون أن يكون عمله هذا سببا في فساد عمل أي جزء آخر من الأجزاء التي لا حصر لها في هذا الكون الكبير. فدراسة ظواهر الكون دلّت على أنّ هذا الكون خاضع لقوانين واحدة ، وأنّه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها. إنّ القوانين السائدة في الأرض هي القوانين السائدة في السماء ، ثم إنّ الأرض وما فيها جزء مرتبط مع سائر ما في الكون ، فهي خاضعة لنظام شامل ، مسيطر على الكون كلّه.

وهذا يدلّ على أنّ الخالق المهيمن على الكون كلّه واحد ، ولو أنّه كان متعدّدا لتباينت قوانين الكون ولتعارضت ، ولانتهى الأمر بها إلى التصادم والفساد في الكون ؛ لذلك نعلم جازمين أن المهيمن على الكون كله ، والمنظّم لكل جزء فيه ، واحد لا يشركه في أمره شريك. وهذا المعنى هو ما نسميه « بصفة الوحدانية » أو « توحيد الربوبية » ، أي: إنّ الله واحد لا شريك له في الخلق والأمر والتدبير والملك ، وغير ذلك من الصفات التي يدلّ عليها اسم الربّ ، وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنّه واحد في ربوبيته لا شريك له[١] ، وأنّ ذلك ثابت بدليلي النقل والعقل[٢].

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسُسُها، ص ١٥٥ وما بعدها (بتصرف).

(٢) سورة الإخلاص: آية ١، سورة ص: ٣٨، سورة الأنبياء: ٢١، سورة الإسراء : ١٧، سورة المؤمنون : ٢٣.

٢ ـ توحيد الألوهية :

يتعلّق هذا المبدأ بالأصل السّابق ، فكون الله وحده هو الربّ الخالق المدبّر للأمر كلّه ، ولا شريك له في ربوبيته ، يستلزم عقليا أن يكون هو وحده المستحقّ للعبادة ، فلا يصحّ أن يُعبد غيره ، وكلّ عبادة لغيره شرك به. وإفراد الله وحده بالعبادة دون سواه ، هو ما يُطلق عليه عبارة « توحيد الألوهية » . وبهذا يتمّ الرّبط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، ويشملهما جميعا لفظ « التوحيد » . فهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد ، لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، وبذلك يسمّى توحيد العبادة ، وهو ما دعت إليه جميع الرّسل ، بل ولأجله أُرسِلت الرّسل وأُنزِلت الكتب ، وفُرِّقَ بين المؤمنين والكافرين ، وبين أهل الجنّة وأهل النّار.

لذلك فإنّ توحيد الربوبية من مقتضيات توحيد الألوهية ؛ لأنّه من كان خالقا ، رازقا ، مالكا ، متصرفا ، محييا ، مميتا ، موصوفا بكلّ صفات الكمال ومنزّها من كلّ نقص ، بيده كلّ شيء وجَبَ أن يكون إلها واحدا لا شريك له ولا تصرف العبادة إلاّ إليه ، امتثالا لأمره تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، فلا يُعبد إلاّ الله ، ولا يُصلى لغير الله ، ولا يُسجَد لغير الله ، ولا يُحلَف بغير الله ، ولا يُنذَر لغير الله ، ولا يُتَوكَّل على غير الله ، فهو إفراد كامل لله تعالى بالعبادة ، التي هي في أصلها قول القلب واللسان ، أو عمل القلب والجوارح ، مستغرقة بذلك كلّ أوجه تقلّب العبد في حياته ، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ

(١) سورة الفاتحة : ٥.

(٢) سورة الذريات : ٥٦.

وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [١].

وبناء على ما ذكرنا في المقدّمة من وحدة العقيدة ، ولمّا كانت هذه عقيدتنا لا محيد عنها ، فإنّ كلّ من أشرك بالله ، فجعل معه إلها آخر ، سواء كان من أهل الأوثان ، أو ينتسب إلى أيّ دين من الأديان السماوية المحرّفة التي تخالف قطعا أصول الدّين الحق ، وتناقض مبادئه المنزّلة الصحيحة ، أنّه على باطل وجاحد لما أنزل الله على رسله[٢].

٣ـ توحيد الأسماء والصفات :

ومعناه الاعتقاد الجازم بأنّ الله عزّ وجل له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهو متّصف بجميع صفات الكمال ، ومُنزَّه عن جميع صفات النّقص ، متفرّد بذلك عن جميع الكائنات. وبالجملة إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو سنّة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللاّئق به من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل[٣] ، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٤] ، وقال الرّسول ﷺ : « **إنّ لله تسعة وتسعين اسما ـ مائة إلاّ واحد ـ من أحصاها دخل الجنّة ، وهو وتر يحبّ الوتر** »[٥].

---

(١) سورة الزمر : ٣.

(٢) انظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ١٦٠.

(٣) محمد بن صالح العثيمين: شرح أصول الإيمان، دار القاسم، الرياض، طبعة ١ / ١٩٩٨، ص ٢٢.

(٤) سورة الأعراف : ١٨٠.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم .

ومما يترتّب على الإيمان بالصفات الإلهية :

أ ـ تنزيه الله تعالى عما ينافي هذه الصفات وهي عشرون صفة فلا يجوز في حقّ ربّنا: العدم ، لحوق العدم بذاته (الفناء) ، الحدوث ، المماثلة (أن يشبه المخلوقات) ، الافتقار إلى الغير وعدم القيام بالنفس ، ألاّ يكون واحد (التعدّد) ، الجهل ، الكراهة (مكرها) ، العجز ، العمى ، الصمم ، البكم ، الموت.

ب ـ نفي العلّة الغائية: فلا يتوقّف وجوده على شيء آخر يكون بمثابة علّة وجوده[1].

ثانيا : الإيمان بالملائكة :

هو ركن من أركان الدين الإسلامي ، وقد جُعِل ذلك من صفة عقيدة المؤمنين كما صرّح القرآن الكريم ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] ، ومن ذلك الحديث الذي يرويه عمر بن الخطاب ﷺ ، المتضمّن أسئلة جبريل ـ عليه السلام ـ للرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة ، فكان على هيئة رجل شديد سواد الشعر ، شديد بياض الثياب ، ولا يعرفه من الصحابة أحد. وقد شدّد القرآن الكريم على ضرورة الإيمان بالملائكة وهو صنف من مخلوقات عالم الغيب ، ووصف المنكرين لذلك بالضلال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[3].

---

(١) محسن العمدوني: مذكرة في العقيدة، ص ٩ وما بعدها (بتصرف).

(٢) سورة البقرة : ٢٨٥.

(٣) سورة النساء : ١٣٦.

والملائكة أو الملأ الأعلى هم مخلوقات غيبية ، خلقهم الله قبل البشر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ، ولا يتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ (٢) ، ولا بشيء من صفات البشر ، من الأكل والنوم والتعب والزواج ، وإنّما هم عالم قائم بذاته. فهم مخلوقات نورانية كما جاء في الحديث النبوي: « **خُلِقت الملائكة من نور ، وخُلِق الجانّ من مارج من نار ، وخُلِق آدم ممّا وُصف لكم** »(٣) ؛ لذلك لا نراهم وإن حضروا مجالسنا ، كما كان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل بالوحي على النبي ﷺ من غير أن يشعر بذلك الصحابة. كما لهم قدرة عجيبة على التشكّل ، مثل تشكّل جبريل ـ عليه السلام ـ في صورة رجل غريب مسافر كما مرّ في حديث عمر بن الخطاب ﷺ ، أو على هيئة الصحابي دحية الكلبي ، وقصة ضيف إبراهيم(٤) ، والملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم نبي الله لوط ـ عليه السلام(٥)، وقصّة الملكين اللذَين تسوّرا المحراب على داود ـ عليه السلام ـ في صورة رجلين خصمين(٦). ومن صفاتهم التي ميّزهم الله بها :

ـ التقريب والتكريم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ (٧) ، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ

(١) سورة البقرة : ٣٠ .
(٢) سورة الزخرف : ١٩ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) سورة الذاريات : ٢٤ـ ٢٨ .
(٥) سورة هود : ٧٧، ٧٨ .
(٦) سورة ص: ٢١، ٢٢ .
(٧) سورة الأعراف : ٢٠٦ .

عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

ـ القدرة على الصعود والهبوط بين السماء والأرض: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٢).

ـ الطّاعة المطلقة: فطرهم الله على ذلك للقيام بمهمّاتهم على أحسن الوجوه: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣).

ـ يخافون الله برغم عدم معصيتهم، فهم يعبدون الله ولا يفترون: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ (٤).

ـ لهم أجنحة تتفوت في العدد، وهذا مظهر التفاوت في الأقدار عند الله والقدرة على الانتقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥). وعن عائشة رضي الله عنها أنّ الرّسول ﷺ رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته مرّتين، له ستمائة جناح قد سدّ الأفق: مرّة ليلة عُرِج به إلى السماء عند سدرة المنتهى، وأخرى في أسفل مكة بمكان اسمه « أجياد ».

ـ لكلّ ملك موضع مخصوص في السماء، ومقام معلوم لا يتجاوزه: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ (٦).

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة المعارج: ٤.

(٣) سورة التحريم: ٦.

(٤) سورة الرعد: ١٣.

(٥) سورة فاطر: ١.

(٦) سورة الصافات: ١٦٥.

ـ لا يعلم عددهم إلاّ الله وحده : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١) .

ـ حياؤهم: ما جاء في حديث النبي ﷺ : « **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » (٢) . يعني بذلك عثمان بن عفّان ﷺ .

ـ تأذيهم: فهي تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان ، لقول النبي ﷺ : « **من أكل من الثوم والبصل والكراث ، فلا يقربنّ مسجدنا ، فإنّ الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم** » (٣) .

ـ حبّهم لمن يحب الله: لما جاء في الحديث النبوي: « **أنّ الله تعالى إذا أحب عبدا ، نادى جبريل : إنّ الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء: إنّ الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض** » (٤) .

ـ دعاؤهم للمؤمنين ولعنهم للكافرين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٥) ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة المدثر : ٣١ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الشيخان .

(٥) سورة غافر : ٧ .

(٦) سورة البقرة : ١٦١، ١٦٢ .

وظائف الملائكة :

جاء في نصوص الوحي أنّ الملائكة أصناف كثيرة يتفاضلون فيما بينهم ، وأنّ لكل منهم وظيفة معيّنة لا يحيد عنها كما لكلّ منهم مقام معلوم لا يتجاوزه. ومن وظائفهم:

ـ جبريل : ويسمى روح القدس ، وقد وصفه الله تعالى بأوصاف القوّة والطاعة والأمانة ، وذلك لعظم مكانته وخطورة مهمّته التي وكّل بها ، ألا وهي السفارة بين الله وبين عباده الذين اصطفى ، فكان ينزل بالوحي: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (١) ، وقد بيّن الله تعالى أفضليته ، فقدّمه في الترتيب على سائر الملائكة وجعله ناصرا للرسول محمد ﷺ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٢) ، وأيّد به نبيّه عيسى ـ عليه السلام : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (٣) .

ـ ميكائيل : وذُكِر بصيغة « ميكال » ، وقد ذكره الله تعالى مع جبريل في معرض التنويه بهما : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٤) ، وهو مكلّف بأرزاق العباد .

ـ إسرافيل: مكلّف بالنفخ في الصور يوم القيامة .

---

(١) سورة التكوير : ١٩ـ٢١ .

(٢) سورة التحريم : ٤ .

(٣) سورة البقرة : ٨٧ .

(٤) سورة البقرة : ٩٨ .

ـ عزرائيل: ملك الموت، مكلّف بقبض الأرواح.

ـ أعوان ملك الموت: وهم صنفان، ملائكة رحمة وملائكة عذاب: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (١).

ـ رضوان: فهو خازن الجنان ورئيس الخدم فيها.

ـ ملائكة الجنة: مهمّتهم خدمة أهل الجنة: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (٢).

ـ مالك: رئيس ملائكة النار وخازنها: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (٣).

ـ ملائكة النار: وسموا الزبانية، وفي ذلك تهديد للكافرين: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ (٤)، موكّلون بأهل النار: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ (٥).

ـ حملة العرش، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ (٦).

ـ الحافون حول العرش: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٧).

---

(١) سورة الأنعام: ٦١.

(٢) سورة الرعد: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة الزخرف: ٧٧.

(٤) سورة العلق: ١٧، ١٨.

(٥) سورة المدثر: ٣١.

(٦) سورة الحاقة: ١٧.

(٧) سورة الزمر: ٧٥.

ـ ملك موكل بنفخ الروح: جاء في الحديث الشريف: « **إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات: فيكتب عمله ، وأجله ، ورزقه ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح...** »[١].

ـ الكتبة الذين يكتبون أعمال المكلّفين: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢].

ـ تثبيت المؤمنين: وذلك بما يلقونه في قلوبهم من التأييد: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٣].

ـ التبشير بالجنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[٤].

ـ تأمينهم مع المصلين: كما جاء في الحديث الشريف: « **إذا قال الإمام** ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٥] ، **فقولوا : آمين ، فإن الملائكة يقولون : آمين ، وإن الإمام يقول : آمين. فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه** »[٦].

ـ الحفظة: يحفظون الإنسان من الجان: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[٧].

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) سورة الانفطار : ١٠ـ ١٢ .

(٣) سورة الأنفال : ١٢ .

(٤) سورة فصّلت : ٣٠ .

(٥) سورة الفاتحة : ٧ .

(٦) رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

(٧) سورة الرعد : ١١ .

ـ ملك الجبال : للحديث النبوي: « **فناداني ملك الجبال فسلّم عليَّ فقال : يا محمّد ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين...** »[١].

ـ الملائكة السياحون: لما جاء في الحديث النبوي: « **إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام** »[٢].

ـ منكر ونكير: وعملهما سؤال العباد في قبورهم عن الله تعالى[٣].

والمتتبّع لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهّرة يقف على أنواع كثيرة من وظائف الملائكة ، يشهد بذلك قول الرّسول ﷺ : « **أطّت السماء وحق لها أن تئط ، ما من موضع أربع أصابع إلاّ عليه ملك واضع جبهته ساجدا لله تعالى** »[٤].

ثالثا : الإيمان بالجن :

الجن أرواح عاقلة مكلّفة خلقهم الله من مارج من نار: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[٥] ، فلا نراهم على طبيعتهم وصورهم الحقيقية ، كما لهم قدرة على التشكل والتمثّل. وهم مكلّفون على نحو ما عليه الإنسان: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) أخرجه النسائي وابن حبان.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) سورة الحجر : ٢٧.

(٦) سورة الذاريات : ٥٦.

كَٰفِرِينَ ﴾ [١]، خاصّة وقد استمعوا إلى القرآن فصدّقوا به وآمنوا بما جاء به: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [٢]. ومن أوصافهم:

ـ أنّهم خُلِقوا قبل الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [٣].

ـ أنّهم يتناسلون ولهم ذرية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [٤].

ـ يرونا من حيث لا نراهم: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [٥].

ـ لهم القدرة على التعلّم والمعرفة: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٦].

ـ منهم المؤمن ومنهم الكافر: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [٧].

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٠.

(٢) سورة الجن: ١، ٢.

(٣) سورة الحجر: ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة الكهف: ٥٠.

(٥) سورة الأعراف: ٢٧.

(٦) سورة الإسراء: ٨٨.

(٧) سورة الجن: ١٤، ١٥.

ـ لهم مهارات صناعية وقدرات كبيرة: وقد سخّرهم الله سبحانه وتعالى للعمل تحت سلطان سليمان ـ عليه السلام : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (١).

ـ لا يعلمون الغيب: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ (٢).

ـ أنهم كانوا يسترقون السمع: ولكن ببعثة محمّد ﷺ حرست السماء وحيل بينهم وبين خبر السماء وأُرسِلت عليهم الشهب: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (٣).

ـ يأكلون أكلا لا نعلم كيفيته وماهيته ، وقد جاء في الحديث النبوي: « **لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام ، فإنّه زاد إخوانكم من الجن** » (٤).

ـ لهم قدرة على التشكّل في صور شتّى ، فقد تمثّل لأبي هريرة ﷺ في صورة بشرية ، عندما جعله النبي ﷺ على مال الزكاة. وقال الرّسول ﷺ : « **إنّ بالمدينة جناً قد أسلموا ، فمن بدا لكم منهم فآذنوه ثلاثة أيّام ، فإن عاد فاقتلوه فإنّه شيطان** » (٥).

هل لهم تأثير على الإنسان؟:

إنّ المؤمن الذي أخلص دينه لله وحده ، فعبده حق العبادة ، ليس للشيطان سلطان عليه إطلاقا ، لا في عقيدته ولا في توجيه إرادته وأعماله. فبطاعته لله واتّباع

---

(١) سورة ص : ٣٧ .

(٢) سورة الجن : ٢٦، ٢٧ .

(٣) سورة الجن : ٨، ٩ .

(٤) رواه مسلم والترمذي .

(٥) رواه مالك في الموطأ عن أبي السائب .

أوامره والتوقّف عند نواهيه يكون قد سدّ منافذ تسرّب الشيطان ولم يترك له فرصة ليغتاله من أي جانب كان ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (١) ، فاستثني من ذلك من أراد أن يكون عبدا للشيطان وقَبِل بسلطانه عليه ، فأولئك هم أولياء الشيطان الذين سيتبرأ منهم يوم القيامة ويتهرَّب من تحمّل مسؤولية كفرهم بالله وعنادهم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ (٢).

فمن اتّقى الله وابتغى رضوانه ، بتحرى أنواع الطاعات والتقرّب منه تعالى ، وبذل الجهد في فعل الخير والابتعاد عن الشر ، فأَطِرَ نفسه وألزمها ذلك ، فإنّه في مأمن من الشيطان وأذاه. أمّا من اتّخذ إلهه هواه ، وترك الطاعات وغرّته شهوات الدنيا وجرفه تيّار المعاصي ، فلم يعد له من دِرع يحميه ، فاستحلّ محارم الله وتهاون في واجباته تجاهه ، فقد جعل للشيطان على نفسه سبيلا ، بل أصبح من جنده وأتباعه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، يوجّهه حيث أراد ويملي عليه أوامره ، وبئس المورد والنهاية كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٤) ، أي إثما وتعبا وغيا. إذ لمّا عاذوا بهم استخفوهم واستهانوا بهم فتجرؤوا عليهم . إذ تأخذ الشيطان العزّة عندما يطيعه الإنسان ، فينتقم منه وينكّل به ويورده موارد السوء

(١) سورة الحجر : ٤٢.

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢.

(٣) سورة الأعراف : ٢٧.

(٤) سورة الجن : ٦.

والهلاك ، ثم يتبرّأ منه : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1] ، إنفاذا لأمره تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2] .

وقد شاع بين النّاس كثير من أنواع الخرافة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بل هي للكفر أقرب ، من أن للشيطان سلطان وأنّه يعلم الغيب ، وأن فلانا أصبحت له قدرات كبيرة بفضل علاقته بالجن ، فيشفي المرضى ويكشف عن الكنوز ويُطلِع النّاس على الغيب ، فيخبرهم بأحوالهم المستقبلية ويغيّر لهم مجرى الأمور لتأتي على الوجه الذي يريدونه. فكلّ ذلك كفر بالله واتّباع للوهم وجري وراء السراب الذي يحسبه الظمآن ماء . فلا الجن يعلم الغيب ؛ لأنّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى به لنفسه ، فعنده مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾[3] ، إذ لو كانت الجن تعلم الغيب لما علمت بموت سليمان ـ عليه السلام ـ ولما بقوا في العذاب المهين كما صوّر حالهم القرآن الكريم: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[4] . كما ليس

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٨.

( ) سورة هود : ١١٩.

(٣) سورة الجن : ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة سبأ : ١٤.

للجن أي تأثير أو قدرة على تغيير المقادير وتوجيهها بحسب هواه .

وذلك مظهر من مظاهر الجهل بالدّين والابتعاد عن منابع العقيدة الصحيحة. وهي نتيجة حتمية لتصدي الجهلة للحديث عن أصول الدّين الحق وتبيينه للنّاس. فانتشرت بذلك الخرافة وشاعت بين النّاس الأساطير التي تناقلوها ، وكلّ يضيف عليها من مخيّلته ما يروق له ليتمّم حيثيات القصّة. كما جاء في القرآن الكريم تكذيب صريح لمن يلقي سمعه للشياطين وأنّ إثمه عظيم ، كما وصفهم الله بالكذب: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾ [١]. وبيّن أنّ عاقبة اتباع الشيطان الخسران ، فهو يعد ويمنّي وما يعد إلاّ كذبا: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلاً ﴾ [٢]. فهل يُعقَل بعد هذا أن يتحرى الإنسان العاقل طرق الشيطان ومسالكه حتى تكون عاقبته الخسران والهلاك؟ ، أليس حري به أن يتقي الله ويتوب إن وقع في الحرام بطرقه مسالك الشيطان ، وأن يسارع إلى التكفير عن ذنبه إن كان سببا في إلحاق الضرر بغيره. فكم من مُخطئ وقف بباب السَحَرةِ ليؤذي غيره وينغّص عليه حياته ، فكان سببا في هدم البيوت وتشتّت أفراد الأسرة الواحدة وتشريد الأبناء وضياعهم.

كيفية الوقاية من الجن:

كما تبيّن ممّا سبق أن ليس للجن أي تأثير على المؤمن العابد لا من قريب ولا من بعيد ، وهو ممّا يثير حفيظة الشيطان في الكيد له وترصّد زلاّته وهفواته ، فيجدها مدخلا مناسبا للنيل منه والتنكيل به ، خاصّة وأنّ الشيطان قد خسر الدنيا

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٢) سورة البقرة : ٢٦٨.

والآخرة ولم يعد له من أمل في الخير ؛ لذلك توعّد بترصّد عباد الله وأخذهم على حين غفلة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1]. وقد جعل الله في متناولنا وسائل كثيرة للتوقي من كيده والاحتماء من شرّه ، من داوم عليها وجعلها جزء من تربيته الدينية والخلقية حفظ نفسه وأهله وكان سببا في نجاة غيره. وبذلك يقع سدّ منافذ المشعوذين والدجالين ، الذين اتّخذوا من دعواهم التخصّص في طرد الجن وإخراجه من الإنسان مطيّة للتكسّب ووسيلة للتحايل على عباد الله.

كما أن المرء الذي يصيبه أذى ويلتجئ إلى من يظنّ به خيرا وصلاحا طلبا للرقية الشرعية ، بإمكانه أن يجاهد نفسه ويتقي الله حق تقاته فيصل إلى ما وصل إليه ذلك الذي التجأ إليه طلبا للشفاء ، إذ الصلاح والتقوى لم يختصّ به أحد من الناس دون الآخر أو يحتكره فرد بعينه دون غيره. وطرق التحصّن من الجن تنقسم إلى نوعين:

ـ **النوع الأوّل**: بإخلاص الدين لله ، والتخلّق بالقرآن ، وتحري مسالك الصلاح والخير ممّا يجلب مرضاة الله ويبعِد سخطه. وأنّ ذلك يتحقّق بجملة من الالتزامات التربوية ، منها:

أ ـ المحافظة على تأدية الفرائض على الوجه الأكمل ، من دون عبث أو تهاون.

ب ـ الإكثار من النوافل ما أمكن؛ من صيام تطوّع وقيام اللّيل والتصدّق...

جـ ـ الاجتهاد في حفظ القرآن الكريم والمداومة على قراءته وتدبّره.

د ـ الإكثار من الأدعية المأثورة التي صحّت نسبتها إلى رسول الله ﷺ ، وذلك

(١) سورة الأعراف : ١٦

في جميع تصرّفات الإنسان؛ من مأكل ومشرب وملبس ونوم وجماع ودخول بيت الخلاء والخروج من المنزل والدخول إليه وسفر وعمل...ليربط كلّ حركاته وسكناته بالله عزّ وجل باعتبارها عبادة مصونة عن العبث والصدفة.

هـ ـ الابتعاد عن كلّ ما فيه معصية لله وجلب لغضبه ، والتخلي عن اللّهو وسقط الأمور. إذ المسلم لا يعرف إلاّ الجد والمثابرة ، وأنّه إذا طلب الرّاحة يجدها فيما أذن فيه الشارع وسمح به.

و ـ الإكثار من الذهاب إلى المسجد وشهود صلاة الجماعة ، وانتظار الصلاة فيه بعد الصلاة.

ز ـ مصاحبة أهل الخير والصلاح والتُقى ، والجلوس في حِلق الذِكر والعِلم في المساجد ، لسماع تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث النبوي والتفقّه في الدّين عامّة.

ـ **النوع الثاني**: التحصّن بالدعاء المأثور ، وإن ابتلاه الله بشيء ، فلا يتجاوز في ذلك ما بيّنه الرّسول ﷺ لأصحابه :

أ ـ قراءة القرآن الكريم .

ب ـ ما صحّ عن النبي ﷺ ، من أدعية كثيرة من مثل قوله ﷺ :

ـ « **لا إله إلاّ الله الواحد القهار ربّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** » .

ـ « **أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون** » .

ـ « أعوذ بالله وقدرته من شرّ ما أجد وأُحاذر » .

ـ « أسأل الله العظيم ربِّ العرش العظيم أن يشفيك » .

ـ « اللّهم ربَّ النّاس أَذهِب البأْس واشفِ أنت الشافي لا شفاء إلاَّ شفاؤُك شفاء لا يغادر سقما » .

ـ « أعوذ بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة » .

ـ « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يُجاوِزُهُنَّ برٌّ ولا فاجر من شرِّ ما خلق ، وبرأ وذرأ ، ومن شرّ ما ينزل من السماء ، ومن شرّ ما يعرج فيها ، ومن شرّ ما ذرأ في الأرض ، ومن شرِّ ما يعرج منها ، ومن شرِّ فتن اللّيل والنَّهار ، ومن شرِّ كلِّ طارق إلاَّ طارقاً يطرُق بخير يا رحمن » .

رابعا : الإيمان بالرسل:

ومن أصول الاعتقاد الإيمان برسل الله أجمعين ، الذين سمّاهم في كتابه العزيز والذين لم يذكرهم ، وأنّه لا يعلم عددهم وأسماءهم إلاّ الله وحده ، ونؤمن أنّ الرّسول هو بشر اصطفاه الله تعالى ليبلّغ بواسطته قانونه ، وأنّه بغير هذه العقيدة يبقى الإيمان بالله مجرّد تصوّر نظري ، وما بعث الرّسل إلاّ لصياغة نمط إنساني جديد ، يوجّه النّاس في حياتهم ، ويؤسّس لهم قوانين تحفظ مسيرتهم في إطار التدافع والتنافس ، تمنع الجور والتعدي ، وتوجّه الإنسان إلى الطّهر والسموّ الرّوحي ، فيكون بذلك موصولا بعالم الغيب ، لأنّه جزء من هذا الكون الواسع ، وأنّه لم يُخلق عبثا وإنّما وُجد لحكمة ؛ لذلك لا يعتبر الإنسان مسلما إلاّ إذا آمن بالرّسالة بعد إيمانه بالله وحده ، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (١).

وأن نصدّق رسل الله جميعا وقد وجبت طاعتهم ، ولا نفرّق بينهم ، ومن خالف ذلك فهو كافر بصريح القرآن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ (٢) ، ثمّ نؤمن بأنّهم أدّوا الأمانة وبلّغوا الرّسالة ، وأنّهم أكمل خلق الله علما وعملا ، وأصدقهم وأكملهم أخلاقا ، وأنّ الله تعالى خصّهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، ونؤمن أنّهم جاؤوا مبلّغين ، وأنّهم بشر وليسوا شركاء في الألوهيّة ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (٣) ، وأنّه يجري عليهم قانون البشرية كالجوع والعطش والنّصب والنّوم والزّواج ولا يعلمون الغيب ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥).

وبذلك فقط أنقذ الإسلام البشريّة من المبالغات والانحرافات التي وقع فيها

---

(١) سورة النور : ٦٢.

(٢) سورة النساء : ١٥٠، ١٥١.

(٣) سورة الكهف : ١١٠.

(٤) سورة الأنعام : ٥٠.

(٥) سورة الأعراف : ٨٨.

أهل الكتاب ، فجعلوهم آلهة ، أو أندادا لله ، أو أولاده. وقد أنكر الإسلام ذلك وبيّن المكانة الحقيقيّة للرّسول « **إنّما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي**[١] **، فإنّما أنا بشر وأنتم أعلم بأمر دنياكم** »[٢].

صفات الرّسل :

بما أنّ الرّسول قد اختاره الله تعالى واصطفاه من بين خلقه ، فإنّه حتما يتوفّر على صفات تميّزه عن غيره من البشر. إلاّ أن تلك الصفات لا تُخرجهم عن كونهم من البشر ، إذ لا ترتقي بهم إلى أن يكونوا ملائكة أو أبناء لله أو أن يتصفوا بصفات اللاّهوت إلى جانب خصائص الناسوت. وإنّما هم بشر يجري عليهم القانون البشري؛ من مرض وتعب وفرح وحزن ونوم وحِلٍ وترحال وزواج وطلاق وأبوّة وبنوّة ، وكلّ ما من شأنه أن يعبّر عن طبيعة الإنسان السوي ، إذ الرّسول هو فرد من ذات المجتمع الذي أرسل فيه. إلاّ أنّ الله تعالى ميّزهم عن البشر وجعل لهم صفات لهم خاصّة دون غيرهم ، وهذا من شروط الاصطفاء والاختيار للنبوّة. ومن تلك الصفات:

ـ الفطنة:

فحمل رسالة سماوية وتكليف بالتبليغ وتطبيق عملي لتلك التعاليم ، يتطلّب في القائم على ذلك درجة قصوى من الاستعداد الذهني والأهلية العقلية ، تهيئه لتأدية تلك المهمّة على الوجه الأمثل. وتلك الصفة التي تجمع ذلك الاستعداد

---

(١) أي في مصالح النّاس الدنيويّة.

(٢) صحيح مسلم ، دار عالم الكتب، الرياض، طبعة ١/ ١٩٩٦، ٤/ ١٨٣٥ ، كتاب الفضائل ، حديث رقم (١٤٠).

وتلك الأهلية هي صفة « الفطنة » . إذ الغبي والجاهل لا يصلح لتحمّل مسؤولية محدودة لغلبة السفه والعجز عليه ، فما بالك لأن يكون قدوة للنّاس يرعى مصالحهم العقدية والتشريعية والسياسية ، وبالجملة يهديهم إلى الخير.

ـ العصمة:

وهي صفة للأنبياء خاصّة لا يشاركهم فيها أي كان من البشر ، ولا حتى الأئمّة الذين نصبهم الشيعة وأثبتوا لهم العصمة. والنبي معصوم عن المعاصي صغيرها وكبيرها قبل البعثة وبعدها ، فهو قدوة للنّاس يتّبعونه في كلّ أحواله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [١] ، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [٢] . وأنّ المعصية التي يوهم ظاهر النّص نسبتها إلى الرّسول ليست هي في واقع الأمر معصية ، وإنّما هي إمّا خطأ في اجتهاد مأذون به ، ثمّ أرشد الله رسوله إلى ما هو أتمّ وأكمل ، وإمّا اختيار للمفضول من أمرين مباحين ، ثمّ جاء التوجيه الرباني إلى أفضلية الأمر الثاني.

ـ الصدق والأمانة :

إنّ الذي اختاره الله لمهمّة النبوّة لا يتصوّر في حقّه النقائص فضلا عن الكذب والخيانة التي تأباها الفطر السليم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [٣] ، والله سبحانه وتعالى لا يقرّ أي كان على ذنب فما بالك برسل

(١) سورة الأحزاب : ٢١.

(٢) سورة الممتحنة : ٦.

(٣) سورة النجم : ٣، ٤.

حمّلوا أمانة التبليغ ، لذلك ذكر تعالى في معرض تصديقه لرسوله الكريم أنّ ذلك يستحيل في حقّه ، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (١).

ـ التبليغ:

ويستفاد ذلك من الأمر الرباني لنبيّه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٢). والرّسل أفضل من يمتثل لأمر الله تعالى ، فلم يجحدوا أو يخفوا شيئا من الوحي مخافة تبليغه للنّاس أو نحوه ، بل امتدحهم الله تعالى على تبليغهم وتفانيهم في تأدية الرّسالة على الوجه الأكمل ، برغم الأذى الذي تعرّضوا له والتنكيل الذي لاقوه من أقوامهم.

ـ البشرية:

بأن لا يكون من الملائكة أو من الجن ، وإنّما من جنس المرسل إليهم ، ممّن يجري عليه قانون البشرية ، من تعب وألم ومرض وزواج وموت... وهو صريح القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (٣) ، و ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) سورة المائدة : ٦٧.

(٣) سورة البقرة : ١٢٩.

(٤) سورة إبراهيم : ١١.

(٥) سورة الفرقان : ٢٠.

ـ الذكورة :

وهو ما تقتضيه طبيعة الرسالة والدعوة إلى الله وما يتطلّبه ذلك من مشاق بذل يتجاوز طاقة المرأة ، كما أنّ طبيعة الأقوام تستنكف من اتّباع أنثى ، وتفويضها أمورهم ومصالحهم السياسية والعسكرية ، فاقتضت حكمة الله أن يكون الاصطفاء للرسالة من خصائص الذكور دون الإناث: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

ـ السلامة من الأمراض المنفرة:

فيهجره النّاس ويشكون في رسالته ويستخفون به ويستهينون. إلاّ أنّ ذلك لا يمنع وقوع المرض الاعتيادي ممّا ينزل بالبشر ، وهو جريان سنّة الله في خلقه. وأنّ ممّا ذكر عن نبي الله أيّوب ـ عليه السلام ـ من تفجّر جسمه قيحا واعتزاله النّاس وتأذي زوجته منه مجرّد قَصص مَكذوب لا أساس له من الصحّة ، وقد أخبر القرآن الكريم عن تفاصيل ذلك: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

خامسا : الإيمان بالكتب :

الإيمان بالكتب السماوية ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، فلا يكتمل إيمان المرء إلاّ به. فنؤمن بذلك على التفصيل والإجمال بلا استثناء ، فما ورد ذكره في القرآن الكريم مفصّلا لا نتعدّاه لغيره من قول البشر ، وما لم يُذكر لا نكذّب به أو ننكر أنّ الله عزّ وجل قد أنزل كتبا أو صحفا أخرى لبعض من أنبيائه ولم يخبر عنها ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ

---

(١) سورة الأنبياء : ٧.

(٢) سورة الأنبياء : ٨٣.

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [١]. ومن مستلزمات الرسالة الوحي الذي يخاطب الله به من اصطفى من عباده لتلك المهمّة العظيمة ، فيمتثل الرّسول لأمر الله بالتبليغ ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [٢] ، بلا استثناء ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [٣].

فأركان العقيدة متماسكة لا ينفك بعضها عن البعض ، وأن الإيمان بواحد منها يستدعي الإيمان بسائرها ، وأن الكفر بواحدٍ منها يستلزم نقض الإيمان جملة ، فهو كالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وذلك واضح بيّن قطعي في خطاب الله عزّو جل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٤]. والإيمان بالكتب السابقة عن القرآن الكريم يجب أن يكون وفق ما قرّره الشرع الكريم على النّحو التالي:

- أنّ الله تعالى أنزل تلك الكتب.
- أنّ بعضا ممّا ورد فيها ذكره القرآن الكريم.
- أنّها تعرّضت لمختلف أوجه التحريف من زيادة ونقصان وتبديل.
- أنّ الله تعالى لم يتكفّل بحفظها.
- أنّها منسوخة ولا يجب العمل بها.
- أنّه لا يجب تصديقها ولا تكذيبها ، وذلك وِفق الهدي النبوي.

---

(١) سورة النساء : ١٦٤.

(٢) سورة فاطر : ٢٤.

(٣) سورة الرعد : ٧.

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥.

حاجة الناس إلى الكتب :

خلق الله تعالى الإنسان لغاية جليلة ومهمّة سامية والمتمثّلة أساسا في عبادته سبحانه وتعالى. وبما أنّ ذلك لا يتأتى إلاّ وفق منهج مرسوم مسبقا من قبل الباري تعالى ، ولا اجتهاد للإنسان في التشريع من تلقاء نفسه ، فقد أرسل الله رسله بالوحي هدى للناس جميعا ، ممّا دلّل على مدى حاجتهم لذلك وأنّ حياتهم لا تستقيم إلاّ باتّباعه. فمهمّة الكتب إذًا تكمن في:

ـ أنّ يكون الكتاب المنزّل من عند الله المرجع الأساس لأمّة الرسول وإن تعاقبت الأجيال.

ـ يحدّد بشكل دقيق العقائد والشرائع ، ويصونها من التحريف والتزيّد وضلالات أصحاب الأهواء ، كما يوضّح الغاية من الخلق ومهمّة الإنسان التي من أجلها خلق .

ـ ليكون الكتاب الحكم العدل فيما اختلِف فيه من بعد الرّسول : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (١) .

ـ ليكون الكتاب المرجع الأساس الذي يرجع إليه المجتهدون لاستنباط الأحكام ، فيضبط حركة الاجتهاد ويرشّد عمل الفقيه المجتهد.

ـ ليضمن الكتاب سريان دعوة الرسول وتواصلها من بعده ، فلا تنقط بموته أو تصبح عرضة لتصرّف أصحاب الأهواء من بعده.

---

(١) سورة البقرة : ٢١٣.

الكتب السماوية الواجب الإيمان بها:

لقد أخبر القرآن الكريم أنّ الله عزّ وجل قد أنزل كتبا عرّفنا على بعض منها، وسكت عن أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (١). ويمكن القول أنّ هذه الكتب التي ذُكِرت في القرآن تمثّل مفاصل كبرى في تاريخ النبوّة، وتنبئ عن تحوّلات جوهرية على مستويين اثنين، يتعلّق الأوّل بالبنية الفكرية للمخاطبين بالوحي، أي المجتمع بأسره، ويرتبط الثاني بتهيئة النّاس إلى رسالة خاتمة يفوق خطابها المستوى المعرفي المألوف، الذي لم يتجاوز حدود بعض الأحكام التشريعية التي تنظّم حياتهم، والتوجيهات التربوية السلوكية. أمّا عن الثوابت العقدية فهي لا تتبدّل وإن تعدّد الرّسل، كما لا تنسخ أو يُستعاض عنها بأخرى وإن طال الزّمن. ومن تلك الكتب:

ـ القرآن الكريم:

وهو الكتاب المبين المنزّل مع عند الله تعالى على نبيّه محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعله المعجزة الخالدة التي تحدّت النّاس ولا زالت أن يأتوا بمثله أو يعارضوه. وقد ثبت بالدليلين العقلي والنّقلي أنّه من عنده تعالى، وأنّه تكفّل بحفظه. أمّا عن الدليل العقلي فبما تضمّن من وجوه الإعجاز الكثيرة والتي لا حصر لها، فمنها التشريعي والبياني والتأريخي والعلمي...، بل كلّما طال الأمد وتراخى الزّمن انكشفت حقائقه العلمية وزاد النّاس قناعة وتسليما بأنّه من عند الله وأنّه ليس من عند البشر، إذ لو كان من عند غير الله لجاء متناقضا: ﴿وَلَوْ كَانَ

(١) سورة المائدة: ٤٨.

مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [١] . أمّا الدليل النقلي فبما ثبت بالتواتر القطعي الدلالة من غير نقصان في التواتر أو انقطاع ، بل كلّما تقدّمت السنون زاد حفظة القرآن والمنشغلين بعلومه والمختصين في طرائق نقله وحفظه[٢] وتبليغه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [٣] . وقد رفعه الله وفضّله على غيره من الكتب : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [٤] .

وقد شهد بإحكامه وإعجازه العدو قبل الصديق والمشرك قبل الموحّد ، بما تذوّق فيه من أوجه الإعجاز وروائع البيان ممّا لا تنكره الفطر السليمة. وكان ذلك حال عتبة الذي سمع من الرّسول ﷺ آيات من سورة « فُصِّلت » إلى السجدة ، فلمّا رجع إلى قومه وسألوه ما وراءك ؟ ، أجابهم بقوله: « ورائي أنّي قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشِعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، وخلّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه ،

---

(١) سورة النساء : ٨٢.

(٢) لقد سعى العديد من المغرضين بكلّ ما أوتي من قوّة إلى تحريف القرآن الكريم وتشويهه، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد. ولعلّ آخر محاولة السعي إلى ترويج لكتاب جديد صيغت نصوصه في الولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان « الفرقان الحق » ، تروّج له الكنيسة الإنجيلية عن طريق إرسالياتها في العالم. وهو مشروع يهدف إلى تشكيك المسلمين في قرآنهم والتلبيس عليهم، خاصّة وأنّ نسخا من ذلك وزّعت عن طريق المؤسّسات التعليمية الأجنبية في الكويت وبعض دول الخليج. وقد تحالفت مع الكنيسة في الترويج له طائفة القاديانية التي أجمع علماء الإسلام على كفرها، والتي تهدف من خلال ذلك إلى إيجاد دين عالمي جديد مكوّن من اليهودية والنصرانية والإسلام. للتوسّع انظر كتابنا: محاضرات في الفِرق والمذاهب .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

(٤) سورة المائدة : ٤٨ .

فاعتزِلُوه . قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال:هذا رأيي فِيه ، فاصنعوا ما بدا لكم »[١].

ـ صحف إبراهيم وموسى :

وهو ما أخبر عنه القرآن الكريم في عدّة آيات ، منها: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾[٢] ، ومنها : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٣] ، فدلّ ذلك على عدّة أمور منها :

ـ أنّه توجد صحف كثيرة سابقة عن القرآن الكريم ، ومنها صحف إبراهيم وموسى.

ـ أنّ القرآن الكريم قد تضمّن بعضا منها ، وهو الجزء الصحيح الذي لم يحرّف ، وفي ذلك دليل على المشترك بين الرسل وأنّهم جميعا من عند الله تعالى.

ـ أنّ أهل الكتاب كانوا على الهدى فلمّا اتّبعوا ما أحدث رهبانهم خالفوا الصواب ، وخرجوا عن خطّ النبوّة الذي ختم بمحمّد ﷺ .

ـ التوراة :

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى ـ عليه السلام ـ كما أخبر بذلك القرآن الكريم في خطاب الله لنبيّه محمّد ﷺ : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾[٤].

---

(١) أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، طبعة ٣/ ٢٠٠٤، ص ١٩٦.

(٢) سورة النجم : ٣٦، ٣٧.

(٣) سورة الأعلى : ١٨، ١٩.

(٤) سورة آل عمران : ٣، ٤.

والتوراة التي صدّق بها القرآن إنّما هي التوراة الحقيقية الأولى التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ ولا علاقة لها بالتوراة المتداولة الآن بين أهل الكتاب. وفيها :

ـ ما ذكرناه سابقا ممّا جاء في صحف إبراهيم وموسى.

ـ مجموعة من الشرائع التي شرعها الله لبني إسرائيل[١].

ـ البشارة بمحمّد ﷺ[٢].

ـ صفة أصحاب محمد ﷺ[٣].

ـ الحث على الجهاد بالنّفس والمال[٤].

ـ الزبور :

وهو الكتاب الذي أنزله الله على داود ـ عليه السلام . والزبور معناه الكتاب المزبور ، أي المكتوب. وقد ورد ذِكره في القرآن الكريم: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾[٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[٧] دلالة على أنّ الزبور أنزل بعد التوراة وقبل الإنجيل ، وهو تفسير أبي هريرة للآية السابقة: « الزبور ما أنزل على داود ، من بعد الذكر: من بعد التوراة »[٨].

---

(١) سورة المائدة: ٤٣، ٤٤.

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧.

(٣) سورة الفتح : ٢٩.

(٤) سورة التوبة : ١١١.

(٥) سورة القمر : ٥٢.

(٦) سورة النساء : ١٦٣.

(٧) سورة الأنبياء : ١٠٥.

(٨) عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص ٤٧٧.

ـ الإنجيل :

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيّه عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فيه الهدى والنور والتصديق بالتوراة وما فيها ممّا ذكرناه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[١].

وممّا سبق يتبيّن أنّ كلّ الكتب السماوية تشترك في بيان أصول الدّين والدعوة إلى التوحيد المطلق ، ونبذ الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده ، وفي ذلك الفلاح الذي وجّه إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٢].

سادسا : الإيمان بالقضاء والقدر :

أ ـ القضاء والقدر لغة:

قدر: القدِير والقادِرُ ، من صفات الله عزّ وجل ، يكونان من القُدْرَة ويكونان من التقدير ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] ، من القُدْرَةِ ، فالله عزّ وجل على كلّ شيء قدير ، والله سبحانه مقدِّرُ كُلِّ شيء وقاضيه. وفي أسماء الله تعالى القادِرُ والمُقتَدِرُ والقَدِيرُ ، والقَدَرُ القضَاءُ المُوَفَّقُ. يقال: قدَّرَ الإله كذا تقديرا ، وإذا وافق الشَّيءُ الشَّيءَ. قال ابن سيّده: القَدْرُ والقَدَرُ القضاء والحُكم ، وهو ما يُقدِّرُه الله عزّ وجلّ من القضاء ويحكم به من الأمور[٤] ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[٥] ، أي الحكم ، وقال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

---

(١) سورة المائدة : ٦٨.

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥.

(٣) سورة البقرة : ٢٠ .

(٤) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة ١/ ٢٠٠٠، ١/ ٣٦.

(٥) سورة القدر : ١ .

حَكِيمٍ﴾ [١]. والقضاء: الحُكْمُ، وأصله قضايٌ؛ لأنّه من قضَيْت، وهو الفصل والحكم. وقد ورد في اللّغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشّيء وتمامه. وكلّ ما أحكم عمله أو أُتِمَّ أو خُتِمَ أو أُدِّيَ أداء أو أُجِب أو أعْلِمَ أو أُنْفِذَ أو أُمْضِيَ فقد قُضِيَ [٢].

ب ـ القضاء والقدر اصطلاحا:

تكشف لنا المعاجم أنّ بين التعريفين نسب وصلة. فالقدر تقدير الله الخلق: تيسيره كلاًّ منهم لما علم أنّهم صائرون إليه من السعادة والشقاء، وذلك أنّه علم منهم قبل خلقه إيّاهم، فكتب علمه الأزلي السابق فيهم وقدّره تقديرا، فَقَدَرَ الله عليه ذلك يَقْدُرُه ويقْدِرُهُ قدْرًا وقَدَرًا، قدَّره عليه أزلا، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [٣]، قال الزجّاج: المعنى علمنا أنّها لمن الغابرين، وقيل: دبّرنا أنّها لمن الغابرين، أي الباقين في العذاب، وقال الشاعر:

من أيّ يَومَيَّ من الموتِ أفِرّ ... أَيَوْمَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ؟

ومنه القضاء المقرون بالقَدَر، والمراد بالقَدَرِ التقدير، وبالقضاء الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [٤]، أي خَلَقَهُنَّ. فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، لأنّ أحدهما بمنزلة الأساس وهو القَدَر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء. فمن رام الفصل بينهما فقد رام هَدْمَ البناء

---

(١) سورة الدخان: ٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ١/ ١٣٢.

(٣) سورة الأعراف: ٨٣.

(٤) سورة فصلت: ١٢.

ونقضِه[١].

أوّلا : القضاء والقدر عند علماء العقيدة:

برغم تعدّد تعريفات علماء العقيدة للمصطلحَين ، إلاّ أنّها متّفقة جميعها في المضمون ، وذلك لانطلاقها من مصدر معرفي واحد ، بعيد عن الخوض في المباحث الكلامية الجافة ، والتي أخرجت كثيرا من المضامين العقائدية عن مسارها الحقيقي ، فما زادت القارئ إلاّ غموضا والباحث إلاّ تخبّطا وحيرة. ولتأكيد هذا الفهم السليم نورد على سبيل الذكر لا الحصر طائفة من تلك التعريفات ، حتى يجد فيها الطّالب كفايته والقارئ رغبته:

ـ عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني[٢]: بعد عرضه للآراء المنقولة عن أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي ، يخلص بقوله إلى « أنّ ما فُسِّر به القضاء عند الأشعري يشبه ما فسّر به القدر عند الماتريدية ، وما فسّر به القضاء عن الماتريدية يشبه ما فسّر به القدر عند الأشعري. ومن هنا نرى التقاء أهل السنّة من أشاعرة وماتريدية وغيرهم على مدلولات متشابهة وإن تبادلت تسمياتها. ويصحّ لنا أن نجعل كلمتي القضاء والقدر عنوانا مشتركا ، ونأخذ لهما مدلولا واحدا مشتركا ، وهذا ما يبدو من مظاهر الاستعمالات الشرعية لهما ، إذ قد يجتمعان في الاستعمال وقد ينفردان والمدلول واحد. فمعنى القضاء والقدر معا: هو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ، ثمّ يكون إيجادها على وفق المراد .

إلاّ أنّني سبرتُ النصوص القرآنية لكلمتي « القضاء والقدر » ومشتقاتهما ، فتبيّن لي: أنّ القدر يراد منه تحديدُ مقاديرِ عناصر كلّ شيء من الذوات والصفات

(١) نفس المصدر السابق: ١/ ١٣٢.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسُسُها ، دار القلم ، دمشق ، طبعة١١/ ٢٠٠٢ ، ص٦٢٧.

والأزمان والأمكنة والأحكام وكل شيء ، فكلّ شيء عند الله عزّ وجلّ بمقدار. وأنّ القضاء إنّما هو إمضاء إراديّ وبتٌّ لما قُدِّرت مقاديره بمقتضى العلم والحكمة لكلّ ممكن. ثمّ بعد الإمضاء بالقضاء يأتي الخلق والإيجاد أو الجعل أو التبليغ والبيان. ونحو ذلك من الآثار التي تكون بعد الإمضاء والقضاء ، في أزمانها وأماكنها المقدّرة المقضيّة ، وكلّ صفاتها مهما دقت مادية كانت أو معنوية » .

ـ عبد الهادي الأراشيكي[١] : يرى أنّها « من الأسرار التي استأثر الله سبحانه بمعرفة حقائقها وماهيتها ، ولسنا مكلّفين بمعرفة وإدراك كنه القدر وحقيقته ، لأنّ ذلك يستدعي علمًا محيطا بكلّ شيء مختص بالله اللّطيف الكبير ، فالإنسان بإنسانيته فقط لا يقدر على الكشف عن ماهية القدر وسره بعقله وإدراكه البشري ، ولهذا ورد النهي عن الخوض والتعمّق في البحث عن سرّ القدر ».

ـ أبو بكر جابر الجزائري[٢]: عرض لذلك من خلال جملة مقدّمات نظرية حول حدوث العالم ونظام الكون وحسن التدبير والتسيير ، ثمّ قال: « ولكي يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التي قدمناها تمهيدا لبحث القضاء والقدر ، وما أوردنا فيها من كلام في خلق الكون والنظام الذي رُبط به ، والسنن التي تحكم كلّ أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كلّه: في الإنسان وفي الحيوان ، في النبات والجمادات. لقد رأينا أنّ النّظام الشمسي في غاية الدقة ، إذ لكلّ كوكب بل لكلّ نجم من النجوم وهي بلايين مساره الذي يسير فيه ، ومداره الذي يدور عليه ، وذلك على مرّ هذه الحياة الطويلة ، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذي يدور

---

(١) خلاصة البيان في تاريخ الإسلام وإنسانية الإنسان، نشر وتوزيع المكتبة الإسلامية بديار بكر، نقلا عن راشد الغنوشي: القدر عند ابن تيمية، المركز المغاربي للبحوث والترجمة، طبعة٢/ ١٩٩٩، ص٣٧ .

(٢) عقيدة المؤمن، دار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء، المغرب، ص٤١٦ .

عليه ، ولا نجم عن مساره الذي يسير فيه ، إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود.

كما رأينا سنن الله تعالى في حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات نشوءاً ، وتطوّرا ، ونماء ، وبقاء ، وفناء. وأنّ ذلك مربوط بسنن لا تتبدّل ، وبذلك انتظمت الحياة ، فهي تسير إلى غاياتها المحدودة لها. وعرفنا أنّ هذا هو سرّ القدر ، وتفسيره. ومن هنا صحّ لنا أن نعرّف القدر والقضاء بأنّهما: علم الله تعالى الأزلي بكلّ ما أراد إيجاده من العوالم ، والخلائق ، والأحداث ، والأشياء ، وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذِكر الذي هو اللّوح المحفوظ ، كما هو حين يقضي بوجوده في كميته ، وكيفيته ، وصفته ، وزمانه ، ومكانه ، وأسبابه ، ومقدّماته ، ونتائجه ، بحيث لا يتأخّر شيء من ذلك عن إبّانِه ، ولا يتقدّم عمّا حُدِّد له من زمان ، ولا يتبدّل في كميته بزيادة أو نقصان ، ولا يتغيّر في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال ، وذلك:

أوّلا: لسعة علم الله تعالى الذي علم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعظيم قدرته عزّ وجلّ التي لا يحدّها شيء ، ولا يعجزها آخر ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وثانيا: لربطه تعالى الوجود كلّه بقانون السّنن الذي يحكم كلّ أجزاء الكون علويّه وسفليّه على حدّ سواء .

هذان هما القضاء والقدر اللّذان لا ينكرهما إلاّ مكابر مجاحد ، أو جاهل معاند ، إذ هما يتجلّيان في شكل قوانين ثابتة كلّ كائن في هذا الوجود من الفلك إلى النّور والحلك ، ومن الإنسان إلى الحيوان ومن النباتات إلى الجمادات .

ـ السيّد سابق[١]: قدّم للتعريف بذكر آيات قرآنية كثيرة تثبت أنّ الله تعالى فاعل مختار ، لاعتبار أنّ الإيمان بهذا جزء من الإيمان بالله ، ويتفرّع عنه الإيمان بالقدر الذي جاء ذِكره في القرآن الكريم مرارا ، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٤] ، ثمّ عرّف القدر بقوله : « والذي يؤخذ من مجموع هذه الآيات أن المقصود بالقدر: هو النّظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود ، والقوانين العامّة ، والسّنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبّباتها » .

ـ محمّد سعيد رمضان البوطي[٥] : يرى أنّ القضاء ، هو علم الله عزّ وجلّ في الأزل بالأشياء كلّها على ما ستكون عليه في المستقبل. ومن ذلك سائر تصرّفات الإنسان الاختيارية والقسرية. وأمّا القدر فهو ظهور تلك الأشياء بالفعل طبقا لعلمه الأزلي المتعلّق بها. وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء للقدر والعكس. والأمر محتمل والخطب فيه يسير.

يقول الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ، بعد أن عرّف القضاء والقدر:« قال الخطابي : وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدّره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهّمون ،

---

(١) العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٩٥.

(٢) سورة الرعد: ٨.

(٣) سورة الحجر: ٢١.

(٤) سورة القمر: ٤٩.

(٥) كبرى اليقينيات الكونية ، دار الفكر بدمشق، طبعة ٢٠٠١، ص١٦٠.

وإنّما معناه الإخبار عن تقدّم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من أكساب العبد وصدورها عن تقدير منه[١]. وذكر ابن حجر الهيثمي في شرحه على حديث عمر ابن الخطاب ﷺ عن الإيمان تعريف القضاء فقال: والقضاء علم الله أولا بالأشياء على ما هي عليه، والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم[٢]. وعرّف الإمام البركوي قضاء الله المتعلّق بأفعال العباد بكون هذه الأفعال صادرة بعلم أزلي سابق من الله. وبوسعنا أن نعبّر عن هذا كله بكلمة وجيزة جامعة، وهي أنّ القضاء علم الله بكل ما يقع في الكون وكل ما يصدر عن الإنسان، والعلم صفة كاشفة وليست صفة مؤثرة »[٣].

ـ فاروق دسوقي[٤]: قدّم لتعريفه بستّة مداخل منهجية تتعلّق ببعض القواعد المنهجية التي تضبط حركة التأصيل العقدي، والأسس الغيبية للحرية الإنسانية، والمفاهيم القرآنية الأربعة: الفطرة والأمانة والخلافة والابتلاء، ولماذا خلق الله العالم والإنسان، والجبر والاختيار، والاستطاعة، والمعرفة والعلم. ثمّ عرّف القضاء « بمعنى إرادة الله النافذة في الخلق والفعل في زمان ومكان وبكيف وبكم محددين، حسب ما شاء الله عزّ وجلّ، وما سبق في علمه تعالى، مع تسجيل ذلك في صحائف ومسجلات سماوية، مع عدم تخلّف شيء ممّا هو مدوّن عن الحدوث في وقته والمطابقة التامّة الدقيقة لما يحدث على الأرض وفي العالم بما هو مدوّن في هذه الصحائف. والقدر في القرآن الكريم والسنة، هو تقدير كل شيء تقديرا مسبقا على خلقه وحدوثه، أي تحديده ماهية وخاصية وصفة وكما وكيفا، زمانا

(١) النووي على صحيح مسلم، ١/ ١٥٤ وما بعدها.

(٢) فتح المبين بشرح الأربعين النووية، ص ٦٤.

(٣) الإنسان مسيَّر أم مخيَّر، دار الفكر بدمشق، طبعة٢/ ١٩٩٨، ص٣٧ وما بعدها.

(٤) القضاء والقدر في الإسلام، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع بالأسكندرية، ١/ ٣٤٤.

ومكانا كذلك.

ـ محمّد الغزالي[١]: الإيمان بالقضاء والقَدَر عقيدة من العقائد التي أسّسها الإسلام على الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وبناها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا ، وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى. ولا ريب أنّ الإسلام قد أوجب لله نعوت الكمال ، وصفات الجلال والجمال ، ودواعي الحمد والتمجيد. ووافق العقل النقل في ذلك كلّه ، ثمّ فصلت هذه الكمالات الواجبة لربّ الوجود ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[٢] ، فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والاطمئنان إليه ، إنّ لله وحده صفات العلم الواسع ، والإرادة الشاملة ، والقدرة الكاملة ، وأنّه سبحانه فعّال لما يُرِيد ، عالم بما يفعل. ويتعلّق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها ، وأعمال النّاس وتصرّفاتهم على نحوين واضحين متميّزين ، لكلّ نحو منهما حكمه الخاصّ وآثاره التي تترتّب عليه.

ثانيا : خلاصة مذهب أهل السنّة في القضاء والقدر:

ومن خلال تلك التعريفات نتهي إلى أنّ مذهب أهل السنّة هو: إثبات القدر بدرجاته الأربعة: العلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وفرّقوا بين الإرادة الكونية القدرية وهي المشيئة وبين الإرادة الشرعية التي مقتضاها التكليف ومن لوازمها المحبّة ، فقالوا: قد يقع في ملك الله ما لا يريده شرعا ولا يرضى عنه كالكفر والشرك وسائر الذنوب ، ولكن لا يقع في ملكه تعالى إلاّ ما يريده كونا. كما قالوا بإثبات الإرادة البشرية وقدرة العبد على الاختيار ، ولكنها ليست قدرة ولا إرادة مطلقة ، بل تحيط بها قدرة الله عزّ وجلّ وتهيمن عليها مشيئته ، وأنّ مناط التكليف

(١) عقيدة المسلم، دار الدعوة بالأسكندرية، طبعة٣/ ١٩٩٠، ص١٠٨.

(٢) سورة الأعلى : الآيتان ٢ ،٣.

يتمثّل في العقل والقدرة وبلوغ الحجّة[١].

وجوب الإيمان بالقضاء والقدر:

يستفاد ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة، التي فصّلت في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته وخلقه، كما وردت أحاديث نبوية عديدة تؤكّد وجوب الإيمان بالقدر خيره وشرّه وأنّه جزء من الإيمان، لا يكتمل إلاّ به. فمعنى وجوب الإيمان بهما: هو أنّه يجب على المكلّف أن يؤمن بأنّ الله سبحانه وتعالى علم أوّلا بجميع أفعال العباد، وكلّ ما يتعلّق بالمخلوقات، ممّا سيتوالى حدوثه في المستقبل، كما يجب عليه أن يؤمن بأنّه سبحانه وتعالى إنّما أوجدها، حين أوجدها، على القدر المخصوص والوجه المعيَّن الذي سبق العلم به[٢].

فعن عمر بن الخطّاب ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: « **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** »[٣]. و عنه ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: « **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنّة والنّار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشرّه** »[٤]. وقال الرّسول ﷺ: « **لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر** »[٥]. وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: « **الإيمان بالقدر نظام**

---

(١) عبد الله المصلح وصلاح الصّاوي: ما لا يسع المسلم جهله، المؤسسة الإسلامية في أمريكا، طبعة٢/ ٢٠٠١، ص ١٠٥ وما بعدها (بتصرّف).

(٢) محمّد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، ص ١٦٠.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٤) رواه البيهقي في شُعب الإيمان، وهو صحيح.

(٥) رواه الترمذي.

التوحيد »[١]. وعنه أنّ رسول الله ﷺ قال: « الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن »[٢].

حكمة الإيمان بالقضاء والقدر:

للإيمان بالقضاء والقدر حكم كثيرة، منها الظاهر الذي يعرفه البشر ويؤثّر في حياتهم بشكل مباشر، ومنها ما لا نعلمه قد استأثر الله بعلمه، وفي كلّ ذلك خير للبشر؛ لذلك جاءت أحاديث كثيرة توضّح المؤمن معاني الرضا والصبر والتوكّل والشكر، وما لها من مضامين عقدية تربي النّاس على التسليم بأمر الله وعدم منازعته في سلطانه وحكمه؛ لذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ: « لو كان الصبر والشكر جملان، ما باليت على أيّهما أركب »، للتدليل على أنّ كلاهما مؤدي للآخر وأنّ المؤمن يعيش شاكرا وصابرا، فإن أصابته سرّاء شكر وإن أصابته ضرّاء صبر. فكلّ أمره خير، حتى الشوكة يشاكها له بها أجر، وليس لغيره ذلك.

ومن حكمة الإيمان بالقضاء والقدر:

ـ أن تنطلق قوى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السّنن، ولتدرك هذه القوانين، وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير، وفي استخراج كنوز الأرض والانتفاع بما أودع الإله في الكون من خيرات. وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوّة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية في الحياة، كما أنّ الإيمان بالقدر يربط الإنسان بربّ هذا الوجود، فيرفع من نفسه إلى معالي الأمور: من الإباء والشجاعة والقوّة، من أجل إحقاق الحق، والقيام بالواجب.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(٢) رواه الحاكم في تاريخه والقضاعي.

ـ والإيمان بالقدر يُري الإنسان أنّ كلّ شيء في الوجود إنّما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسّه الضر فإنّه لا يجزع، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنّه لا يفرح ولا يبطر، وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح، كان إنسانا سويا متّزنا، بالغا منتهى السموّ والرّفعة[1]، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2].

ـ أنّ القضاء والقدر وسيلة للفعل والحركة، كما علّم الرّسول ﷺ ذلك أصحابه، فكان سببا في الانتصارات والفتوحات العظيمة، والتمكين المبين. وكان ﷺ يعلّمهم أنه إذا أدركت القيامة أحدهم وفي يده فسيلة إن استطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليفعل، فإن له بذلك أجر.

ـ الإيمان بالقضاء والقدر يعرّف الإنسان على حقيقة إنسانيته، وعِظم مكانته، وغاية وجوده، وأنّه وجد لغاية سامية وليس صدفة كما ترى الفلسفات المادية والعبثية العدمية.

فقه الصحابة لعقيدة القضاء والقدر:

كان عمر بن الخطّاب ﷺ يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشرّه، كما يؤمن بالإرادة الإنسانية المختارة، ويعرف حقيقة الابتلاء كحكمة من أجلها خلق الله الكون والإنسان، وجعله شعوبا وقبائل ومجتمعات، ويؤمن بأنّ النّاس جميعا أحرار بالفطرة. وقد قال لعمرو بن العاص في المصري الذي ضربه ابنه بالسّوط:

---

(١) السيّد سابق: العقائد الإسلامية، ص ٩٦.

(٢) سورة الحديد: ٢٢، ٢٣.

« متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا » ، وسُمِع في أشدّ محنته وهو يُطعَن يقول: « وكان أمر الله قدرا مقدورا » . وفي المقابل كان عمر بن الخطّاب ﷺ حازما وشديدا في منع إثارة الجدال في القدر ، لما لذلك من فتنة وخطر على إيمان عامّة المسلمين ووحدة العالم الإسلامي النّاشئ ، فقد رُوِي أنّه سمع عن عبيد الله صبيغ بن عسل الذي تكلّم في القدر في عهده ، فاستدعاه وأدمى رأسه ، فامتنع.

ويختلف عهد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ عن عهد الخلفاء قبله ، حيث ظهرت الفتن والحروب والاضطرابات ، ممّا جعل الاحتجاج بالقدر والقول بالجبر يستشري بين النّاس . إلاّ أنّ النّزر القليل الذي لربّما ثبتت نسبته للإمام علي ﷺ في كتاب « نهج البلاغة » يعطينا فكرة واضحة عن فقهه لعقيدة القضاء والقدر ، وذلك من خلال محاوراته وإجاباته. وممّا أثر عنه قوله: « الحازم من ترك الدنيا للآخرة ، والرّابح من باع العاجلة بالآجلة » ، وقوله: « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكلّ واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فكلّ يتبعها ولدها ، واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل » .

فالواضح من قوله: « فكونوا من أبناء الآخرة ، اعتقاده باختيار الإنسان بين الدنيا والآخرة ، وهو ما يطابق الاختيار الإنساني في القرآن الكريم ، بل إنّه ليرفع الحريّة الإنسانية كقيمة فوق قيمة الحياة حيث يقول: « الموت ولا ابتذال الحرية والتقلّل ولا التذلّل » . وفي نفس الوقت كان يؤمن بأنّ كلّ شيء في حياة الإنسان والعالم يتمّ بقضاء الله وقدره ، ويؤيّده قوله: « المقادير لا تُدفع بالقوّة والمغالبة ، والأرزاق لا تنال بالحرص والمطالبة » ؛ لذلك فإنّ « الرضا بقضاء الله يهوّن عظيم الرزايا » ، وهو عين التربية النبوية الخالصة وموافق لما جاء في الحديث النبوي:

«الإيمان بالقدر يُذهِب الهمَّ والحزن »[1].

وفي عهد الدّولة الأموية زاد الاحتجاج بالقدر ، وبرزت الجبرية الخالصة كعقيدة تفسِّر العلاقة بين المشيئة الإلهية وبين الفعل الإنساني وخاصّة في الشّام ، ويتّضح ذلك في رسالة عبد الله بن عبّاس ﷺ إلى أهل الشّام يرفض قول الجبرية في الاحتجاج بالقدر: « أمّا بعد أَتَأمُرون النّاس بالتقوى وبكم ضلّ المتّقون وتَنهَون عن المعاصي وبِكُم ظهر العاصون » ، ثمّ يقول: « هل منكم إلاّ مفتر على الله يحمل أجرامه عليه وينسب ذنوبه علانية إليه » . وبذلك يتّفق مع جميع الصحابة في رفض الجبر الخالص كتفسير للعلاقة بين الله والإنسان ، فذلك متعارض مع القرآن الكريم والسنّة. وما وصلنا عن ابن عبّاس ﷺ هو مجرّد تصحيح للأفكار الخاطئة الشائعة بين النّاس في عصره عن هذه العلاقة ، وردّهم ردّا مباشرا إلى الحقيقة القرآنية ، فهو هنا ينفي الجبرية المحضة التي يتعلّل بها العاصون ويؤكّد وجود إرادتهم المختارة ويُحمِّلهم مسؤوليتهم عن الفعل الخلقي ، ويتّهمهم بالزيغ والضلال.

ولكنّه لم يكن لينفي القدر طلبا لنفي الجبرية ، ولم يقل باستقلال القدرة الإنسانية الحادثة وخلقها للفعل ، بل القدر عنده يشمل كلّ حادث وكلّ فعل صغير وكبير في الكون المخلوق وفي حياة الإنسان ، حيث يقول: « كلّ شيء بقدر حتّى وضعك يدك على خدّك » ، وقد أجاب عن سؤال مجاهد: ما القدر؟ ، بقوله : « يا مجاهد أين قوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ، ومن ثمّ فهو يرفض إنكار القدر كما يرفض القول بالجبر ؛ لذلك فإنّ منهج الصحابة رضوان الله عليهم

(١) رواه الحاكم في تاريخه والقضاعي .

جميعا كان أكثر من كونه منهجا فكريا ، بل كانوا يصحّحون مفهومات النّاس عن الألوهية والعالم والإنسان ، ويردّونهم إلى المفهوم الصحيح كلّما رأوا انحرافا هنا أو اعوجاجا هناك[١].

علاقة فعل الإنسان بالقضاء والقدر :

تتحدّد تلك العلاقة في ضوء فقه الصحابة لعقيدة القضاء والقدر ، كما كنّا أوردنا سابقا تعريف علماء اللّغة والعقيدة للمصطلحين ، ومن خلال ذلك نخرج بهذه العقيدة من حيّز الإكراه والجبر والتحلّل من المسؤولية إلى طور العمل والفعل وتحمّل المسؤولية. وتعاطي الإنسان مع حقائق الحياة يكون على حالتين:

الأولى : هناك أمور تحدث وتتمّ بمحض القدرة العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهي تنفذ في النّاس طوعا أو كرها ، سواء شعر بها النّاس أو لم يشعروا. فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء ، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قِصر وجمال وقبح ، والبيئة التي تنشأ فيها والوالدان اللّذان تنحدر منهما ، والحياة والموت ، والصحة والمرض ، ذلك ومثله لا يد للإنسان فيه ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢] ، فإذا علم الواحد منهم أنّ أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام ، أدّى واجبه على الوجه الأكمل ، وفي أذنيه دويُّ التّوجيه الإلهي: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

(١) فاروق دسوقي: القضاء والقدر في الإسلام ، ص ٣ وما بعدها (بتصرّف) .

(٢) سورة آل عمران : الآيتان ٥ ، ٦.

ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

الثانية : تتّصل بأعمال على عكس الأولى ، فنحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا وحركة ميولنا ورقابة ضمائرنا ، فعندها نُحِسُّ باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع في دائرتها ، وكان يكفي هذا الإحساس دليلا على حريتها لولا أنّ هناك من يزعم أنّ الإحساس يكذب أحيانا ، إلاّ أنّ النّصوص القرآنية تؤكّد هذا الإحساس البديهي وتفنّد ما يزعمه البعض ، كما فيها تنويه بحرية الإرادة الإنسانية[٢] ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣] ، ويكون الإنسان تبعا لذلك متحمّلا لنتيجة اختياره ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[٤]. وعندها تنكشف للمسلم حقيقة الضلال والهداية لارتباطهما بالاختيار الإنساني الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٥].

سابعا : الإيمان بيوم الآخرة :

إنّ الإيمان بعقيدة البعث تزكّي في النّفوس روح الثقة واليقين بالله ، ويعمّق

---

(١) سورة التوبة : ٥١.

(٢) محمّد الغزالي : عقيدة المسلم ، ص ١١٠ وما بعدها (بتصرّف) .

(٣) سورة الكهف : ٢٩.

(٤) سورة يونس : ١٠٨.

(٥) سورة التوبة : ١٠٥.

الاطمئنان للعدل الإلهي ، فتقوى دوافع الخير عند الإنسان وتضعف نوازع الشرّ ، فيزداد تقوى وخوفا من الله ، يجهد نفسه من أجل إرضائه واستعدادا للقائه ، فيزداد مراقبة لله في جميع أحواله ، ويتأسّى بصاحب الخلق الحسن الذي كان قرآنا يمشي بين النّاس ، ويزيد ذلك أو ينقص تبعا لرسوخ عقيدة الإيمان بالآخرة أو ضعفها ، وقد قرّر القرآن الكريم أنّ الإنسان ما خُلق عبثا ، وإنّما وجد لغاية سامية رفيعة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (١) ، وأنّه من دواعي العدل الإلهي أن يجازى الإنسان على فعله الخيرات ، ويحاسب المذنب والعاصي على ما قدّمت يداه ، وما زعمه الدّهريون الملاحدة من أنّ الإنسان خلق من عدم وهو إلى الفناء ، باطل لا يقبله عقل سليم ، ولا يُقرّه دين قويم ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٢).

إنّ اليوم الآخر هو تتويج لرحلة الإنسان على طول هذا الامتحان ، إذ الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنّ أهمية الاعتقاد فيه لا تقلّ على أهمية العنصرين السّابقين. فمسألة البعث والحساب والجزاء في الدّار الآخرة من القضايا العقائديّة الرئيسيّة التي جاء بها الإسلام ، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضيّة وحدانيّة الله ، والتي لا يقوم أمر هذا الدّين؛ عقيدة وتصوّرا ، وفهما ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما عادلا ، إلاّ بها وعليها ، فكان هذا فهم الصّحابة وأهل العلم الذين تعرّفوا على حقيقة ذلك الرّكن ، فاستقامت طريقتهم في الحياة الدّنيا ، ولهم عند الله القبول الحسن وخير الجزاء. فقد أثر عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ أنّه إذا

(١) سورة القيامة : ٣٦.

(٢) سورة الرّعد : ٥ .

وقف على قبر بكى حتّى يبلّ لحيته ، فقيل له: أتذكر الجنّة والنّار فلا تبكي ، وتذكر القبر وتبكي؟ ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **القبر أوّل منزل من منازل الآخرة ، فإن نجى منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ منه** »[1].

فالحياة في التصوّر الإسلامي ليست هذه الفترة القصيرة من عمر الإنسان ، يمضيها ثمّ يمرّ ، ولا عمر الأمم التي تفنى وتعقبها أخرى ، بل الحياة في التصوّر الإسلامي ذات أبعاد شتّى ، فهي:

أ ـ تمتدّ طولا في الزّمن ، كما تمتدّ عرضا في الآفاق ، وتمتدّ تنوّعا في الحقيقة ، مختلفة عن الحياة التي يتصوّرها الذين أسقطوا الحياة الآخرة من حسابهم ، وأغفلوا البعد الغيبي عن حياتهم التي أضحت مجرّد متاع مادي ، لا اعتبار فيه للغيب ؛ كمدد ربّاني وقوّة خفيّة تشدّ عزم الإنسان وتدفع به نحو الفلاح والصّلاح .

ب ـ أنّها تتجاوز الفترة الزمنية المحدودة ، إلى حياة أخرى لا يعلمها إلاّ الله ، والتي تعادل فيها الحياة الدّنيا ساعة من نهار ، بل تمتدّ في المكان فتضيف لهذه الأرض امتدادا أوسع وأرضا أرحب ، فيها جنّة عرضها كعرض السماوات والأرض ، ونارا تتّسع كمّا هائلا من البشر ، وتطلب المزيد كلّما ألقي فيها فوج. وفي كلّ ذلك حياة لا يعلم كيفيتها إلاّ الله ، ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدّنيا .

فمن الاختلاف في التصوّر ينتج الاختلاف في القيم ، ممّا يؤدّي إلى اختلاف

---

(١) أخرجه التّرمذي ، وقال: حسن غريب .

النّظم والمناهج ، لاعتبار أنّ الدّين منهج حياة متكامل متناسق ، تتبيّن خصوصيّته في بنائه العقائدي والأخلاقي والسلوكي والتّشريعي. وكثيرا ما يقدح بعض النّاس في الإيمان بالآخرة ، ويعتبرونها دعوة للسّلبية ، وترك الدّنيا للجبابرة والطغاة يعمرونها ، في حين هم أولى بإعمارها وإصلاحها ، فكلّ ذلك في حقيقة أمره افتراء ، أضيف له جهل بمعنى وأبعاد الإيمان بالآخرة كيوم للحساب والجزاء ، وأنّ الدّنيا في التصوّر الإسلامي هي مزرعة للآخرة ، والجهاد في الدّنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشرّ وردّ العدوان والفساد ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للنّاس كافّة ، كلّ ذلك مفتاح الآخرة ، الذي لا غنى عنه ، وهو تفسير منطقي لمعنى التّكليف وإنعام الله سبحانه وتعالى على عباده بنعمة العقل ؛ لذلك توجد علاقة وثيقة بين هذا الرّكن وما يسبقه من أركان الإيمان ، بل عمق الإيمان بيوم الآخرة هو دليل صدق إيمان الإنسان ، ومدى تمكّن الإيمان من نفسه ، وخضوعه لأمر الله وأخذه به ، وذلك مدار الجزاء بصنفيه؛ الجزاء الدنيوي والأخروي ، المعجّل منه والمؤجّل ، وفي ضوءه كانت فلسفة الثواب والعقاب.

لقد جمعت الشريعة الإسلاميّة بين العدل والفضل ، وهي صفة خاصّة بها ، بعكس شريعة موسى التي انفردت بالعدل دون الفضل ، وشريعة عيسى التي خصّت بالفضل دون العدل ، فالعدل والفضل في التصوّر الإسلامي قائم على أمرين:

الأمر الأوّل: أن الجزاء بالمثوبة على ما نفعل من خير ، إنّما هو فضل من الله نستحقّه بكريم وعده ، وليس لنا فيه حقّ ذاتي .

الأمر الثّاني: الجزاء بالعقوبة على ما نفعل من شرّ ، تطبيق لقانون العدل المُدرَك

بالبديهة ، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (١).

فما أصابنا من حسنات فهو تطبيق لقانون الفضل الإلهي ، وما أصابنا من سيّئات فهو تنزيل لقانون العدل الإلهي ، لقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٢) ، فكان أدنى الجزاء على الحسنة عشر أمثالها ، وأعلى الجزاء على السيّئة مثلها ، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣).

إنّ النّظر في التّناسق البديع للكون ، وحسن تآلف أركانه ومكوّناته ، يؤدّي بالإنسان السويّ صاحب العقل السّليم والذّوق الرّفيع ، إلى الإقرار بنتيجة حتميّة مفادها أنّ هذا الكون إنّما خلق لحكمة رفيعة وغاية جليلة ، إذ إنّ دراسة الكون والحياة تهدي إلى الإيمان بالله تعالى الخالق القادر الحكيم العليم ، الذي تفرّد بصفات الكمال والجلال. فبالملاحظة الهادئة العاقلة الرّشيدة للكون وما له من إبداع الصنعة وحسن التّكوين ، يهتدي الإنسان إلى الغاية من الخلق.

كما أنّ دراسة العلاقة الأخلاقيّة التّكوينية بين الخالق والإنسان المؤهّل للحياة ، تهدي إلى أنّ الإنسان خلق من أجل غاية عظيمة قوامها الابتلاء والامتحان ، الذي يترتّب عليه الجزاء بجميع صوره : المعجّل منه والمؤجّل ، في الحياة الدّنيا وفي

---

(١) سورة النّجم : ٣١ .

(٢) سورة النّساء : آية ٧٩ .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٠.

الآخرة ، وهو قانون ربّاني يحيل الإنسان إلى حقيقة أكيدة ، مفادها أنّ الجهد الإنساني مهما كان تواضعه إذا اقترن بصلاح ونيّة حسنة فهو عند الله عظيم ، ممّا يحيله بداهة إلى أنّ كمال العدل والحكمة لم يتحقّقا في هذا الكون ، وإنّما هما من خصائص حياة أخرى تحكمها صفات العدل والحكمة والعلم...وهو ما تقرّره الآيات القرآنيّة في وضوح ، من مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣).

لذلك فإنّ الإيمان باليوم الآخر ضرورة أخلاقيّة تنبني على طبيعة العدل والفضل الإلهي ، كما أنّه ضروري لسعادة الإنسانيّة جميعا ، بانعكاسه إيجابا على السّلوك الفردي والجماعي ، ممّا يولّد حصانة أخلاقيّة وسلوكيّة لجماعة النّاس ، تحميهم من أن يفرط أحدهم على الآخر. فالإيمان باليوم الآخر قيمة وضابط في آن ؛ لذلك تواتر ذكره في القرآن الكريم ، بل ويكون دائما مقترنا بعقيدة الإيمان بالله ، ممّا يحتّم وجوب الإيمان به وتنزيله المنزلة الحق ، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ

(١) سورة المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦.

(٢) سورة القلم : ٣٥ ، ٣٦.

(٣) سورة الجاثية : ٢١.

ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [١]. وقد اهتمّ القرآن الكريم باليوم الآخر اهتماما بالغا ، ويبدو ذلك من خلال ثلاث استخلاصات كبرى:

الأولى: يربطه بالإيمان بالله ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [٢] ، فجعل ذلك من مستلزمات البرّ متوقّف عليه .

الثّانية: يكثر القرآن من ذكره له ، فلا تكاد سورة تخلو من الحديث عنه ، مع تقريبه إلى الأذهان تارة بالحجّة والبرهان ، وتارة بضرب المثال.

الثالثة: أنّه وضع لهذا اليوم أسماء كثيرة ، يدلّ كلّ واحد منها على معنى بعينه: يوم البعث ، يوم القيامة ، السّاعة ، الطّامة ، الصّاخة ، يوم التناد ، يوم الحسرة ، يوم الخروج ، الآزفة ، الواقعة... [٣].

ولو تتبعنا حكمة الاهتمام باليوم الآخر في القرآن الكريم ، لوجدنا لذلك أسبابا منها:

أوّلا: أنّ المشركين من العرب كانوا ينكرونه ، ويجعلون من الفناء المطلق مصيرا للنّاس جميعا ، فلا حساب ولا قصاص ، وإنّما هي حياة دنيويّة تعقبها نهاية مجهولة أبديّة ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [٤].

ثانيا: أنّ أهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون بالـ ـم الآخر ، إلاّ أنّ تصوّرهم عنه

---

(١) سورة النّساء : ١٣٦.

(٢) سورة البقرة : ١٧٧.

(٣) انظر سيّد سابق : العقائد الإسلاميّة : ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٤) سورة الجاثية : ٢٤ .

كان مخالفا لما جاء به الأنبياء ، فهو عند النّصارى يختزل في المسيح المخلّص الذي صلب بحسب عقيدتهم فداء للبشريّة ، أمّا اليهود فليس لهم تصوّرا واضحا له ، بل أغلب تصوّرهم للجزاء لا يتعدّى الجزاء المادي من مباركة وزيادة مال.

ثالثا: أنّ الإيمان باليوم الآخر يعطي لحياتنا معنى رفيعا ، وهدفا نبيلا ، وغاية سامية ، تتمحور حول فعل الخيرات وهجر المنكرات والتّسابق نحو الفضائل والابتعاد عن الرّذائل والانصراف إلى ما فيه مرضاة الله والابتعاد عن ما يغضبه ، فهو مرغّب في الخير معرّف على أبوابه ، محذّر ومنفّر من الشرّ وكاشف لمداخله حتّى تُحذَر.

فقضيّة البعث قاعدة أساسيّة في العقيدة الإسلاميّة ، وثيقة الصّلة بمسألة الجزاء ثوابا وعقابا ، وأنّه حين ينهار أساس الآخرة في النّفس ينهار معه كلّ تصوّر لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ، فالإيمان بالبعث والحشر والحساب والجزاء عنصر في العقيدة أصيل لا يستقيم منهجها إلاّ به ؛ لذلك فلا بدّ لعَالَمٍ مُرتَقَبٍ يحقّق فيه وعد الله. وقد كان هذا ممّا أعجب الكافرين وأدهشهم ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[1].

وقد خصّ الله نفسه بعلم الآخرة ، فكان ذلك غيبا لا يُطلِع عليه أحدا من خلقه ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي

(١) سورة النمل : ٦٧.

شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ (١) ، فإنكارهم لها ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله تعالى وتقديره ، حكمته التي اقتضت أن لا يُترك النّاس سدى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (٢) ، بل قالوا أكثر من ذلك في معرض إنكارهم ، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ (٣) .

فكلّ من يدرك الله في خلقه ، يدرك أنّ الآخرة ضروريّة لتحقيق وعد الله وخبره ، ثمّ وفيم العجب وهم قد خُلِقوا ابتداء من غير شيء؟ ، فالذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء ، ولا عوض عمّا يلقاه في الحياة ، فالاعتقاد في الآخرة رحمة ونعمة يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يستحقّها من عباده ، بإخلاص قلب ، وتحرّي حق ، والرّغبة في الهدى ، وهو بخلاف حال الدّهريّين الذين اختاروا مقولة الفناء ، فوقعوا في الفوضى والمظالم ولم يجدوا من مفسّر للزّوال إلاّ الفناء الأبدي : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٤) ، في حين أنّ الدّهر لا يصلح لتفسير الموت ؛ لأنّه لا عمل له في هذا المجال .

الخصائص العامة للإسلام :

هي الخصائص المميّزة للتصوّر للإسلامي ، والتي تكسبه شخصيّة فريدة

---

(١) سورة النمل : ٦٦.

(٢) سورة سبأ : ٣.

(٣) سورة سبأ : ٧ ، ٨ .

(٤) سورة الجاثية : ٢٤.

مستقلّة ، نابعة من مرجعيّته العليا المقدّسة ، لا تنفصل عنه ولا تتبدّل ، بل لا يكتسب التصوّر صفة الإسلاميّة إلاّ مقترنا بها ، تغيّر الزّمان أو تحوّل المكان ، تعلّق الأمر ببلاد الشّرق السابقة للإسلام أو ببلاد الغرب اللاّحقة ، حيث كان المسلمون أغلبيّة أو أقليّة ، فإنّ الحكم على تلك الخصائص واعتبارها ، هو من قبيل التأكيد على ما هوّ ثابت دائم لا يطاله التغيير أو التصرّف أو الاجتهاد ، إذ هي سمات تحدّد هويّة هذا الدّين الخاتم الجامع الشامل ، الذي تفرّد بصبغته الخاصّة ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [1] ، إلاّ أنّ « هذه الخصائص تتعدّد وتتوزّع ، ولكنّها تتضام وتتجمّع عند خاصيّة واحدة ، هي التي تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص: خاصيّة الربّانية. إنّه تصوّر ربّاني ، جاء من عند الله بكلّ خصائصه وبكلّ مقوّماته ، وتلقّاه « الإنسان » كاملا بخصائصه هذه ومقوّماته ؛ لا ليزيد عليه من عنده شيئا ، ولا لينقص كذلك منه شيئا ، ولكن ليتكيّف هو به وليطبّق مقتضياته في حياته ، وهو من ثمّة تصوّر غير متطوّر في ذاته ، إنّما تتطوّر البشريّة في إطاره ، وترتقي في إدراكه وفي الاستجابة له ، وتظلّ تتطوّر وترتقّى ، وتنمو وتتقدّم ، وهذا الإطار يسعها دائما ، وهذا التصوّر يقودها دائما ؛ لأنّ المصدر الذي أنشأ هذا التصوّر هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان ، هو الخالق المدبّر الذي يعلم طبيعة هذا الإنسان ، وحاجات حياته المتطوّرة على مدى الزّمان ، وهو الذي جعل في هذا التصوّر من الخصائص ما يلبّي هذه الحاجات المتطوّرة في داخل هذا الإطار »[2].

---

(١) سورة البقرة : ١٣٨.

(٢) سيّد قطب : خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته ، الاتّحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلاّبية ، طبعة ٣ / ١٩٨٣، ص٦٥.

ومن تلك الخصائص ما هو متعلّق بالمصدريّة ومنها ما هو متعلّق بطبيعة الإسلام من حيث هو دين خاتم ، يفترض أن يتّصف بمواصفات الديمومة والعالمية والشمول ، وغيرها من الصفات التي تتجاوز بالإسلام أن يكون دينا فئويّا أو ظرفيا أو متعلّقا ببعض القضايا دون غيرها ، وإنّما هي صفات تتّفق وطبيعة الإسلام كدين تتّحد فيه الدّنيا بالآخرة ، ومن تلك الخصائص:

ـ الربّانية : وهي صفّة تتعلّق بالمصدريّة ، إذ إنّ هذا الدّين في مصدره إلهي وليس وضعي ، يتحاكم إليه كلّ النّاس وإن اختلفت أزمانهم وأوطانهم ، بل أنّ باقي الخصائص تابعة لصفة الربّانية دائرة في فلكها ، وهو ما أكّدت عليه آيات قرآنية كثيرة ، من مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [١] ، وقد بلّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [٣] ، يعني أنّ القرآن العظيم تنزيل من الله عزّ وجلّ ، فهو لحقّ اليقين[٤] ، لكونه من عند الله حقّ فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّق إليه شكّ[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

---

(١) سورة المائدة : ٦٧.

(٢) محمّد الطّاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ٤ / ٦ / ٢٥٥.

(٣) سورة الحاقّة : الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

(٤) محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ٩ / ١٨ / ١٧٩.

(٥) محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ، تحقيق: سعيد محمّد اللحّام ، دار الفكر ، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٩٢، ٥ / ٤٠١.

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [١] ، وهذا التوكيد على مصدر هذا التصوّر هو الذي يعطيه قيمته الأساسيّة ، وقيمته الكبرى ، فهو وحده مناط الثقة في أنّه التصوّر المبرّأ من النّقص ، المبرّأ من الجهل ، المبرّأ من الهوى...هذه الخصائص المصاحبة لكلّ عمل بشري ، والتي نراها مجسّمة في جميع التصوّرات التي صاغها البشر ، ابتداء من وثنيّات وفلسفات ، أو التي تدخّل فيها البشر من العقائد السماويّة السّابقة ، وهو كذلك مناط الضمان في أنّه التصوّر الموافق للفطرة الإنسانيّة ، الملبّي لكلّ جوانبها ، المحقّق لكلّ حاجاتها ، ومن ثمّ فهو التصوّر الذي يمكن أن ينبثق منه ويقوم عليه ، أقوم منهج للحياة وأشمله[٢].

إنّ المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختصّ بحقائق العقيدة ، أو التصوّر العام للوجود ، أو يختصّ بالعبادة ، أو يختصّ بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، أو يختصّ بالمبادئ والأصول في النظام السياسي ، أو الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو يختصّ بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التّاريخ الإنساني...إلاّ من ذلك المصدر الربّاني ، ولا يتلقّى في هذا كلّه إلاّ عن مسلم يثق في دينه وتقواه ، ومزاولته بعقيدته في واقع الحياة[٣].

الشمول والتكامل والعالميّة: ونقصد بها قدرة استيعاب الإسلام لمختلف

---

(١) سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣.

(٢) سيّد قطب : خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته ، ص ٧٤.

(٣) سيّد قطب : معالم في الطريق ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلاّبية ، طبعة ٤ / ١٩٨٥ ، ص ١٢٦.

شؤون الحياة ومظاهرها ، فهو الحَكَمُ على جميع أفعال الإنسان والمبيّن لمنهج سلوكه في الحياة والمحدّد لعلاقة الإنسان بالله وبالآخرين مهما اختلفوا وتنوّعوا في أعراقهم وأديانهم وألوانهم. يمثّل بنظامه الفريد المتميّز منهجا متكاملا لتنظيم الحياة العقديّة والقانونيّة والسياسيّة والاقتصاديّة بما يستوعب أطراف الحياة المختلفة ويستجيب لحاجيات النّاس المتعدّدة والمتناقضة أحيانا كثيرة ، ممّا أكسبه صفة العالميّة في أحكامه ومبادئه وتوجيهاته ، فهو رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (١) ، وهداية للنّاس كافّة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (٢).

الوسطيّة والتوازن: وهي من الصفات الجامعة ، التي تعني الاعتدال والسماحة وعدم التفريط أو الإفراط في أي شيء. فلقد وصف الله سبحانه وتعالى أمّة الإسلام بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (٣)، وهي صفة وطيدة الصلة بخاصية الشمول المتوازن ، الحافظة من الاندفاع والغلو والتصادم ، الذي لم تسلم منه التصورات الفلسفيّة الوضعية وكثير من التصوّرات الدينية التي شوهتها التصوّرات البشريّة ، بما أضافته إليها أو أنقصته منها ، أو أوّلته تأويلا خاطئا وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة وهو جوهر الآية الكريمة ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ (٤) ، توازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونيّة (٥).

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧.

(٢) سورة سبأ : ٢٨.

(٣) سورة البقرة : ١٤٣.

(٤) سورة الملك : ٣.

(٥) سيّد قطب : خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلاّبية ، طبعة٣/ ١٩٨٣ ص١٩٨.

الإيجابية والواقعيّة: الإيجابية الفاعلة في علاقة الله عزّ وجل بالكون والحياة والإنسان، ومن ناحية الإنسان ذاته في حدود المجال الإنساني. وواقعيّة في التعامل مع الحقائق الموضوعية لا مع تصوّرات عقليّة مجرّدة. فالمنهج الإسلامي منهج واقعي من حيث مراعاته:

ـ واقع الكون كحقيقة مشاهدة تدل على حقيقة أكبر وعلى وجود أسبق.

ـ الحياة باعتبارها مرحلة حافلة بالخير والشر وتنتهي بالموت وتمهّد لحياة أخرى.

ـ الإنسان كمخلوق فيه نفخة من روح الله في غلاف من الطين[1].

من مبادئ الإسلام:

جاء الإسلام وقد عمّت أرجاء الأرض كلّ صفات ذميمة تأباها نفس الإنسان الحر. فطغى الجور والاستكبار والتعدي، كما ساءت الطباع وانحرف سلوك الناس عن طبيعة الفطرة. فلم تعد صفات الكرم والأمانة والتراحم وحبّ الخير تذكر إلاّ من قبيل المفاخرة والمديح، فلم تعد خلقا يوجّه حياة النّاس ويزكيها. وبتراخي الزّمن لم تعد من مظاهر التديّن إلاّ ما تمسّك به قلّة من بقايا الإبراهيميّة، أو ما بشّر به سيّدنا عيسى ـ عليه السّلام ـ فسادت علاقات المادّة، وانحدرت معتقدات النّاس، فوجدت الوثنيّة مرتعا خصبا لتعدّد الآلهة، وتحوّلت الكعبة إلى معبد يضمّ بين جنباته أصناما كثيرة، ممّا عمّق فيهم خصائص الجاهليّة في أخسّ صورها؛ بأن يعبد الإنسان العاقل حجرا ينحته أو شجرا

(١) انظر: محمّد عقلة: الإسلام مقاصده وخصائصه، عمان، الأردن، مكتبة الرّسالة الحديثة، طبعة١/ ١٩٨٤ ص٦٣.

يغرسه بيده. فساد قانون الطبقة، ليُرفَع السيّد ويُذلّ العامّة، ليكونوا تبعا لهوى فئة مستكبرة باغية. فغابت معاني المساواة واندرست قيمة الحريّة، وعُدّت المرأة عارا يلحق بالأب إن بُشِّر بالأنثى.

فكانت رحمة الله بعباده أن أرسل رسوله محمّد ﷺ بالهدى ودين الحقّ، فجاء مبشّرا بالتّوحيد وإخلاص العبوديّة لله وحده، داعيا إلى المساواة بين النّاس وأن لا تفاضل بينهم إلاّ بالتقوى، بعيدا عن خصائص اللّغة واللّون والأصول والجنس، رافعا عن النّاس الإصر والأغلال، واضعا بذلك حدّا لقانون الاستعباد والاستثناء. فصارت المرأة جزءًا معتبرا في المجتمع الإسلامي، بل نصفه الذي يحتضن النّصف الآخر ويتخرّج على يديه، فوُلِدت بذلك خير أمّة أُخرِجت للنّاس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، شعارها التّوحيد المطلق، ومنهجها الوسطيّة. فحدثت بذلك نقلة نوعيّة في الكون، تراوحت بين الدخول في دين الله أفواجا، أو التأثّر بمبادئ الإسلام السمحة. والنّاظر في مقاصد الإسلام الكبرى، يلحظ عظمة تلك المبادئ التي بشّر بها الإسلام واعتبرها جزء من الدّين الحقّ، بل لا يكتمل بدونها. وللإيجاز سوف نركّز على مبدأين اثنين لأهميتهما الكبرى:

المبدأ الأوّل : المساواة : لم تكن المساواة في الاتّجاهات الدينية والفكرية الوضعية القديمة والحديثة، دعوة إلى العدل والقسط، وإنّما كانت ذريعة لتفريق المجتمع وتصنيفه بحسب سلّم ظالم. فقد قسّمت الهندوسيّة المجتمع أربع طبقات يخضع أدناه للأعلى ويخدمه، وطبقة خامسة منبوذة مسحوقة، لا اعتبار لها، ثمّ يأتي في مرحلة تالية المنتمين لغير هذه الديانة، بل وشرّعت لجواز تدمير الطبقة العليا

للطبقة السفلى ، لاعتبار أنّ البراهما جزء من الإله. ثم جاءت البوذية لتلغي الطبقات وتقيم العدل الاجتماعي ، إلاّ أنّها وقعت في نفس المطب ، إذ لم تكن المساواة لذاتها ، وإنّما كانت مشروطة بالدخول فيها. وقال الفرس بنظريّة الحقّ الإلهي المقدّس ، فارتقت بالملوك إلى مراتب الألوهية. وقسّم اليونانيّون المجتمع إلى طبقتين: طبقة الحكّام « الشرفاء » ، وطبقة العبيد « المنبوذين ». ورفعت اليهوديّة شعار « شعب الله المختار » ، وحدّدت المساواة في الإطار اليهودي العِرقي ، وحكمت بالفناء على باقي الشعوب ؛ لأنّها مجرّد خدم « لأبناء الله وأحبّاءه » ، بل وأسّست التّفرقة حتّى داخل الإطار اليهودي ذاته ، مفرّقة بين أبناء يعقوب وعيسو.

وجاءت النصرانية يحكمها قانون الفعل وردّ الفعل ، إمعانا منها في التنكيل باليهود كعدوّ تاريخي ، ثمّ استحالت نظاما طبقيا داخليّا يحكمه صراع المصالح بين القائمين على أمر الكهنوت ، وفي مرحلة لاحقة عُزِلت الكنيسة عن المجتمع ، وحمت الأباطرة والمستكبرين وتغاضت عن تدميرهم المستضعفين وسرقة جهدهم ومصادرة حقوقهم ، فتحوّل المجتمع إلى جزر معزولة لا رابط بينها ولا انتماء. فكان الانتماء لدين الإسلام شرفا ومدعاة للافتخار ، يحدّد فلسفته العامّة كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ ، ويعطي عمل الصحابة والصّالحين من بعدهم ، أنموذجا حيا للتربية الرسالية. فقانون المساواة فيه محكوم بثلاث وحدات كبرى: وحدة المنشأ ، ووحدة القيمة ، ووحدة المصير[1]. ولقد أكّد على ذلك سيّدنا محمّد ﷺ في حجّة الوداع ، التي لخّص فيها القانون الإسلامي بكلّ

(١) انظر : مصطفى الرّافعي: الإسلام المدنية القادمة ص ١٠٣.

إيجاز ووضوح في أداء المعنى ، ثمّ أشهد الله سبحانه وتعالى على ذلك ، بأنّه ترك النّاس على المحجّة البيضاء.

ولقد عاشت في إطار الدّولة الإسلاميّة شعوب مختلفة في أديانها وأعراقها وعاداتها وخصائصها ، ولم تذكر المصادر التاريخية أن أكرهوا على تبديل دينهم ، أو تعاملت معهم الدّولة على ذلك الأساس ، وإنّما شملهم مبدأ العدل والمساواة في القضاء وفرص العمل والحماية من الظّلم. فلا غرابة أن يقضي أمير المؤمنين ليهودي بالحقّ ويردّ المسلم لأنّه ظالم ، وبذلك كلّ الاعتبارات الأخرى. وقد غضب الرّسول ﷺ حين جاء أسامة شفيعا لفاطمة المخزوميّة ، فأنكر عليه ذلك ، وغضب ﷺ حين قال أحد الصحابة الكرام لسيّدنا بلال بن رباح ﷺ: « يا ابن السوداء » . وقد أثر عن سيّدنا عمر بن الخطاب ﷺ قوله لأحد ولاّته: « اجعل النّاس عندك سواء ، لا تبالي عن من وجب الحق ، ثمّ لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإيّاك والأثرة والمحاباة في ما ولاّك الله » .

المبدأ الثّاني : الحريّة: لم يختلف موقف الأديان والمذاهب الأخلاقيّة الأخرى من الحريّة عن مواقفها السّابقة من المساواة ، فقد أسّست الديانة الهندوسيّة للظّلم والاستعباد بجعل البرهمي جزء من الإله ، الذي له حرية التصرّف في خلقه وعبيده ، واستوت في ذلك مع اليهود والنصارى الذين حرّموا على النّاس مخالفة الأحبار والرّهبان في فهم النصوص ، ولمّا قامت دعوى حريّة النّظر في النّص الديني ، ومخالفة رجال الدّين في مواقف علميّة ثابتة ، أصدرت الكنيسة قرارات الحرمان وأحكام القتل والإبادة لمن أسمتهم بالهراطقة المتمرّدين على ظلّ الله في الأرض ، كما نال سبينوزا Spinoza نصيبا من الحصار والطّرد ، عندما خالف

رجال الدّين اليهود في كثير ممّا يعتبرونه مسلّمات.

ولم تقتصر محاكم التفتيش والمجازر الجماعية على المسلمين فقط ، وإنّما عملت الكنيسة سيفها حتّى في رقاب النصارى البروتستانت. كما أصدرت كنيسة إسبانيا في ٣٠ مارس ١٤٩٢ قرارا بإخلاء إسبانيا من كلّ يهودي يرفض التعميد ، وأصدرت في سنة ١٥٠٢ قرارا بطرد أعداء الله المغاربة « المسلمين » إذا لم يقبلوا التعميد ، وأصدر البابا سنة ١٧٦٤ منشورا لعن فيه كلّ مخالف لرأي الكنيسة أو يقول بحرّية قراءة النّص الدّيني ، وفي سنة ١٥٧٢ وقعت بباريس مذبحة البروتستانت من طرف الكاثوليك[١] ، وفي القرن الحادي والعشرين تمنع الدولة الفرنسية المحجّبات من دخول المؤسّسات التعليميّة الفرنسيّة[٢] ، وتجعل ذلك من مبادئ الدستور. كما يمنع في أغلب أوروبا رفع المآذن فوق سطوح المساجد ، بل وتساند بعض الدول الأوروبية بعض الحركات العنصرية المتطرّفة للنيل من مقدّسات المسلمين وتجريمهم لأدنى صغيرة ، ولعلّ أخطر جريمة ترتكب في حقّ الإسلام وتعتدي على مقدّسات المسلمين مساندة الحكومة الدنماركية لإحدى صحفها التي نشرت صورا يدوية تسخر من نبي الإسلام محمّد ﷺ ، بل ورفضت الاعتذار عن ذلك برغم تنديد المسلمين الدنماركيين بتلك الجريمة ومطالبة كلّ الحكومات الإسلامية دولة الدنمارك بالاعتذار وتتبّع الجناة.

فكان الإسلام رحمة للعالمين ، يكفل حريّة الفكر بتوجيه النّاس إلى الرّقي في

---

(١) أحمد شلبي: الإسلام ، مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة ، طبعة ٦ / ١٩٧٩ ، طبعة مزيدة ومنقّحة ص١٨٤.

(٢) Voir : - Elizabeth Altschull : Le Voile contre l'ecole – Seuil – Paris. Françoise Gaspard / Farhad Khosrokhavaer : Le Foulard et la république – La Découverte – Paris.

مدارج العلم ومسالك المعرفة ، التي لا تحكمها إلاّ ضوابط الشّرع ومقاصده ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (١) ، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (٢) ، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤). كلّ ذلك كان ظلالا لمبادئ الإسلام السَّمحة التي ارتفعت بالإنسانيّة إلى منازل تحفظ كرامتها وقدرها ، فحرام الإكراه وقتل النّفس بغير حقّ والتعدّي عن المال والعقل والعرض .

الرسول ﷺ عند غير المسلمين :

وقد شدّ هذا الدّين الحنيف انتباه كثير من المفكّرين ، وذلك بما يفرضه على الدّارس من أن يقف طويلا للاطلاع على جوهره والتعرّف على مبادئه ، ومن ثم إجراء المقارنة الهادفة ، بعيدا عن الأحكام المسبقة والعاطفية غالبا. وقد سعت بعض وسائل الإعلام المغرضة للنيل من شخص النبي الكريم ﷺ ، تحت شعار حرية الصحافة والتعبير. ومن ذلك الجريمة التي أقدمت عليها الصحيفة الدنماركية « Jyllands-Posten » من نشر صور كاريكاتيرية للنبي الكريم ﷺ في عددها الصادر يوم ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥ ، ثم تبعتها في المؤامرة الصحيفة النصرانية النرويجية « Magazinet » في عددها بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٠٦ ، ثم الصحف

---

(١) سورة الزمر : ٩.

(٢) سورة المجادلة : ١١.

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦.

(٤) سورة يونس : ٩٩.

الهولندية والفرنسية. إلاّ أنّ ذلك لا يعدّ سببا في تجاهل المنصفين الذين احترموا النبي الأكرم ووصفوه بأوصاف رفيعة نبيلة ، ومن هؤلاء :

ـ الأديب الرّوسي « تولستوي » وهو أحد الذين أحبّوا الإسلام وأحبّوا رسوله ، وممّا أثر عنه قوله: « لا ريب أنّ هذا النبيّ من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعيّة خدمة جليلة. ويكفيه فخرا أن هدى أمّة برمّتها إلى نور الحقّ ، وجعلها تجنح إلى الإسلام وتكفّ عن سفك الدماء وتقديم الضحايا. ويكفيه فخرا أنّه فتح طريق الرقيّ والتقدّم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلاّ شخص أوتي قوّة وحكمة وعلما ، ورجلا مثله جدير بالاحترام والإجلال »[1].

ـ مهاتما غاندي: « أردت أن أعرف صفات الرّجل الذي يملك بدون منازع قلوب ملايين البشر ، لقد أصبحت مقتنعا كلّ الاقتناع أنّ السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته ، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود ، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه ، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت الطريق ، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسفا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة »[2].

ـ البروفسور راما كريشنا راو: « لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها. ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدّمه هو نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة.

---

(١) أمينة الصّاوي وعبد العزيز شرف : جارودي والحضارة الإسلامية ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدّة ، طبعة ٢/ ١٩٨٥، ص ٢٧ .

(٢) مهاتما غاندي : حديث لجريدة « ينج إنديا » .

فهناك محمد النبي ، ومحمد المحارب ، ومحمد رجل الأعمال ، ومحمد رجل السياسة ، ومحمد الخطيب ، ومحمد المصلح ، ومحمد ملاذ اليتامى ، ومحامي العبيد ، ومحمد محرّر النساء ، ومحمد القاضي ، كل هذه الأدوار الرائعة في كلّ دروب الحياة الإنسانية تؤهّله لأن يكون بطلا »[1].

ـ ساروجني ندو شاعرة الهند: « يعتبر الإسلام أول الأديان مناديا ومطبقا للديمقراطية ، وتبدأ هذه الديمقراطية في المسجد خمس مرات في اليوم الواحد عندما ينادى للصلاة ، ويسجد القروي والملك جنبا لجنب اعترافا بأنّ الله أكبر ، ما أدهشني هو هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم والتي جعلت من كل رجل بشكل تلقائي أخا للآخر » .

ـ المفكّر الفرنسي لامرتين: « إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سموّ الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلّة الوسيلة ، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته؟ ، فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسنوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات ، فلم يجنوا إلاّ أمجادا بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانَيْهم. وهو لم يحكم الشعوب ويروض الحكام فقط ، وإنّما قاد الملايين من الناس فيما كان يعد ثلث العالم حينئذ. ليس هذا فقط بل إنّه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.

لقد صبر النبي وتجلّد حتى نال النصر. كان طموح النبي موجّها بالكلية إلى هدف واحد ، فلم يطمح إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك. حتى صلاة النبي الدائمة ومناجاته لربّه ووفاته وانتصاره حتى بعد موته ، كلّ ذلك لا يدلّ على

(١) محمد النبي .

الغش والخداع بل يدلّ على اليقين الصّادق الذي أعطى النبي الطّاقة والقوّة لإرساء عقيدة ذات شقين: الإيمان بوحدانية الله ، والإيمان بمخالفته تعالى للحوادث. فالشق الأوّل يبيّن صفة الله ، بينما الآخر يوضّح ما لا يتّصف به الله تعالى . لتحقيق الأوّل كان لا بدّ من القضاء على الآلهة المدّعاة من دون الله بالسيف ، أمّا الثاني فقد تطلّب ترسيخ العقيدة بالكلمة. هذا هو محمّد الفيلسوف ، الخطيب ، النبي ، المشرّع ، المحارب ، قاهر الأهواء ، مؤسّس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة حقة ، بلا أنصاب ولا أزلام. هو المؤسّس لعشرين إمبراطورية في الأرض ، وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمّد ، بالنّظر لكلّ مقاييس العظمة البشرية ، أودّ أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد؟[1].

ـــ مونتجومري : « إنّ استعداد هذا الرّجل لتحمّل الاضطهاد من أجل معتقداته ، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتّبعوه واعتبروه سيّدا وقائدا لهم ، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة ، كلّ ذلك يدلّ على العدالة والنزاهة المتأصّلة في شخصه. فافتراض أنّ محمّدا مدع افتراض يثير مشاكل أكثر ولا يحلّها. بل إنّه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللاّئق بها مثل ما فعل بمحمد » [2].

ـ بوسورث سميث: « لقد كان محمّدا قائدا سياسيا وزعيما دينيا في آن واحد. لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدّين ، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة. ولم

(١) تاريخ تركيا ، باريس ١٨٥٤، ٢/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) محمد في مكّة ـ ١٩٥٣، ص ٥٢.

يكن لديه جيوش مجيّشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت. إذا كان لأحد أن يقول : إنّه حكم بالقدرة الإلهية فإنّه محمد ؛ لأنّه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها » [١].

- إدوارد جيبون وسيمون أوكلي : « ليس انتشار الدعوة الإسلامية هو ما يستحق الانبهار وإنّما استمراريتها وثباتها على مرّ العصور. فما زال الانطباع الرائع الذي حفره محمد في مكّة والمدينة له نفس الروعة والقوّة في نفوس الهنود والأفارقة والأتراك حديثي العهد بالقرآن ، رغم مرور اثني عشر قرنا من الزمان.

لقد استطاع المسلمون الصمود يدا واحدة في مواجهة فتنة الإيمان بالله رغم أنّهم لم يعرفوه إلاّ من خلال العقل والمشاعر الإنسانية. فقول : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله هي ببساطة شهادة الإسلام. ولم يتأثّر إحساسهم بألوهية الله بوجود أيّ من الأشياء المنظورة التي كانت تتّخذ آلهة من دون الله. ولم يتجاوز شرف النبي وفضائله حدود الفضيلة المعروفة لدى البشر ، كما أنّ منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له منحصرة في نطاق العقل والدّين » [٢].

ـ الدكتور زويمر: « إنّ محمّدا كان ولا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين ، ويصدق عليه القول أيضا بأنّه كان مصلحا قديرا وبليغا فصيحا وجريئا مغوارا ، ومفكّرا عظيما ، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات ، وهذا قرآنه الذي جاء به وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء »[٣].

---

(١) محمد والمحمدية ، لندن ١٨٧٤، ص ٩٢.

(٢) تاريخ إمبراطورية الشرق ، لندن ١٨٧٠ ص٥٤.

(٣) الشرق وعاداته .

ـ برتلي سانت هيلر: « كان محمد رئيسا للدولة وساهرا على حياة الشعب وحريته ، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب أحوال زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كانت يعيش النبي بين ظهرانيها ، فكان النبي داعيا إلى ديانة الإله الواحد وكان في دعوته هذه لطيفا ورحيما حتى مع أعدائه ، وإن في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرّحمة »[1].

ـ إدوار مونته : « عرف محمّد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم ، ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقّق ، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره ، وأشدّهم حفاظا على الزمام ، فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل ، وأسس لهم دولة زمنية ودينية ولا تزال إلى اليوم »[2].

ـ برنارد شو: « إنّ العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد ، هذا النبي الذي وضع دينه دائما موضع الاحترام والإجلال فإنّه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، خالدا خلود الأبد ، وإني أرى كثيرا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بيّنة ، وسيجد هذا الدّين مجاله الفسيح في هذه القارة. إنّ رجال الدّين في القرون الوسطى ونتيجة للجهل أو التعصّب قد رسموا لدين محمّد صورة قاتمة ، لقد كانوا يعتبرونه عدوّا للمسيحية ، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرّجل ، فوجدته أعجوبة خارقة ، وتوصّلت إلى أنّه لم يكن عدوّا للمسيحية ، بل يجب أن يسمّى منقذ البشرية ، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم ، لوفّق في حلّ

(١) الشرقيون وعقائدهم .

(٢) كتاب : العرب .

مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها »[١].

ـ السير موير: « إنّ محمّدا نبي المسلمين لقّب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه وحسن سلوكه ، ومهما يكن هناك من أمر فإنّ محمّدا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف ، ولا يعرفه من جهله ، وخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد ، ذلك التاريخ الذي ترك محمّدا في طليعة الرّسل ومفكّري العالم »[٢].

ـ سنرستن الآسوجي: « إنّنا لم ننصف محمّدا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا ، فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية ، مصرّا على مبدئه ، ومازال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين ، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع ، وهو فوق عظماء التاريخ »[٣].

ـ المستر سنكس: « ظهر محمّد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة ، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر ، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة ، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد ، وبحياة بعد هذه الحياة...إنّ الفكرة الدينية الإسلامية أحدثت رقيّا كبيرا جدا في العالم ، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهّان. ولقد توصّل محمّد ــ بمحوه كلّ صورة في المعابد وإبطاله كلّ تمثيل لذات الخالق المطلق ــ إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة »[٤].

---

(١) كتاب : محمد. وقد أحرقته السلطة البريطانية يومها .

(٢) تاريخ محمد.

(٣) تاريخ حياة محمد.

(٤) ديانة العرب.

ـ آن بيزيت: « من المستحيل لأيّ شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علّم النّاس ، إلاّ أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل ، أحد رسل الله العظماء ، ورغم أنّني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من النّاس فإنّني أشعر في كلّ مرّة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجدّدين لهذا المعلّم العربي العظيم. هل تقصد أن تخبرني أنّ رجلا في عنفوان شبابه لم يتعدّ الرابعة والعشرين من عمره بعد أن تزوّج من امرأة أكبر منه بكثير وظلّ وفيّا لها طيلة ٢٦ عاما ثمّ عندما بلغ الخمسين من عمره ـ السن التي تخبو فيها شهوات الجسد ـ تزوّج لإشباع رغباته وشهواته؟. ليس هكذا الحكم على حياة الأشخاص. فلو نظرت إلى النساء اللاّتي تزوجهن لوجدت أنّ كلّ زيجة من هذه الزيجات كانت سببا إمّا في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه ، أو الحصول على شيء يعود بالنفع على أصحابه أو كانت المرأة التي تزوّجها في حاجة ماسّة للحماية »[1].

ـ مايكل هارت : « إنّ اختياري محمّدا ليكون الأوّل في أهمّ وأعظم رجال التّاريخ ، قد يدهش القرّاء ، ولكنّه الرّجل الوحيد في التاريخ كلّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي. فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدؤوا رسالات عظيمة ، ولكنّهم ماتوا دون إتمامها ، كالمسيح في المسيحية ، أو شاركهم فيها غيرهم ، أو سبقهم إليهم سواهم ، كموسى في اليهودية ، ولكن محمّدا هو الوحيد الذي أتمّ رسالته الدينية ، وتحدّدت أحكامها ، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنّه أقام جانب الدين دولة جديدة ، فإنّه في هذا المجال الدنيوي

(١) حياة وتعاليم محمد ، سنة ١٩٣٢.

أيضا ، وحّد القبائل في شعب ، والشعوب في أمّة ، ووضع لها كلّ أسس حياتها ، ورسم أمور دنياها ، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضا في حياته ، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمّها »[١].

ـ شبرك النمساوي : « إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمّد إليها ، إذ إنّه رغم أمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع ، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمّته »[٢].

ـ هربرت جورج ولز[٣]: « هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقًا؟. ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم ، كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر شاهد أفضل وهو لم يتردّد قط في إخلاصه. كان يؤمن بالنبي ، وكذلك علي فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه سوادًا.

حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة ، قبل وفاته بعام ، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة. إن أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء ، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة ، إنها أسّست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفخ

---

(١) مائة رجل من التاريخ .

(٢) انظر: إسلام أون لاين : السيرة النبوية .

(٣) هربرت جورج ولز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦) H. G. Wells كاتب وأديب بريطاني، حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨ ، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذي يعتمد الخيال العلمي من مثل « آلة الزمن » و« الرجل الخفي » ، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية مثل «مكيافيللي الجديد» و« الزواج » . ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأنجز عام ١٩٢٠ « معالم تاريخ الإنسانية » الذي أُخِذت منه هذه الفقرات .

في الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي ، عما في أي جماعة أخرى سبقتها. لقد منح العرب العالم ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم ، أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي فهو محمد » .

ـ هنري دي فاستري[1]: « إن أشد ما نتطلّع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ؛ ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علّني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي. ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه...ولقد نعلم أن محمدًا مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته ، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون. وكان بغضهما متمكنًا من قلبه ، وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه. ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك ، إلا أن يقول مرارًا ويعيد تكرارًا هذه الكلمات (الله أحد.. الله أحد). كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد.

---

(١) هنري دي فاستري : الإسلام خواطر وسوانح .

لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبل به المتكلمون من المسيحيين، لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل، إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة؛ لأن الصدق حاصل في كل حال. لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه. فأما الإيمان فلن يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني (الدور المدني) وما أُوتيه من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغًا لا محل للزيادة فيه، وما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحًا، وكان قنوعًا خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته، تجرّد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيرًا ولا حشمًا، وقد احتقر المال».

ـ مونته[1]: «إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحًا دينيًّا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيرًا وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشركَ والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كبارًا جدًّا في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا وبخسوه حقه، وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم

(١) مونته (١٨٥٦ – ١٩٢٧) Montet أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، من كتبه: محمد والقرآن، وترجمة للقرآن، وحاضر الإسلام ومستقبله. أخذ المعلومات عن كتاب محمد والقرآن، ص ١٨.

بدقائقها. كان محمد كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله. ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله، وإن ما قام به من إصلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية.

ـ لايتنر[1]: « بقدر ما أعرف من دينيْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا، بل قد أوحي إليه به، ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، وإيمان القلوب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحي إليه. إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح تخالف التعاليم السّرية التي أذاعها بولس والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى. ولقد كانت آمال محمد وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعًا، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام.

لما بلغ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها أربعون عامًا،

---

(١) لايتنر Lightner باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها. عن كتاب: دين الإسلام.

وهذه تشابه امرأة عمرها خمسون عامًا في أوروبا ، وهي أول من آمن برسالته المقدسة. وبقيت خديجة معه عشرين عامًا لم يتزوج عليها قط حتى ماتت. ولما بلغ من العمر خمسًا وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى . لكن ليس من الاستقامة والصدق أن ننسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذاك العمر بالطهارة والعفاف ، فلا ريب أن لزواجه بسن الكبر أسبابًا حقيقية غير التي يتشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص ، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ ولا ريب هي شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا. مرة أوحى الله تعالى إلى النبي وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًّا من ذوي النفوذ ، وقد نشر ذاك الوحي ، فلو كان كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذاك الوحي من وجود. إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح احترامًا عظيمًا وذلك باحترامهم محمدًا ، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق » .

ـ إميل درمنغم[1]: « إذا كانت كل نفس بشرية تنطوي على عبرة وإذا كان كل موجود يشتمل على عظة فما أعظم ما تثيره فينا من الأثر الخاص العميق المحرك الخصيب حياة رجل يؤمن برسالته فريق كبير من بني الإنسان. ولد لمحمد من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً ، فحزن عليه كثيرًا ولحده بيده وبكاه ، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون : إنها انكسفت لموته. ولكن محمدًا كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك فقال: « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات**

(١) إميل درمنغم E.Dermenghem مستشرق فرنسي، عمل مديرا لمكتبة الجزائر، من آثاره: « حياة محمد » ، و « باريس ١٩٢٩ » ، وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي محمد ﷺ ، و« محمد والسنة الإسلامية » ، « باريس ١٩٥٥ » . عن كتابه حياة محمد، ترجمة محمد عادل زُعَيْتِر .

الله لا يخسفان لموت أحد... » فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال. وتجلت بهذه الرحلة الباهرة « حجة الوداع » ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع ، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة.

إن محمدًا الذي خلق للقيادة لم يطالب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلغهم رسالات الله ، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين. وكان ينهى عن عده ملكا. ولقد نال السلطان والثراء والمجد ، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم. والحق أن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء ، فقضى حياة يعجب الإنسان بها ، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا ، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد ، عما قليل ، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي. وليس لدينا ما نعرف به أن محمدًا أبصر ، حين أفاض من جبل عرفات ، مستقبل أمته وانتشار دينه ، وأنه أحس ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وإفريقية وإسبانية » .

*****